الأدب العربي
المكتوب باللغة الفرنسية

محمود قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الأدب العربي
المكتوب باللغة الفرنسية

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

قبل أن تقرأ

أليس من المثير للجدل أن المرء عندما يتصفح أرفف اية مكتبة فرنسية فانه يجد مجموعة كبيرة من الكتب عن الثقافة العربية المكتوبة اساسا باللغة الفرنسية فى نفس الوقت الذى يلاحظ ان مثل هذه العناوين تكاد تكون غير موجودة فى أرفف المكتبة العربية ؟

لا شك ان المرء سيصدم لو طالع هذا الكم الهائل من العناوين الخاصة بهذا الموضوع باللغة الفرنسية ٠ والكثير من هذه الكتب قديم تاريخا وحديث أيضا ٠ ورغم ذلك فانه لا يوجد فى المكتبة العربية كتاب واحد يدرس هذه الظاهرة ٠ ويقدمها الى القارىء العربى ٠

وليس الكتاب الذى بين يديك فقط هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية ، بل هو أيضا الأول من نوعه الذى يفرد مثل هذه الصفحات عن الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى كل الوطن العربى وخارجه ٠ ففى عناوين الكتب التى رجعنا اليها نجد هناك تقسيمات واضحة للأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية حسب المناطق ٠ وكأنه أدب معزول ٠ فهناك أدب فى المغرب العربى وآخر فى مصر ٠ وكأن جغرافية ليبيا على سبيل المثال قد حجزت بين الأدبين ، ثم هناك أدب ثالث فى لبنان ٠ أما الكتب التى تتناول الأدب الفرانكفونى فهى تتعامل أساسا مع اللغة التى تجمع بين الأدباء فى أماكن عديدة من العالم ٠ منها كندا وبلجيكا ٠ وسويسرا وأفريقيا ٠ وبعض المستعمرات الفرنسية القديمة المتناثرة فى العالم ٠ ولم يكن أمامنا سوى أن نتتبع نفس المنهج فى الكتابة

وقد أوضحنا فى هذا الكتاب ، وفى خلال فصوله العديدة ان الأدب « العربى » المكتوب باللغة الفرنسية ليس أبدا أدبا فرنسيا ٠ رغم أنه منشور فى دور النشر الفرنسية ، ورغم أنه مكتوب باللغة الفرنسية ، لكن اللغة لم تصنع أبدا هوية قومية مختلفة للكاتب الذى ولد عربيا ٠ ولكن ظروف نشأته وتعليمه جعلته يتقن اللغة الفرنسية التى اعتبرت بالنسبة له لغة كتابة أولى ٠ لكنها لم تطمس أبدا فيه هويته العربية ٠ ولو شئنا أن نقيس ذلك بشكل واضح فان الفصل الذى قدمناه عن الأدباء اليهود الذين كتبوا باللغة الفرنسية قد بين كيفية الاختلاف

بين الكاتب اليهودى الغربى الذى يعيش فى نفس المدينة باريس . السفارديم منهم حيث يعتبرون أنفسهم عربا يهودا . وهم لم يناصروا اسرائيل فى سياستها ولم يقوموا بزيارتها ولم يتخلوا عن هويتهم العربية .. وظلوا يكتبون دوما عن سنوات الحنين التى عاشوها فى مصر والمغرب العربى .

وقد شئنا أن نضع هذا المقياس لنوضح كيف أن الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية قد ظلموا كثيرا فى أوطانهم . وقد جاءت المأساة من أن هذا الظلم وقع من جوانب عديدة . منها مقياس حركة الترجمة من ناحية ، ومنها النظرة اليهم نظرة بها ريبة واضحة . وقصدية كأن هذا الكاتب الذى قد اتخذ لنفسه لغة تعبير هى أساسا للمستعمر قد جنح بذلك الى العمالة (!!) وهو تصور ساذج سمعته من الكثيرين الذين علقوا على عالم ألبير قصيرى بعد أن ترجمت له أربع روايات . ثم فى عالم أندريه شديد . حيث نظر البعض الى هذا الأدب الذى يدور أغلبه فى الأحياء الشعبية باعتباره أدبا يشوه وجه مصر . وان مصر أبدا لم تكن هذه الحوارى رغم أن هؤلاء أنفسهم قد أعجبوا كثيرا بنفس العالم فى الروايات العربية التى كتبها أدباء من طراز نجيب محفوظ ويوسف السباعى وأمين يوسف غراب وآخرون .

كما أن هذا الأدب قد تعرض للغبن فى عالمه العربى بشكل ملحوظ حيث ان هؤلاء الأدباء لم يشكلوا تجمعا . وكانوا بعيدين ، جسمانيا ، عن دائرة الحلقات الأدبية . وبذلك ترك الباحثون العرب الساحة مفتوحة لأقرانهم الأجانب ، وخاصة الفرنسيين ، للاهتمام بهذا الابداع .

والغريب أن كاتب هذه السطور – على سبيل المثال – اكتشف هذا العالم بالمصادفة . وفى فترة متأخرة حين وقعت عيناى على رواية «شحاذون ومعتزمون» لقصيرى . وما أن قرأت الفصل الأول منها حتى شرعت فى ترجمتها دون أن أكملها . ثم كان ذلك بمثابة مدخل الى قصيرى . الذى ترجمت له بعد ذلك روايات « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية » و « كسالى فى الوادى الخصيب » .

وكما سنرى ، فان هؤلاء الأدباء يواجهون بازدواجية أدبية . فهم فى بلادهم العربية ينظر اليهم على أنهم كتاب أجانب يعيشون فى بلد أجنبى . ومن المعروف أن أغلبهم قد رحل الى فرنسا بعد أن تقلصت أنشطتهم فى مصر . وخاصة بعد أن توترت العلاقات مع فرنسا عقب العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ ، لبلاده التى جاء منها . وعندما تغيرت كتاباته ، تحت وقع الزمن لجأ الى تجريد ابداعه من الزمان

والمكان · ولم ينظر أبدا الى المكان الذى « هاجر » اليه وعاش فوقه · لكنه أبدا لم ينفعل به كمكان ·· فهو ينظرون اليه كمهاجر ليس أبدا من أبناء الوطن · وهو فى المقام الأول أيضا مثقف « فرانكفونى » ولم تتعامل الأوساط الفرنسية أبدا معهم على أنهم فرنسيون حتى لو حصلوا على الجنسية الفرنسية ·

ولذا ، فان فى هذا الكتاب فصولا لم نرجع فيها الى الكتب الكثيرة التى رجعنا اليها حين اعداد هذا الكتاب · ولكن هذه الفصول وليدة نفسها مثل الفصل الخاص بالابداع الفلسطينى المكتوب بالفرنسية والفصل الخاص بابداع الجيلين الثانى والثالث من المهاجرين العرب الذين يعيشون اليوم فى فرنسا · ويحملون الجنسية الفرنسية · وهم أبناء المهاجرين الأوائل الذين سافروا الى فرنسا عقب الاستقلال أو قبله بقليل ·

وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نرصد ، بانوراميا ، الكثير من الأسماء المهمة فى عالم الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية · فخصصنا شبه قاموس صغير لكتاب كل بلد فى نهاية الفصل الخاص به · هذا بالاضافة الى القاء الأضواء مركزة على أبرز الأسماء فى بلادها ·· من خلال البحث والتحليل والرصد لهذا الأدب ·

هل هو أدب عربى ·· ؟

أجل ·· هو أدب عربى ·· وقد جاء الأوان للاعتراف به ·· وتقديمه الى القارىء العربى ·· وذلك بعد هذه الظلال الكثيفة التى ألقيت عليه ·· وانسحبت فوق بساطه ·

الفصل الأول :

السمات العامة للأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية

انهم من وطن واحد · وجميعهم مهاجر الى لغة وطن لا يتكلم بها وطنه · وهم واقعون فى ازدواجية ثقافية واضحة · ثقافة البلاد التى ولدوا فيها وانتموا اليها · وثقافة البلد الذى وجدوا انفسهم يتكلمون لغته · أو يختارونه مهجرا ·

هذا هو حال اغلب الأدباء العرب الذين يكتبون ابداعهم باللغة الفرنسية · ان لم يكن حال جميعهم · ولا شك أن هناك مجموعة من السمات العامة التى يمكن أن تربط فيما بينها اسب هؤلاء الكتاب أو ابداعهم · أو حتى علاقتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه · سواء الذى جاءوا منه أو القادمين اليه · وسوف نتحدث هنا عن مجموعة من أهم هذه السمات :

☐ ارتبط هذا الأدب فى المقام الأول بوجود قوات احتلال فرنسية فى بعض البلاد ، فلا شك أن بعض الأدباء فى المغرب العربى يعتبرون أن لغتهم الأولى هى اللغة الفرنسية · وذلك بواقع اكثر من مائة وثلاثين عاما من الاحتلال الفرنسى لكل من الجزائر وتونس والمغرب · وقد لعب الاستعمار الفرنسى دورا خطيرا · لم يلعبه أى احتلال آخر فى دول العالم العربى · حتى فرنسا نفسها لم تلعب مثل هذا الدور فى دول أخرى احتلتها فى المنطقة ، ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب منها الفترة الزمنية الطويلة التى ظلت فيها قوات الاحتلال فى شمال افريقيا · وأيضا لاقتراب هذه المنطقة جغرافيا من فرنسا ·

هذا الدور الذى نقصده هو « الفرنسية » أو صبغ البلاد التى احتلتها بكل ما هو فرنسى · وخاصة اللغة · وقد تنبه الفرنسيون الى أن اللغة

باعتبارها المنطوق الأساسى للبشر ، يمكن أن تزيد من انتماء المتحدث بها الى ثقافة هذه الدولة ٠

وعلى مدى أجيال متعاقبة تمكنت اللغة الفرنسية من أبناء المغرب العربى ٠ ثم بدأت هذه اللغة تصبح لغتهم الأولى ٠ ولم يعد صعبا على المواطن العربى الذى ينتقل بين بلاده وفرنسا أن يجد أى اختلاف بين اللغة التى يتكلمها فى أى من الأرضين ٠ فزاد احساسه بالانتماء الى الأرض الفرنسية من ناحية ٠ كما زاد ارتباطه بالثقافة الفرنسية من ناحية أخرى ٠

ولذا ، فان الأدباء العرب الأوائل الذين كتبوا بالفرنسية ٠ لم يجدوا أية غربة أو غرابة فى أن تكون كتاباتهم باللغة الفرنسية ٠ مثل كاتب ياسين ٠ ليس لأن الفرنسية هي لغتهم الأولى فقط ٠ بل لأن علاقتهم باللغة العربية كانت واهية وضعيفة ، خاصة أن تميز الكاتب غالبا ، وأساسيا هو تميزه فى اختيار مفردات لغته الأدبية ٠

ولذا ، لم يكن غريبا على الكاتب أن يكتب باللغة الفرنسية فى البداية ، ولعل الأمر قد تغير كثيرا مع زيادة حركة التعريب فى شمال أفريقيا ٠ وهنا بدأت الأسباب تتغير ، حيث بدأت اللغة العربية تعود الى حالة ازدهارها القديم ٠ ولكن بعض المثقفين وجدوا أنفسهم يمتلكون ناصية اللغة الفرنسية أكثر ٠ ثم وجد الكثير منهم أن الكتابة بالفرنسية أفضل لعدة أسباب منها أن الكاتب يمكن أن يتعايش طيلة حياته من عائد كتاب واحد لو نشره فى احدى دور النشر الفرنسية، بينما عائدات الكتب الصادرة فى العالم العربى هزيلة ٠ ولا تقيم أية حياة كريمة أو غير كريمة للكاتب ٠ ومن هذه الأسباب أيضا كثرة المحظورات الرقابية فى العالم العربى أمام الكاتب ، وانكماش حركة النشر والقراءة ، بينما ازدهرت هذه الأمور بشكل ملحوظ فى فرنسا ٠

ولو نظرنا الى نفس النقطة السابقة فسوف نجد أن السمة الثانية فى الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية مرتبطة فى غالب الأحيان بالمهجر ٠ أى هجرة الكاتب ٠ ومن المعروف ان الأدب العربى قد شهد فى بداية القرن ما يسمى بحركة الهجرة الأولى التى اتجهت نحو أمريكا اللاتينية ٠ وقد شهدت هذه الحركة ازدهارا ملحوظا فى الأدب العربى المكتوب خارج حدود الوطن ٠ حيث ظل الأدباء ، لفترة ، لا يكتبون الا باللغة العربية ، قبل أن يذوبوا وأولادهم واحفادهم فى هذه البلاد ٠٠ أما حركة الهجرة الثانية فقد جاءت من شمال المغرب الى فرنسا ٠ وقد ازدادت بشكل ملحوظ عقب استقلال بلاد المغرب العربى ٠ ووصلت حركة

الهجرة الى أعلى معدلاتها فى نهاية الستينات ومع سنوات السبعينات الى درجة جعلت السلطات الفرنسية ــ كما جاء فى جريدة الأهرام ٤ يناير ١٩٨٦ ــ الى أن تعتبر اللغة العربية هى اللغة الثانية فى المدارس الفرنسية . وقد كتبت انى كريجيه كريتكى فى كتابها « المسلمون فى فرنسا » أن « المناضلين الذين اشتركوا فى الحرب لاخراج الفرنسيين من الجزائر قد سعوا بأنفسهم الى فرنسا بعد أن أعلنوا : « لقد كسبنا هذه الحرب » .. ليعملوا ويقيموا بها . ويبدو أن القادمين من شمال افريقيا قد أرادوا أن يردوا الدين لفرنسا فسعوا لاستعمارها مثلما استعمرتهم » (١) .

ويهمنا أن نذكر ، كما جاء فى نفس المرجع السابق ، ان عدد الجزائريين الذين وصلوا الى فرنسا وصل الى ١٫٨ مليون نسمة . والآن وبعد أكثر من ثلاثين عاما ظهرت ثلاثة أجيال من المهاجرين . أو حسبما يقول أحد الشباب المسافرين حديثا الى فرنسا .. « نتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم من آبائنا . وآخر من مدرسينا . وثالث من الحياة .. وهذه الأنماط تتضارب ، فهؤلاء الذين رحلوا فى النصف الأول من الستينيات قد تجاوزوا الآن الثلاثين .

وتقول الكاتبة ان العرب يعملون هناك فى مهن عديدة ويضع أكثرهم عينيه على عالم الفنون . وتقول ان الكثير من الأعمال الأدبية والسينمائية التى يبدعها المهاجرون تنادى بالارتباط بالوطن الأم من ناحية ، والعودة اليه من ناحية أخرى ، حتى لا تنقطع الروابط بين المرء ووطنه اذا طال غيابه .

وما دمنا بصدد هذه النقطة ، فان العرب الذين يسافرون الى فرنسا قد كتبوا باللغة الفرنسية فى المقام الأول ، ورغم أن المطابع العربية قد انتقلت الى فرنسا لتصدر الصحف والمجلات والكتب التى توزع فى المنطقة العربية لأسباب سياسية وأمنية . فان أدب هؤلاء القادمين من شمال أوروبا كان فى الغالب ناطقا باللغة الفرنسية . أما ما كانوا يكتبون فى مجلات وصحف مثل « اليوم السابع » وغيرها فكان غالبه مترجما عن اللغة الفرنسية .

□ لم ينحصر هم الكاتب العربى الذى يكتب باللغة الفرنسية بالانبهار فقط بالثقافة الأوربية . بل كان همه الأول هو البيئة العربية وثقافتها

(١) Les muslumans en France, Annie K. Krihiki : Maison neuve Paris, 1985, p. 32.

(٢) المرجع السابق .

القديمة والحديثة • ولذا ، فنحن نقول اننا امام ادب « عربى » مكتـوب باللغة الفرنسية ؛ لأنه مرتبط بالمكان الذى يكتب عنـه • وبالنـاس الذين يعيشون فى هذا المكان • بثقافتهم وسلوكهم الخاص والعام • وهو دائما أسير هذا المكان الذى عاش فيه أغلب سنوات طفولته وشبابه لا يستطيع أن ينزع نفسه منه • وأغلب هؤلاء الأدباء عرفوا لحظات الابداع الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى أوربا • بل ان الكثيرين منهم قد نشروا كتاباتهم الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى فرنسا • وعندما تم الرحيل ، وهو غالبا رحيل اختيارى ، فان الكاتب ظل ملتصقا بوطنه • ليس فقط من خلال احتفاظه بالجنسية العربية التى جاء منها • بل أيضا فى ارتباطه بالأرض النبـع •

ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب • منهـا أن الكاتب مهمـا فعل ، ومهما تجنس بالجنسية الفرنسية فهـو فى منظـور الوطنيين الفرنسيين « أجنبيا » مهما فعـل • كما أن القارىء الغربى يميل الى أن يقرأ عن أجواء الشرق ، بلغته ، من قبل أدباء قادمين بأنفسهم من هذه المنطقة وينتمون اليها • وليسوا مجرد سائحين سافروا لبضعة أيام أو أكثر للاقامة فى الشرق ، ثم يعودون مرة أخرى حاملين ذكريات عابرة •

لذا ، فنحن نؤكد أنهم أدباء « عـربيو » ابداعا وانتماء •• وقـد تكون هناك حالات استثنائية ، غيرت فى ابداعاتها الأدبية مثلما حدث مع جويس منصور مثلا • لكن هذه الشاعرة المصرية كانت منذ البداية سريالية الاتجاه •• حاولت فى كل أعمالها تجريد المكان من مدلولاته ورموزه •

والكاتب العربى الذى هاجر الى فرنسا للمعيشة فيها كان مضطرا بدافع الضرورة • فلو لم يفعل ذلك فلن يكون مقروءا ، لا فى بلاده ، ولا فى فرنسا • مثلما حدث مع الشاعر المصرى أحمد راسم • وهؤلاء الكتـاب لا ينبهرون عند سفرهم الى فرنسا بنفس الدرجة التى تحدث لمن يكتبون عامة باللغة العربية ؛ لأنهم يحسون أنهم توجهوا الى بلد يعرفون لغتـه وثقافته • موجود داخلهم • وكثيرا ما تدفع الهجرة ، أو فلنقـل المنفى الاختيارى ، الكاتب الى أن يرتبط أكثر بجذوره القادم منها ، والا ينفصل عنها • وبعض هذا الأدب يتحدث عن التباين الذى اكتشفه الكاتب فى هذا المجتمـع الذى يعـامله على أنه « عـربى » ، أو مواطن من الدرجة الثانية فلا يسعى الى نفى هذه الهوية • بل يؤكدها •• هو فى كلا الجانبين : الغربى والفرنسى يعتبر غريبا ، وأجنبيـا •• وقد اتضح هـذا الأمر فى مقـدمة رواية « نجمة » للكاتب الجزائرى كاتب ياسين حيث أكد صاحب دار نشر سوى Seuil اننا أمام كاتب أجنبى •

□ لعبت المدارس الأجنبية التى تم انشاؤها فى كل من مصر ولبنـــان وسوريا دورا فى تكوين مجموعات من الناس يحسون انهم ينتمون الى ثقافة واحدة • ففى البداية تم انشـاء مدارس فرنسية لأبنــاء الخبـراء والموظفين الفرنسيين الذين استعانت بهم الحكومات فى مصر والشام ، ثم بدأ أبناء البلد من المواطنين فى الانضمام الى هذه المدارس • وقد خلقت هذه الظاهرة التعامل المباشر باللغة أولا فى المجتمعات المغلقة ، كالبيوت والنوادى والصالونات ، باللغة الفرنسية • وقد اعتبرت هذه الظاهرة سمة من سمات الارتقاء الاجتماعى • لأنه فى تلك الآونة ، وربما حتى الآن ، فان تكاليف الدراسة فى مثـل هـذه المدارس لا تتناسب سـوى مع أصحاب الدخول المرتفعة • وقد تولدت صـداقات عميقـة بين المتحدثين بالفرنسية أو «المتفرنسين» • وظهرت حركة نشطة لصناعة ادبهم بدأت أولا فى المدن الساحلية كالاسكندرية ، ثم انتقلت الى العاصمة • بمعنى أنه كان هناك الأدباء أولا • ثم كان لابد من ظهور صحف ومجلات لتستوعب كل هذا الانتاج • ثم كان لابد من ظهور نقاد لهذا الأدب من الذين يكتبون أيضا باللغة الفرنسية

□ انقسمت المنطقة العربية جغرافيا الى قسمين رئيسيين، حسب البيئة التى يتكلم بعض ادبائها باللغة الفرنسية • القسم الأول يمثل مصر وسوريا ولبنان • ثم القسم الثانى الذى يمثل المغرب والجزائر وتونس •• وقـد بدا كأن هناك انقساما ما واضحا بين القسمين • وفى كل منهما كانت حركة الأدباء واتصالاتهم تتم بشكل حيوى • بينما تبدو الأمور كأن هناك سورا عاليا يفصل بين القسمين • فقد راح ادباء لبنان وسوريا ينتقلون بين القاهرة وبيروت• فتعلم ابناء دمشق وبيروت فى بعض مدارس الاسكندرية• وصنع هذا ادبا عربيا وليس محليا • فقد أحس اللبنانى غالبا انه فى وطنه مصر • وكم كتب عنها كأنه مصرى • مثل جان اركاش واندريه شـــديد وسيلين اكسلوس • وفى الكتب التى تتحـدث عن ادباء لبنـــانيين يكتبون بالفرنسية نجد ان الكثيرين منهم عاشوا طويلا فى مصر •• وليس بين ايدينا من كتاب مغاربة جاءوا للعيش فى القاهرة سوى روبيريلوم الذى جاءت أسرته من تونس لتعمل فى القاهرة عام ١٩٠٤ ولكن اقامته لم تطل بها • حيث رحلت اسرته عام ١٩٢٤ الى باريس •

أما فى المغرب العربى فقد بدت الصلة قوية بين ادباء الدول الثلاث• ولكن حالات الاتصال مع ادباء الشرق العربى لم تكن بنفس القوة • ولعل هناك اتصالا حدث فيما بينهم عندما اختار الكثير منهم باريس من أجـل الاقامة فيها • فارتبط بعضهم بصداقات قوية مع الأدباء الفرنسيين ، مثلما حدث مع ألبير قصيرى واندريه شديد • بينما راح كاتب مثل الطاهر بن جلون

يكتب عن الأدب العربي بشكل عام وتعريف القارىء الفرنسي باتجاهاته وجذوره ٠

☐ هناك ظاهرة فى غاية الأهمية وهى أن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية لم يقتصر على أبناء طائفة دون غيرها ، أو أبناء دين دون غيره ٠ فهناك أدباء يونانيون اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية ، وهناك ادباء ارمن كتبوا أيضا فى مصر باللغة الفرنسية ٠ بل هناك من لهم جذور ايطالية ، كما كتب هذا الأدب مسيحيون ومسلمون ويهود ٠ واذا كان بعض الكتاب قد اهتم ، بشكل عابر بمسألة الدين ، خاصة بعض اليهود ، فان الكاتب العربى الذى يبدع باللغة الفرنسية كان همه الأساسى هو الارتباط بالمكان ٠٠ حيث كان لدى هذا الكاتب شغف خاص بالمكان ٠ سواء عندما عاش فوقه ٠ أو عندما هجره الى أرض أخرى للاقامة فيها ٠ فالادباء مثل ألبير قصيرى وقوت القلوب وكاتب ياسين وادريس شرايبى ورشيد بوجدرة قد كتبوا عن بلادهم العربية ، واختاروا قاع هذا المجتمع بالذات ، وهم يعيشون فوق أرضها ٠ وذلك قبل أن يرحلوا الى فرنسا ٠ وسوف نرى أن الأدباء المغاربة من اليهود قد ارتبطوا على سبيل المثال بالحركة الوطنية لمناهضة الاستعمار ٠٠ وسوف نرى ان هؤلاء الادباء اليهود من المصريين قد توجهوا الى فرنسا ولم يفكر أى منهم فى الاتجاه الى تل أبيب ، كما لم يشأ أى منهم أن يمارس لعبة السياسة ، وكانوا يكتبون دائما عن أوطانهم التى جاءوا منها خاصة ادمون اليابس ، اوجابيس ، الذى ترك مصر عام ١٩٥٧ وظل يكتب قصائد عن الصحراء المصرية حتى مات عام ١٩٩٠ ٠

واذا كانت المدارس الفرنسية قد استقبلت فى أول الأمر الكثير من المسيحيين فى مصر، فان المسلمين مالبثوا أن التحقوا بهذه المدارس٠ وهكذا فان الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية كان مرتبطا فى المقام الأول بالمكان قبل الديانة ٠ بل ان الدين كان يأتى دائما فى الخلفية ، حيث كان اهتمام هؤلاء الأدباء هو الاطلاع على الثقافات المعاصرة ٠ والتعريف بها ٠ ومحاولة تحطيم الاشكال التقليدية فى الفن ، وخاصة فى فن الشعر ٠

☐ هناك سمة غريبة فى لغة الكاتب ، وخاصة الروائى العربى الذى يكتب باللغة الفرنسية ٠ فعند قراءة أعمال البير قصيرى أو أندريه شديد ٠ أو عند قراءة الأعمال الأخيرة لكاتب ياسين أو الطاهر بن جلون ، فسوف نلاحظ ان الحوار الفرنسى المكتوب فى هذه الروايات مكتوب أساسا فى داخل الكاتب باللغة العامية ٠ وان الكاتب قد قام بترجمته من هذه اللغة المحلية الى الفرنسية مباشرة ٠ وقد اتضحت هذه الظاهرة فى روايات من

طراز « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » لاندريه شديد • حيث ان ابطالها يسكنون البيئات الشعبية • ويستخدمون مصطلحات شعبية فى المقام الأول • وتبدو هذه الكلمات واضحة لدى متابعتها • ولا شك أن من قام بترجمة مثل هذه الروايات سوف يقع فى حيرة أمام ترجمتها اما بالفصحى أو العامية • وقد حدث هذا لمترجم رواية « نوم الخلاص » المنشورة فى روايات الهلال عام ١٩٩١ • والغريب أن القارىء لم يستسغ هذه اللغة ، باعتبار أنه أمام أدب مترجم • ولذا ، فان كاتب هذه السطور قد وقع فى نفس الحيرة وهو يترجم روايات « شحاذون ومعتزون » و « منزل الموت الأكيد » و «العنف والسخرية » لألبير قصيرى الى اللغة العربية • واختار اللغة العربية البسيطة خاصة عند ترجمة الحوار ، رغم أنه يعرف أن فى هذا قصورا واضحا •

□ انحصر الابداع العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى الشعر فى المقام الأول •• ثم فى الرواية وفن القص بشكل عام • وقد جاء الشعر فى هذا المقام لما لهذا الفن من مكانة لدى المبدع العربى فى المقام الأول • وقد استفاد الشاعر العربى الذى يكتب بالفرنسية ، خاصة فى الشرق العربى ، من شكل القصيدة الفرنسية • فراح يسعى بدوره الى كسر البنية التقليدية للقصيدة العربية • ولم تجىء الاتجاهات الحديثة فى الشعر المعروفة باسم الحداثة الا من خلال هذا الألتقاء •

وبينما غلب فن الشعر فى مصر ولبنان وسوريا الى جانب الرواية • فان الروائيين قد تملكوا ساحة الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى المغرب العربى • وبشكل عام ، فان هذا يرجع الى الحركة التاريخية • باعتبار ان الأدب العربى المكتوب بالفرنسية فى الشرق العربى كان اقدم من مثيله فى المغرب العربى • وعليه ، فقد بدأ بالشعر ، ثم لمعت الرواية • أما الأدباء العرب فى المغرب فقد ظهروا فى منتصف الأربعينات فى زمن ازدهار الرواية • ورغم هذا فان الكثير من هؤلاء الكتاب قد كتبوا الشعر والرواية فى نفس الوقت• مثل الطاهر بن جلون واندريه شديد وكاتب ياسين وغيرهم •

□ من الغريب أن هذا الأدب قد احتضنه الفرنسيون وقدموا عنه الكثير من الدراسات • بينما ندرت مثل هذه الدراسات فى الوطن العربى • وعلى مدى علمى ، فانه لا يوجد كتاب واحد باللغة العربية عن هذا الأدب • ولكن حكومات المغرب العربى تنظر دائما بعين الارتياح الى الهجرة الدائمة التى يقوم بها بعض أبنائها الى أوروبا • حيث ان أغلب المهاجرين يحققون انجازات بارزة فى ميادين الأدب والفن بشكل عام • فقد حظى عرب عديدون بمكانة متميزة فى مجال الأدب والسينما •• وسعيا وراء

تقليل المسافة بين المهاجرين وأوطانهم فان الجزائر ، مثــلا ، تبث اذاعة لابنائها فى المهجر باللغة العربية وتذيع القرآن الكريم والسنة النبوية • وبعض التعاليم الدينية التى يجب أن يحافظ عليها المسلمون فى غربتهم وحثهم على اتباع تعاليم دينهم والارتباط بالتقاليد الشرقية اينما كانوا • ولذا ، فان العـــربى ما أن يعـــود الى بيتـــه حتى يحس أنه عـــاد الى بلده •• لأنه مؤثث على الطراز العربى : الجدران والاثاث واللغة • ولذا فان الحنين أقل حدة • ولا شك أنه قد ظهر نوع ثالث من الأفراد الذين مزجوا بين العربية والفرنسية ليس فقط فى اللغة • ولكن أيضا فى العادات المتناقضة بين العالمين •

كان السؤال المطروح دوما هو عن علاقة الكاتب العربى المهاجر بالوطن الذى هاجر اليه • فهل يعد الكاتب العربى المهاجر الى باريس عبئا على ثقافتها ، أم اضافة اليها ؟ • لقد خصصت الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٧٧ مبلغ عشرة آلاف فرنك لكل مهاجر يعود الى بلده • ففرنســا اذن تسعى الى التخلص من بعض العمالة المهاجرة اليها وليس كلها • لكن بلاشك ، فان فرنسا مستفيدة من هذه العمالة على المستوى المهنى من ناحية • ومن الناحية الثانية على المستوى الفكرى والثقافى كما قال عبد الله بوحميدى : « ان ما قدمه المهاجرون الى الثقافة الفرنسية لم يكن يستهان به فى خاتمة المطاف • فبفضل رحلاتهم المتعددة بين شواطىء البحر المتوسط شمالا وجنوبا اصبحوا يشكلون رابطة عضوية بين فرنسا والمغرب العربى ويسهمون بذلك فى التقاء الثقافتين » (١) • كما انها اصبحت اكثر وعيا بتعدد مقومات هويتها • فقد تعرفت تلك الهوية على حقيقتها • ووقفت عنــد مصادر ثرائها • والأدب المكتوب باللغـــة الفرنسية صادر أغلبه ، خاصة فى السنوات الأخيرة ، عن دور النشر الفرنسية • وقد كان جــزء كبير من هذا الابداع منشورا فى البلاد العربية خاصة المكتوب فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات فى مصر ولبنان • لكن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية فى السنوات الأخيرة صادر داخل فرنسا وبتمويل فرنسى • ومع ذلك فانه يحمل روحا جديدة وهوية مختلفة • فبدا كأن بعضه قد تم تطعيمه بخبرات الهجرة • فالازدواج الثقافى أصبح غالبا • وبدت الحركية فى الاعمال الابداعية الجديدة • وقد أدى ذلك الى ازدهار هذا الأدب بشكــل ملحوظ يدفعنا الى أن نخصص له كتابا •

---

(١) مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ٢٩٢ •

الفصل الثانى :

الأدب المصرى المكتوب باللغة الفرنسية

لماذا نشطت اللغـة الفرنسية كلغة تعبير في مصر • رغـم ان فرنسا لم تحتل مصر مثلما فعلت فى الجزائر ؟ وكان الاحتلال بريطانيا لأكثر من سبعين عاما ؟

يرجح الكثيرون من المحللين ان هنـاك اسبابا عديدة من أبرزها الحملة الفرنسية التى جاءت لمدة ثلاث سنوات فى أواخر القرن الثـامن عشر • ثم لأن محمد على قد توجه الى فرنسا من خلال مشروعه الحضارى وليس الى انجلترا • فقد ارسل البعثات الأولى ، خاصة ما يرتبط منهـا بالتعليم والثقافة ، الى فرنسا •

ورغم أن الحملة الفرنسية التى انتهت عام ١٨٠١ قد خلفت فى قلوب المصريين المرارة والحزن ، الا أن الفرنسيين بعد أن رحلوا تركوا وراءهم أشياء عديدة لم يكن يمكن تجاهلها • مثل آلات الطبـاعة ومركـز أبحاث علمى • ومعهد للدراسات • ولم يكن امـام المصريين سـوى استغلال هذه الأشياء خاصة أن محمد على الذى صنع النهضـة فى مصر قـد جاء الى مقعد الحكم بعد رحيل الفرنسيين بأربع سنوات • فقد راح محمد على يستعين بالخبرات الأجنبية من أجل تحديث بلاده ، خاصة فى مجال صناعة الأسلحة • وفكر محمد على فى الفرنسيين فى المقام الأول • كما فكـر فى الايطاليين • وقد كانت فرنسا أكثر تأثيرا وقوة فى تلك السنوات من ايطاليا • على الاقل على المستوى الاقتصادى •

وهكذا بدأت اللغة الفرنسية تدخل بصفة رسـمية الى مصر • فـلم يكن للخبراء الفرنسيين أن يتعاملوا مع قوم لا يتكلمون لغتهم • وأحس محمـد على انه من الأهمية بمكان أن يتعـلم المصريون اللغـة الفرنسية ، فأرسل المبعوثين الى فرنسا • وكان من بينهم كمـا هو معـروف ، رفاعة الطهطـاوى وعلى مبـارك • وجاء الفرنسيون كى يصنعوا صحافة عـلى شـاطىء النيـل •

وقد ساعد احساس المصريين بأنهم فى حاجة الى الفرنسيين على تخفيف اجواء التعصب ضد الاجانب • وقد شجع نجاح المشروعات التى يقوم بها الفرنسيون ابناء الجاليات الاخرى على القدوم الى مصر مثـل اليونانيين والاتراك واللبنانيين والارمن وغيرهم •

وزاد نشاط الاجانب فى أوجه الحياة الاجتماعية فى مصر • وراجت تجارة الاغذية • وقد جعلت هذه الظاهرة المدن المصرية ساحة جديدة لأبناء الجاليات الذين يتكلمون بلغاتهم الأصلية • على الأقل بشكل شفاهى • ومن هنا بدأ المصريون يتعلمون هذه اللغات ، وقد جلب هذا أيضا الى المصريين عادات جديدة وشعائر واحتفالات صنعهـا الاجـانب • أو جلبوهـا من بلادهم •

وشيئا فشيئا بدأت هذه الجاليات فى النمو عددا • وبدءوا يفتحون لأبنائهم مدارس خاصة لتعليم اللغات القومية بالاضافة الى اللغة العامة فى البلد • وأصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى ، كما اصبح للاجانب دور العلاج الخاصة بهم •ثم نواديهم • وساعد هذا على ارتفاع أهمية رجال الأعمال ودورهم فى المجتمع حيث عملوا على جلب عدد آخـر من مواطنيهم من أجل مساعدتهم • كما شهدت البلاد ظاهـرة الاقتران بين ابناء الجاليات الأوربية والأجنبية •

وفى نهاية حكم محمد على كان بعض الفرنسيين قد وصلوا الى مناصب ادارية عليا فى البـلاد • كما كانت مصر دائما مصدر جـذب بمناخها المعتدل للأجانب •

ويقول جان جاك لوتى Jean Jaques Luthie صاحب أشهر كتاب عن « اللغة الفرنسية فى مصر » (١) ، ان هناك سببا دينيا كان يحـول دون وجود الاجانب فى البلاد • حيث ان السلطان العثمانى كان يتصرف بصفته المدافع الأول عن الاسلام • ولكن محمد على قد شجع تواجد الفرنسيين ولعب أبناؤه دورا كبيرا فى التعاون مع الفرنسيين •

ويقول الكاتب ان المدارس الأجنبيـة قـد لعبت دورا سـياسيا فى تجميع ابناء الجاليات الأجنبية من ديانات مختلفة ليصبحوا تلاميذ فيها • ومن أهم هذه المدارس : الفرير للاخوة المسيحيين ، والآباء اليسوعيون • كما ظهرت بعد ذلك المدارس الانجليزية مع دخول الاحتلال البريطانى • وبداية القرن الحـالى • وكانت هناك لغـات أخـرى سائدة مثل اليونانية والايطالية • فقد تم افتتاح أول مدرسة من مدارس الفرير المسيحية فى

---

(١) Le français en Egypte, J. J. Luthie, Beyrouth, 1981.

الاسكندرية عام ١٨٤٧ · ثم مدرسة الفرير اللازاريين عام ١٨٥٢ · « ومدرسة الآباء لصحبة المسيح » فى القاهرة عام ١٨٧٩ · « ومدرسة الآباء للمهمات الأفريقية » فى طنطا عام ١٨٨٣ · ثم مدرسة « الفرير البلومرية » عام ١٩٠٣ · كما تم افتتاح مجموعة من المدارس لتعليم البنات · مثل « الأخوات سان فانسان بول » فى الاسكندرية عام ١٨٨٤ · ثم مدارس اخرى فى القاهرة · وقد وصل عدد مدارس اللغات الفرنسية للبنات التى تم انشاؤها حتى عام ١٩٣٥ اثنتى عشرة مدرسة والتى انتشرت فى انحاء البلاد ·

وبالاضافة الى ذلك ، تم انشاء معاهد تعليمية مثل « مدرسة الحقوق الفرنسية » التى تأسست عام ١٨٩٠ · وفى مجال التعليم فان الدولة لم تتوقف عن ارسال بعثاتها التعليمية الى الخارج حيث بدأت البعثة الأولى عام ١٨١٥ ثم سافرت البعثة الثانية عام ١٨١٩ · وقد درس مئات من الطلاب المصريين دراسات عليا فى فرنسا · ونظروا الى باريس باعتبارها منبعا للقانون والأدب · باعتبار أن مصر فى تلك المرحلة كانت تعتمد على نصوص القانون الفرنسى (تم ذلك حتى عام ١٩٥٠) ·

كان نابوليون بونابرت قد أنشأ « معهد مصر » فى عام ١٧٩٨ · ولكن تم اغلاقه مع رحيل الفرنسيين فى عام ١٨٠١ · وفى عام ١٨٥٩ أعيد فتحه تحت اسم « المعهد المصرى » ثم استعاد اسمه الأول عام ١٩١٨ · وقد اهتم بدراسة المجتمع المصرى جغرافيا وسياسيا · وقد آمن العاملون بهذا المعهد أن مصر هى نافذة العالم · فكانوا يدخلون منه الى أوروبا · وفى عام ١٨٨٠ تم انشاء المعهد الفرنسى للآثار الشرقية · والذى كانت مهمته ــ ولا تزال ــ دراسة مصر القديمة ، وأيضا تاريخ الحضارات الشرقية بشكل عام · وقد أصدر المعهد مطبوعات شبه دورية ·

وقد تم انشاء مجموعة من الادارات والمؤسسات التى تعاملت مع اللغة الفرنسية فى المقام الأول · ومن هذه المؤسسات جمعيات أدبية وفنية عديدة · مثل « الاتحاد الفنى » الذى تم انشاؤه عام ١٨٩٨ · وقد ظل لمدة عشرين عاما مسرحا لعرض أهم الأعمال المسرحية الفرنسية والمصرية · وفى عام ١٩٢٠ تكونت « جماعة أصدقاء الفن » · والتى استمر نشاطها اثنى عشر عاما · وتم أنشاء « اتيلية الفنانين » عام ١٩٣٣ بواسطة الفنان التشكيلى محمد ناجى · وقد ظل هذا الأتيليه ، ومازال ، بؤرة للنشاط الفنى فى الاسكندرية حتى الآن · أما القاهرة فعرفت نشاطا ثقافيا كبيرا حيث تكونت جماعات مثل « المحاولون » عام ١٩٢٤ ، و « أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر » عام ١٩٢٦ ، ثم « اتحاد كتاب مصر الذين يكتبون

الفرنسية » عام ١٩٢٩ · وجماعة « الضيافة » عام ١٩٣٠ · ثم جماعة « الفن والحرية » عام ١٩٣٩ التى اهتمت بالفن السريالى ·

وقد أوقفت الحرب العالمية الثانية أنشطة أغلب هذه الجمعيات · ثم اهتزت العلاقات الفرنسية المصرية بعد حرب السويس · ولم يبق الآن من مؤسسات لها أنشطة فى هذا المضمار سوى مؤسسات قليلة مثل الأتيليه بالاسكندرية ، والمركز الثقافى التابع للقنصلية الفرنسية فى القاهرة والاسكندرية ·

وفى فترة الثلاثينات والأربعينات ازدهرت الصالونات الأدبية مثل صالون جريجوار سركسيان فى الاسكندرية ، وصالون الأميرة نازلى ، والكاتبة قوت القلوب الدمرداشية ·

ويقول جان جاك لوتى فى كتابه الذى اعتمدنا عليه فى هذا الجزء من التقديم التاريخى ، ان أول صحيفة صدرت فى مصر باللغة الفرنسية حملت اسم « لوكوريير دى جيبت » عام ١٧٩٨ و « لاديكا دى جبسيان » فى نفس العام ، اعتمدت الأولى على المعلومات والأخبار · أما الثانية فكانت ذات صبغة علمية · وفى عصر اسماعيل ظهرت مجلات سريعة ولم تتكرر المحاولة · ثم ظهرت جريدة « النيل » التى كانت تصدر كل أسبوعين · وهى تهتم بالأخبار والاقتصاد · وكان يطبع منها ١٦٠٠ نسخة · وسرعان ما تطورت الصحف الفرنسية ، فظهرت جريدة « البسفور المصرى » عام ١٨٨١ التى ما لبثت أن توقفت بعد الاحتلال الانجليزى ، وقد ساعد اغلاقها على اعطائها الكثير من الأهمية · وخلقت رأيا عاما مؤثرا فى الأوساط الشعبية · فعادت مرة أخرى إلى الظهور · وكانت تتابع العروض المسرحية والفنية ، ثم أغلقت عام ١٨٩٥ ·

وقد تعددت الصحف ، وتخصصت بعضها مثل « البورصة المصرية » عام ١٨٩٩ · وشهدت سنوات العشرينات نشاطا ملحوظا فى صدور صحف يومية مثل « الحرية » عام ١٩٢١ ، و « الخير » عام ١٩٢٥ ، و « الفنار المصرى » عام ١٩٢٥ وكانت تصدر بين القاهرة والإسكندرية · ومن أهم هذه المطبوعات « مصر الجديدة » التى دافعت عن حرية الفتاة المصرية · وهناك أيضا « المصرية » التى صدرت لمدة عشرين عاما · أما أهم المجلات فهى « الاسبوع المصرى » عام ١٩٢٦ وهى مجلة أدبية وسياسية · وقد استطاعت أن تصبح مركزا ثقافيا لأغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية ، وكان من أشهر أدبائها جورج حنين وأحمد راسم · وفى عام ١٩٣٨ صدرت مجلة « القاهرة » التى كانت لسان حال المفكرين المصريين ·

وقد صدرت مجلة « ايماج » عن دار الهلال عام ١٩٢٩ · الا ان كل هذه المطبوعات قد اختفت تماما بعد عام ١٩٥٦ · بينما صدرت جريدتان باللغة الفرنسية لا تزالان تصدران حتى الآن هما « لوبروجريه اجيبسيان » و « جورنال ديجيت » ·

تركز نشاط الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية فى ثلاثة مجالات رئيسية : الشعر والرواية ، ثم المقالات والفلسفة والنقد ؛ وعندما جاء الشعر الفرنسى الى مصر · وجد نفسه فى مواجهة ثقافة فنها الأول على مدى التاريخ العربى وهو الشعر ، ويقول جان جاك لوتى فى كتابه السابق الاشارة اليه ان الشعر العربى فى القرن التاسع عشر بدأ يغير مجراه بعد احتكاكه بالشعر الفرنسى ؛ وقد تميز الكثير من الشعراء العرب فى تلك الفترة بنزعاتهم الرومانسية فى جوهرها ·

وقد ظهر الشعراء البارنثيون بعد الرومانتيكيين · وكان ذلك انعكاسا للتغييرات الاجتماعية التى شهدتها البلاد · ثم ظهرت المدرسة السريالية فى عام ١٩٣٧ · وقد كثفت هذه المدرسة كل جهودها من أجل تبنى كل من يسعى لايجاد أشكال فنية جديدة واختراق الأشكال التقليدية · ووجدت هذه المدرسة من ينضم اليها ممن يكتبون بالعربية والفرنسية على السواء · وضمت بعض الأسماء التى لم تنتم الى السريالية نفسها ومنهم ألبير قصيرى · وأحمد راسم · وقد حاول الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية استلهام البيئة المحلية لتكون نسيج أعمالهم الابداعية · ويرى ج · ج · لوتى أنه ليس من الغريب أن أهم شعراء هذه المرحلة كانوا ممن يكتبون عن البيئة المصرية ولم يحاولوا الانفصال عنها مثل راسم جان عراش ·

ظل شكل القصيدة يتطور دائما ويتغير على أيدى الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية · وكانت قضية الشاعر دوما هى الحصول على أكبر قدر من الحرية فى التعبير · ووسط هذه الاجواء بدأت العلاقات السياسية تتوتر · ووجد البعض ــ حتى ما قبل ذلك ــ ان فرص النشر فى باريس ستكون افضل · علما بانها لم تكن ابدا سيئة · لكن بلا شك فان أشياء كثيرة قد تقلصت · ومن هنا شد بعضهم الرحال الى باريس مثل جويس منصور واندريه شديد ·

أما فى مجال القصص والحكايات ؛ فمن المعروف أن أول كتاب عربى جذب اهتمام الفرنسيين هو « ألف ليلة وليلة » · وقد ظهر القصاصون الذين يكتبون بالفرنسية قبل ظهور الشعراء · فقد كتب جوزيف أجوب كتابه « الحكيم هيكار » عام ١٨٣٥ · ورغم أن الكتاب كان بمثابة محاولة ساذجة الا أن التجارب اللاحقة كانت أفضل ، مثل

كتاب « اللآلىء المتناثرة » لواصف بطرس غالى المنشور عام ١٩٢٣ ٠ وقد فتح ذلك الباب لظهور مجموعة من المجموعات القصصية القصيرة المنشورة على فترات مختلفة مثلما فعل ألبير قصيرى ، وآندريه شديد ، وميرى فانسان ٠

ولم يكن ميدان الابداع فى القصة القصيرة بخصب لدى هؤلاء الأدباء قدر الابداع الروائى الذى وجد فرسانه ٠ ولا شك ان نجاح رواية « زينب » المنشورة باللغة العربية عام ١٩١٤ ٠ قد شجع اثنين من الكتاب هما ألبير عدس وألبير جوزيبوفتش أن يقدما «كتاب جحا البسيط» فى عام ١٩١٩ حول بعض نوادر جحا ٠ وفى الفترة بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ نشر فرانسوا بوجان ثلاثيته « منصور » ٠ ويقول لوتى فى كتابه (١) ان هذه الثلاثية محاولة لتاصيل التدين لدى الطبقة البرجوازية المصرية المحافظة ٠ وبينما كانت الدولة تتجه نحو الصناعة قدمت اليان فينين رواية عن حياة الفلاح الذى يرسم الحقول ويهندسها من اجل مد المصانع بما تحتاجه وذلك فى رواية « مناضلو النيل » عام ١٩٢٨ ٠ وقد قدمت نفس الكاتبة رواية أخرى ارخت فيها لثورة ١٩١٩ تحت عنوان « حسين » ، ثم رواية ثالثة عن العلاقة بين اليهودية والاسلام عام ١٩٢٣ باسم « عباد الله » ٠

وقد اهتم الكثيرون من الأدباء المصريين الذين كتبوا بالفرنسية بالحياة فى الريف ، ومنهم أيضا اندريه شديد التى قدمت روايتها الأولى « نوم الخلاص » عن فتاة ريفية تعانى القهر من زوجها دائما ٠

أما ألبير قصيرى فيعتبر من أهم الكتاب الذين توغلوا فى أروقة مدينة القاهرة وأحيائها الشعبية فى روايات من طراز «شحاذون ومعتزون» و « منزل الموت الأكيد » ، وقد حاول البعض أن يسير على نفس النهج الذى مشى عليه أقرانهم الذين يكتبون باللغة العربية ٠ بالكتابة عن أجواء الاسرة المصرية وأساليب حياتها ، حتى لو كان التمرد فى العلاقات واضحا مثلما فى رواية « زنوبة » لقوت القلوب و « رمزة » ، وأيضا أندريه شديد فى أعمالها « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » ، وفوزية أسعد فى «المصرية» ، الا أن البعض الآخر حاول أن يخرج عن أجواء الأسر مثلما فعل قصيرى فى « شحاذون ومعتزون » ٠

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠

وفى مجال الابداع المسرحى كانت التجارب والمحاولات قليلة للغاية٠ وأغلب الذين كتبوا عن مصر من مسرحيات كانوا من الفرنسيين المقيمين ٠ وذلك لأن المسرح فى المقام الأول ليس نصا ادبيا بقدر ما هو نص يجب أن يشاهده الجمهور ٠ وكان لابد لهؤلاء المبدعين أن يفرزوا من داخلهم من يكتب نقدا لأعمالهم ويتابعها ٠ ولذا برزت بعض الأسماء فى مجال النثر غير الابداعى مثل راؤول كمال والأمير عمر طوسون وروجيه جوديل وأنور عبد الملك ٠

قـوت القلـوب :

قوت القلوب الدمرداشية هى واحدة من شهيرات الكاتبات المصريات اللائى يكتبن باللغة الفرنسية ، كما أنها من أوائل سيدات المجتمع المصرى اللائى آمن بقيمة الكلمة ، وفتحت بيتها ليكون صالونا أدبيا يأتى اليـه أبناء المجتمع البارزون من الرجال والنساء ·

ولم تكن قوت القلوب امرأة متفرنسة ، بل هى امرأة مصرية ، سواء فى الدور الذى قامت به اجتماعيا ، أو فى ادبها الذى لم يجد طريقه الى اللغة العربية ، مما ساعد على ان تصبح مجرد شخصية هامشية ، بل يكاد لا يكون لها وجود فى خريطة هذا الأدب ، والسبب بالغ البساطة ، أن رواياتها ، وقصصها القصيرة لم تترجم حتى الآن الى اللغة العربية ، شأنها فى ذلك كل اقرانها الذين كانت هناك ايد خفية لوضعهم وراء الهامش بحجة ان لغة الابداع عندهم غير عربية ·

ولذا ، مرت السـنون الطويلة ، دون أن ينتبـه الناس الى هـذا الأدب ، وأصبح من الأهمية بمكان القاء الضوء على هؤلاء الكتاب وخاصة أن المراجع التى يمكن للمرء الرجوع اليهـا لمعرفة المزيد عن هؤلاء الأدباء كثيرة باللغة الفرنسية ·

وتكاد تكون قوت القلوب هى الأديبة الوحيدة التى ارتبطت رواياتها بالأجواء الشرقية ، وعالم النساء فى الحريم ، وقد امتزجت أجـواؤها أيضا بالصـوفية ، وهو ليس أمرا غريبا على امرأة عاشت فى أسـرة متصوفة شهيرة ·

وقـوت القلوب المولودة فى أواخـر عـام ١٨٩٢ تنتمى الى أسرة تنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك · هذا المملوك بدوره قادم من القوقاز مع العثمانيين الذين اتوا الى مصر عام ١٥١٧ · وقد حملت هذه الأسرة اسم « **تيمور تاش** » والذى تحول بمرور الوقت الى الدمرداشية · وتقول عن ابيها فى روايتها « ليلة المصير » المنشورة فى باريس عام ١٩٥٤ : « كان معروفا بحكمته ، ينمى فينا حب عاداتنا ، دون أن يعـرفنا أهميـة التربية الحديثة · فالى ابى الذى ظل شيخا طوال سبعين عاما واعطانى النموذج الحى للرحمة » ·

وقد كتب ناصر الدين النشاشيبي فصلا عنها فى كتابه : « نساء من الشرق الأوسط » قال فيــه : « انها من عائلة رائدة فى التصوف • وكانت الطريقة الدمرداشية فى التصوف تمتاز بالتربيــة الذاتيــة ، والخلــوات الفردية ، والتعبد الفردى • انها مجــرد واحــدة من بين أكثر من ستين طريقة دينية صــوفية فى مصر • كمــا اســتمرت الطريقة الدمرداشــية كغيرها من الطرق الصوفية المصرية تحاول أن تجمع فى مسلكها وتصرفات أنصارها وخطوات المسئولين فيها شيئا من مظــاهر الاحتفالات الدينيــة الصاخبة التى يسيطر عليها التطرف فى الاداء ، والصخب فى الصوت ، والضجيج فى الابتهالات ، مع الحرص على المساهمة فى خدمة المجتمع ورعاية الفقير وتعليم الأولاد » •

« لقد عاشت قوت القلوب الدمرداشية وهى تسبح عكس التيــار بالنسبة لانتمائها الصوفى أو مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية » •

كانت قوت القلوب هى الابنة الوحيدة للشيخ عبد الرحمن الدمرداش الذى كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية فى مصر • وكان على جانب كبير من الثراء • لذا نشأت فى جو ملىء بالرفاهية وبعيد عن الزهد والتقشف ، فتزوجت من رجل مصرى يقل عنها وجاهة وثراء ـ كمــا يقول النشاشيبى ـ فاحتفظت بحق العصمة فى يدها • ورزقت منه بثلاثة أولاد وبنت واحدة » •

« وعندما مات أبوها ترك لها ميراثا ضخما ، ومستشفى خيريا خاصا يحمل اسمه لا يزال يقوم بدوره فى المجتمع حتى الآن ، مما مكن « قــوت القلوب أن تتسلح بأرفع ما تتمناه الفتاة من علم وثقــافة واجادة للغــات الأجنبيــة » •

وقد تسلحت الكاتبة بأمرين ساعداها على أن تحقق طموحها ، الأول هو المال • أما الثانى فهو ثقافتها • وفى كتاب « الأدب الناطق بالفرنسية منذ عام ١٩٤٥ » أن قوت القلوب أقامت صالونا أدبيــا للأدباء الــذين يكتبون بالفرنسية •

دخلت الكاتبة عالم الأدب بعــد أن تجاوزت الخامسة والأربعين ، فى فترة أصبح فيها دخول المرأة المصرية الى الشارع والمجتمع قويا • ونشرت روايتها الأولى عام ١٩٣٧ فى دار المعارف باللغة الفرنسية تحت عنوان « مصــادفة الفــكر » • وفى نفس العــام نشرت روايتهــا « حــريم » فى دار جاليمار •

وقد تنوع عطاء الكاتبة بين الرواية والقصــة القصيرة واليوميات ، ومن رواياتها : زنوبة (جاليمار ١٩٤٠) والخزانة الهندسية (جاليمار

١٩٥١) والتى كتب مقدمتها الروائى المعروف جان كوكتو . ثم «ليلة القدر» عام ١٩٥٤ (جاليمار) . وفى نفس دار النشر قدمت «رمزة» عام ١٩٥٨ . و «حفناوى الرائع» عام ١٩٦١ . وهو نفس العام الذى كفت فيه عن الكتابة . أما قصصها القصيرة فهناك « ثلاث حكايات عن الحب والموت » عام ١٩٤٥ . وعقب مصرعها على يدى ابنها باثنى عشر عاما . أى عام ١٩٨٠ نشرت يوميات الكاتبة المصرية تحت عنوان « ليالى رمضان » بالاضافة الى مجموعة من القصص التى لم تنشر من قبل .

ولعل المرة الوحيدة التى تعرف فيها القارىء المصرى على قوت القلوب هى فى عدد شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ من مجلة « الهلال » حين نشر ملخص لروايتها « زنوبة » .

أما الباحثون المصريون فقد تعرفوا على قوت القلوب فى حدود ضيقة من خلال الدراسة التى نشرتها المكتبة الفرنسية المصرية بالقاهرة عام ١٩٨٥ تحت عنوان « قوت القلوب أو رؤية مصر الامس » اعدتها الدكتورة سونيا ابراهيم عقباوى . والتى حللت فيها أدب الكاتبة .

فى كتابها « ليلة القدر » تتكلم قوت القلوب عن نفسها قائلة : « لقد ولدت تحت أقدام مئذنة ، والتى كانت أول شىء رأيته ، فأحسست بها كأنها اصبع تشير الى السماء . أما أول شىء سمعته فهو اسم الله يتردد خمس مرات يوميا بصوت المؤذن فينشى روحى » .

وكما جاء فى مقدمة كتابها « ثلاث قصص عن الحب والموت » التى كتبتها أندرية موروا ، أن قوت القلوب قد ربت أبناءها تربية دينية حسب الشريعة الاسلامية ،كما تلقوا أيضا أسس العلوم والفنون الغربية . وكان بيتها مزارا لكل كتاب العالم الذين يأتون الى القاهرة أمثال فرانسوا مورياك ، واناطول فرانس .

وترى الدكتورة سونيا ابراهيم فى دراستها أن قوت القلوب لم تكن كاتبة « واقعية » ، ولكنها اختارت من الواقع عناصره الرئيسية . وكانت بطلات رواياتها من نساء المجتمع البرجوازى .

من هؤلاء النساء هناك زنوبة ، ورمزة ، وغيرهما ، وزنوبة امرأة تعيش فى بداية القرن العشرين تنتمى الى أسرة فقدت عائلها ، وهى فتاة جميلة ، كان عليها أن تتزوج رجلا على عتبة الشيخوخة ، ولكنها فوجئت أن هناك نسوة فى المنزل يسعين الى افساد هذا الزواج . وعندما تم القران أصبح الرجل الذى ارتبطت به مربوطا ربط الخيط بالمقص . وفى ليلة الزفاف لم يوجه العجوز الى زوجته كلمة غزل واحدة . وقضى ليلته ممددا على مقعد طويل .

وعندما اقبل الصباح لم تجده فى حجرتها · فقد مات العجوز · وهكذا ظلت عذراء فى ليلة عرسها وهى الأرملة الصغيرة ، وبعد عدة اشهر تتزوج من رجل يدعى عبد المجيد · كان كل همه ان تنجب له ولدا · لكنها لم تحمل بالسرعة التى تحدث للنساء فى البيوت المجاورة · فراحت تدعى أنها حامل · ولم تكن كذلك · « فلم يتطرق الشك الى ذهن أحد ممن كانوا يرونها ويراقبون تطور حالتها · الى أن ذهبت الى بيت أبيها لتضع مولودها فيه جريا على العادة المتبعة · فاذا بالمولدة تقدم الطفلة الوليدة لحماتها · فأسرعت زنوبة الى أسرتها · ثم عادت مرة أخرى الى منزلها · وعند الميلاد تشعر بمشاعر جديدة : « اقتربت الأم الشابة من طفلتها الصغيرة وحملتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها · وقدمت لها صدرها · وارتفعت أصوات النساء بالزغاريد » ·

لكن الفرحة لم تكتمل ، فليس الانجاب هو المهم فى هذا المجتمع ، بل أيضا انجاب الذكور · فالويل كل الويل لمن ليس له ولد ! والويل ألف مرة للمسكين الذى لم ينجب ذكرا · ان نعشه يحمله الأغراب ، ولن يجد المعزون فى بيته من يوجهون اليه العزاء » ·

والحرية هى احدى المسائل البالغة الأهمية فى روايات قوت القلوب خاصة حرية المرأة · فالمرأة الشرقية مسورة بقيود تمنعها من حريتها ، وأم «رمزة» على سبيل المثال كانت فى سن تسمح لها بالمغامرة · ولكنها سرعان ما دخلت الى حريم الأمير · ولانها فتاة ذكية ، فقد حصلت على حظوته ، وعلى مكانة طيبة داخل الحريم · ولكن ابنتها راحت تتمتع بحريتها · وقد بدا ذلك واضحا من خلال ترددها على المكتبة ، واستيعاب المعرفة · وهى تعتبر نموذجا مخالفا لزنوبة · فهى فتاة ذات استقلال خاص · وطموح ، حيث ترفض الا يراها زوجها قبل الارتباط ·

وفى روايتها «الخزانة الهندسية» نرى نموذج عائشة الريفية البسيطة التى كان من حسن حظها أن تربت مع ابنة رضوان بك فى القاهرة · ولذا فهى لا تتصرف كخادمة · ولكن كابنة لرضوان · وقد استطاعت أن تجذب انتباه المجتمع من حولها · وهى تهوى الموسيقا وتجيد العزف على العود، مما دفعها أن تصبح مطربة مشهورة ، وتجىء أهمية نموذج عائشة ليس فقط من انها تحررت من القيود الاجتماعية البالية ، لكن فى انها أصبحت مثالا يحتذى به للكثير من الفتيات ·

وقد رأت رمزة أن خلع الحجاب ليس أبدا تمردا على الدين ولكنه حالة من الانفصال عن سطوة الرجل الذى ينظر اليها نظرة جنسية ·

أما رمزة بطلة الرواية التى تحمل نفس الاسم فهى فتاة فى الرابعة عشرة من العمر عليها الا تكشف وجهها قط عندما تخرج من المنزل • خاصة عندما تدخل سلاملك أبيها • وهى تعيش فى مدينة الاسكندرية التى يعيش فيها أبناء جنسيات عديدة •• وتتفاوت مسألة الحجاب بالنسبة للفتاة حسب الأمور ، فعندما تنزل الى الحديقة ، عليها أن ترتدى حجابا ثقيلا حتى لا يراها احد • أما اذا ذهبت الى صديقاتها الفرنسيات فيجب أن ترتدى حجابا أبيض خفيفا ، وهى لا تخفى أنه يسبب لها ضيقا ويعرقل حركتها ••

وفى رواية « جفنـاوى الرائع » تذهب زكية الى رأس البر مع زوجها الذى يفرض عليها أن تغطى كل جسدها لأنه يشعر بالغيرة عليها •

وقد وصفت قوت القلوب حالة العبودية التى تعيشها بعض النساء بعد الزواج فى قصصها ورواياتها وخاصة فى « رمزة » • لكن هذه المرأة لا تلبث أن ترفض أن يقوم الرجل بتعريتها حين ينظر اليها • فهى ليست حيوانا • ولكنها كائن يفكر ويحس : وسلوك رمزة يثير قلق أمها التى تقول لها : « ستفعلين مثل الأخريات يا ابنتى ؟ سيقولون لأنك ذهبت الى المدرسة •• ولأنك تعلمت • تريدين أن تحطمى تقاليدنا » • لكن الفتاة لا تود أن تعامل كسلعة • فقد مضى عهد استعباد المرأة • وتقرر أن تقوم باختيار زوجها بنفسها • ولأن مسألة اختيار الزوج صعبة فى هذا المجتمع فانها تردد : « عندما تودين حلية فانك تذهبين الى الجواهرجى ، وعندما تودين مسكنا ، تسألين سمسارا ، واذا رغبت فى زوج فيجب أن تكونى قادرة وماهرة فى الاختيار » •

وأغلب نساء قوت القلوب لا يقفن موقفا سلبيا فى المجتمع • فـ « رمزة » تتعلم القراءة والكتابة أيضا فى « الكتاب » ثم تتطور فى تحصيل المعرفة ، وتصادق الفرنسيات ، وتحب رجلا يدعى ماهر وتبدو واضحة وهى تعبر له عن مشاعرها ، ثم تتزوجه ضد رغبة أبيها • وتكون الصدمة أن زوجها يرفض أفكارها المتحررة •

هذا هو بعض من عالم قوت القلوب والذى كتب عنه أدباء مشاهير من طراز اناطول فرانس ، وأندريه موروا الذى رأى أن عالمها أقرب الى ما قدمته لنا الكاتبة النيوزلندية الشهيرة كاثرين منسفيلد ، فى طى حديثه عن المجموعة القصصية « ثلاث حكايات عن الحب والموت : نظيرة ، زهيرة ، ظريفة ، هؤلاء البنت البائسات الثلاث قد قمن بتعريفى الكثير عن مصر • أكثر مما أعرفه عن انجلترا • عن نساء كاثرين مانسفيلد ، أو مما تعلمته عن نساء فرنسا كما كتبت كوليت » •

ألبير قصيرى :

لم يتنبه القارىء العربى الى أهمية الكاتب المصرى ألبير قصيرى الا بعد ترجمة روايته « شحاذون ومعتزون » الى اللغة العربية عام ١٩٨٧٠ وتأكدت مكانته بعد ترجمة روايتى « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية » وهكذا ، ظلت اللغة الفرنسية التى يكتب بها قصيرى ابداعه حائلا دون أبناء وطنه من العرب ٠

وقد أثارت هذه الرواية انتباه القراء العرب لأسباب عديدة منها أنها تدور فى حى الأزهر والمناطق الشعبية القريبة منه ٠ وهى نفس المنطقة التى دارت فيها أحداث بعض روايات نجيب محفوظ ، بالاضافة الى ان أبطال هذه الرواية كانت لهم مواقف واضحة من الناس والمجتمع والحياة ٠ وخاصة أن أغلب هذه الشخصيات كانت معروفة للناس مثل بطله الشاعر يكن الذى كان يحمل نفس الاسم فى الحياة٠ كما أن الحقبة الزمنية التى تدور فيها أحداث الرواية ـ بداية الحرب العالمية الثانية ـ لم يلق عليها الفن الروائى المصرى الضوء بالقدر الكافى ٠

وأبطاله رواية « شحاذون ومعتزون »Mendiants et Orgueilleux وترجمة الرواية الحقيقية هى « ومتكبرون » ، لديهم حس وطنى عال ، لا يتسم بالزعيق مثلما نرى فى الكثير من الروايات السياسية ، بل هم يتعاملون مع هذه الحكومات المتتابعة بسلبية شديدة لانها لا تنتبه الى مشاكل الناس ٠ وخاصة ان هذه السمة موجودة فى روايات عديدة للكاتب ، حيث تتحول السلبية الى نوع من السخرية فى رواية « العنف والسخرية » ٠

وبعد ثلاثة أعوام من ترجمة «شحاذون ومعتزون» الى اللغة العربية. منحت الاكاديمية الفرنسية قصيرى جائزتها السنوية الكبرى للأدب المكتوب باللغة الفرنسية ٠ وقد منحت الجائزة لقصيرى بصفته كاتبا مصريا ٠ فحصل على ما قيمته ٤٠٠ ألف فرنك فرنسى ٠ وفى نفس السنة تم تحويل هذه الرواية الى فيلم سينمائى مصرى أخرجته أسماء البكرى وحصل على جوائز عديدة ٠ فهو كاتب مصرى قلبا وقالبا ٠ ليس فقط لأنه لايزال يحمل الجنسية المصرية منذ أن رحل الى فرنسا فى عام ١٩٤٥ ؛ ولكن أيضا لأنه رغم رحيله فانه لم يكتب سوى عن البيئة التى جاء منها بل وعن قاع المجتمع فى مصر ٠ كما فاز عام ١٩٩٥ بجائزة جاك أوديبرتى فى مدينة أنتيب الفرنسية تقديرا لأدبه ، ولمرور نصف قرن على اقامته فى نفس الغرفة بالفندق ٠

والبير قصيرى من مواليد مدينة القاهرة فى الثالث من نوفمبر عام ١٩١٣ ٠ من أبوين مصريين ٠ التحق بالمدارس الدينية الفرنسية فى

القاهرة مثل اغلب ابناء جيله بعد أن عاشت اسرته لفترة بين الاسكندرية ودمياط ٠

وقد عشق قصيرى القراءة فى سن مبكرة ٠ وأعجب بالشاعر الفرنسى بودلير الذى كان له تأثير قوى عليه ، لدرجة أنه استلهم عنوان كتابه الأول الذى نشره فى القاهرة تحت عنوان «اللدغات» les morsures من بودلير ٠ كان قصيرى قد سافر الى باريس لأول مرة عام ١٩٣٠ ٠ وفى العام التالى نشر ديوان شعره الأول الذى ضم عددا قليلا من الصفحات ٠

وفى عام ١٩٣٩ سافر البير الى الولايات المتحدة ، وهناك التقى بالكاتب الاباحى المعروف هنرى ميللر الذى أعجب بابداعاته ، وترجمها الى اللغة الانجليزية ٠ وكان قصيرى ينشر فى تلك الفترة قصصه فى مجلة « الاسبوع المصرى » ، ومن هذه القصص « رجل متفوق » ٠ وهى مجلة كانت تصدر فى القاهرة باللغة الفرنسية ٠ ومن الجدير بالذكر أن هذه القصة قد غير عنوانها الى « ثار ساعى البريد » التى نشرت فى مجموعته القصصية الأولى والوحيدة ، « الناس الذين نسيهم الله ، les hommes oubliés de dieu عام ١٩٤٠ ٠ وهو نفس العام الذى صدرت فيه بالقاهرة أيضا روايته الأولى « منزل الموت الأكيد » ٠

وقد انضم قصيرى الى جماعة أدبية يسارية المنهج والاتجاه عرفت باسم « الفن والحرية »التى كانت تؤمن أن الفن « لا يتكون من صور أو اشكال منحوتة ، لكنه يمثل شيئا آخر ٠ أبعد من كل الترجمات المكنة للحياة ٠ وأبعد من كل التفسيرات المؤقتة أو الخالدة للأحاسيس ٠ ولكل حالات وأوضاع الوعى ٠ الفن يمثل طريقة وجود موقف حيوى ٠ وفى نفس الوقت عاطفى وواع » (١) ٠ وكان من ابرز أعضاء هذه الجماعة جورج حنين وأنور كامل ورمسيس يونان وفؤاد كامل وكامل التلمسانى ٠ وقد أصدرت الجماعة مجلة أدبية مهمة تحمل عنوان « التطور » ترجمت فيها لألبير قصيرى ثلاث قصص هى « قتل الحلاق امرأته » ، و « مدرسة الشحاذين » ، و « ساعى البريد رجل مثقف » ٠

ومثلما صادق قصيرى الكاتب الأمريكى ميللر قبل الحرب ٠ فانه تعرف على الكاتب البريطانى لورانس داريل الذى كان يعيش فى مصر فى تلك الآونة ، وهو صاحب رباعية الاسكندرية ٠

---

(١) السريالية فى مصر ــ سمير غريب ــ هيئة الكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٦ ص ١٥٠ ٠

وفى عام ١٩٤٥ عمـل قصيرى فوق سفينة تجـارية • وحول هذه التجربة تحدث الى كاتب هذه السطور حين زيارته لمصر فى عام ١٩٨٩ قائلا : « لم أكن أنوى مغادرة مصر • لكن هى روح المغامرة التى كانت تتلبسنى دائما منذ الطفولة ، كنت أحلم بالقيام بجولة حول العالم لأختلط بأجناس بشرية عديدة • فالتحقت عام ١٩٤٥ للعمل كبحار مبتدىء فى احدى السفن المصرية التجارية • كان بها جزء مخصص للركاب وتحمل اسم « النيل » ظلت تجوب بى الموانىء شهورا طويلة • كنا نترك الميناء لنـذهب الى أخرى •

« فى نهاية الرحلة رست السفينة على الساحل الفرنسى • فوجدت أننى عثرت على ضالتى • فهنا يمكننى أن أنشر كتبى باللغة التى أجيـد التعبير بها • هنا مركز ثقافى واشعاعى يمكننى أن أتكيف معه •

« كانت فرنسا بابا مفتوحا بعد الحرب العالمية الثانية • وكانت تشهد حركة ثقافية وفكرية كما ننشدها جميعا كمثقفين مصريين من أعضاء جمـاعة الفن والحـرية • وذلك فى الأدب والفلسفـة والفـن التشـكيلى والسينما » •

ومن المعروف أن قصيرى قد أقام منذ تلك الآونة فى فندق صـغير بباريس عقب نزوله المدينة • وظل يسكن به منذ ذلك التاريخ حتى الآن • لا يفكر أن يغيره ، ويقع هذا الفندق فى الحى اللاتينى الذى تقع فيه مقهى المونمارتر التى يجلس عليها أشهر أدباء فرنسا • وقد صادق كـلا من جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وجان جينيه • أما أقرب أصـدقائه الى نفسه فقد كان الكاتب ألبير كامى •

وقد كتب منتصر القفاش على لسان ادوار خراط أن قصـيرى كانت حياته « تدور كلها داخل مثلث رؤوسه الثلاثة المقهى والفندق والمطعم ، ولا يخرج عنها تقريبا • قال لى انه من دمياط أصلا • وانه أوشك أن ينسى التحدث بالعربية منذ موت والدته التى كانت تقيم معه فى باريس ولم تتعلم حرفا من اللغة الفرنسية • ولا تعرف القراءة والكتابة الا باللغة العربية • لاحظت أنه يتردد أحيانا فى العثور على الكلمة باللغة العربية • وفضلنا مواصلة الحوار بالفرنسية » (١) •

ورغم أن الكاتب عاش فى باريس كل هذه السنوات ، الا أن الصحف الفرنسية اطلقت عليه اسم « المنسى من الجميع » أما مجلة « لاكتويل » فقد قالت فى عددها الصادر فى ابريل ١٩٩٠ انه أشهر كاتب كسول فى العالم •

---

(١) البير قصيرى ـ منتصر القفاش ، جريدة الحياة ، ٦ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ١٢ •

لم يدفعه هذا الكسل الى الكتابة فقط عن الكسالى والذين لا يحبون العمل . بل انه لم يكتب فى حياته سوى سبع روايات منها « كسالى فى الوادى الخصيب »les faineants dans la vallée fertile ١٩٥٤ . و«شحاذون ومعتزون» عام ١٩٥٥ . و «العنف والسخرية» la violence et la dérision عام ١٩٦٤ . و « مؤامرة مشـــعوذ » un complot de saltimbanque عام ١٩٧٥ . وقد اشـترك فى كتـابة مجمـوعة من سيناريوهات أفـلام سينمائية عديدة .

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت فى محـاضراتها المنشـورة باللغـة الفرنسية عن قصيرى : «ان اقامته فى باريس فتحت آفاقا جديدة وسمحت له أن يستكمل دراسته وأن يتمكن أكثر من اللغـــة الفرنسية . بدرجـة لا تجعـل أحـدا يضاهيه » .

ومفتاح الدخول الى أعمال قصيرى هى حالة الكسل التى يعيشهـا أبطاله والسخرية التى يتحدثون بها عن الحكومة . فهذه الشخصيات تعيش فى مجتمعات فقيرة . ولا تميل الى العمل مثل قصيرى نفسه . ولعل هذا المدخل يمثل ردا نموذجيا على هؤلاء الذين لم يعجبهم عالم قصيرى . فقد تصور البعض أن قصيرى يكشف للأجـانب الجـانب السـلبى فى مصر بتصويره الأحياء الشعبية . وكأن هنـاك علاقة بين الابداع والسياحة . فقد توغل قصيرى فى هذه الاماكن . كمـا توغـل فى الاشخاص الذين عاشوا فى هـذه الامـاكن . فكـل من يكن وجوهـر والكردى فى رواية « شحاذون ومعتزون » . قد آثروا أن يعيشـوا على هامش المجتمـع . خاصة جوهر استاذ التاريخ الذى قدم استقالته احتجاجا على تفاهة وزيف المناهج . وقرر أن يعيش كســـولا فى غرفة ليس بهـا من الأثاث سوى ورق الصحف . وهو رجل يعشق الليل لـما به من سكون . ويبتعد عن النهار لـما به من حركة وحياة صاخبة .

وقد ظهرت نماذج عديدة من الكسالى فى روايته « منـزل المـوت الاكيد » la maison de la mort certain .خاصة شخصية عبدالعال بائع الشمام . فهو لا يبيع طيلة العام الا الشمام فى موسمه . وهو موسـم قصير للغاية . وفى بقية الشهور يظل بلا عمل يعانى من الفقر والجوع. كما أن الحوذى قد آثر أن يعيش أيضا فى بيت مشروخ الجـدران وهـــو قليلا ما يعمل . والعجوز كاوه أيضا رجلا بلا وظيفة . كما أن احمد صفا يجيد التحايل على الآخـرين من اجل أن يأخذ مبلغا صغيرا من المـال كى يذهب به الى « الغرزة » المجاورة ليعيش لحظـات صفاء .. وهناك رجل آخر يمكنه أن يسرق الماعز كى يذبحه ويلتهمه وهو لا يعمل. رغم انه وأسرته يعانون من جوع شديد .

أما العاملون فى هذه الرواية فهما الزبال ولاعب القرود · والزبال فى هذه الرواية يبدو كريها · رغم أنه الوحيد الذى يعمل فى وظيفة حكومية تميزه عن الآخرين · وهو لا يتوانى عن أن يفخر بهذه الوظيفة أمام سكان العطفة · وهو رجل متقدم فى السن · متزوج من فتاة صغيرة مصدورة · شديد الغيرة عليها · ويغلق الأبواب حتى لا ترى العالم من حولها · فاذا خرج بها لزيارة أهلها أحاط الأمر بسرية تامة ·· وهو فى نهاية الرواية يترك البيت الآيل للسقوط بنفس السرية من أجل السكن فى مكان آخر · ويصور قصيرى هذا الشخص أقرب الى الجلف الذى لا يجيد التعامل مع البشر ، وخاصة زوجته وجيرانه ·

وهؤلاء الأشخاص يعيشون دائما على هامش المجتمع · منسيين من المجتمع · ومن السماء · وأيضا من الحكومة · ولو راجعنا الطريقة التى يتكلم بها أبطال رواية « منزل الموت الأكيد » عن الحكومة ، فسوف نراها مليئة بالسخرية وتنم عن مدى انفصال الطرفين · فسكان هذا المنزل يتعاملون مع الحكومة بصفتها شخصا محدد الهوية · فهم لم يذهبوا مثل البشر الى المدرسة · وهم لا يعرفون ماذا تكون الحكومة سوى انها حكومة · ولا يظهر من هذه الحكومة سوى رجل الشرطة الذى يأتى ليستدعى سكان المنزل الآيل للسقوط للادلاء بشهادتهم فى أمر الرسالة التى أرسلوها ··

أما الحكومة فى رواية « شحاذون ومعتزون » فهى غالبا رجل الشرطة · ضابط البوليس المصاب بالشذوذ والذى يبدى تعاطفا واضحا مع هؤلاء البشر الهامشيين والمنسيين · وهناك أيضا « مخبر » يراقب الكردى فى الترام وكأنه يبلغه انه يطارده · فضلا عن المخبر الذى دسه رؤساؤه فى بيت الهوى الذى تمت فيه الجريمة ·

وهؤلاء البشر منسيون أيضا من السماء · وخاصة فى رواية «منزل الموت الأكيد» ، فأحداث الرواية تدور فى شتاء قارس بالغ القسوة · وفى مكان عال من القاهرة · قريب من القلعة ، وتفتتح الرواية فصولها بطفل دخل الى البيت الآيل للسقوط وقد تجرد تماما من ملابسه وهذا الطفل يبدو كأنه استعذب عريه الاجبارى ؛ لأننا سنراه يلعب مع الأطفال فى مكان آخر من الرواية وهو مازال عاريا :

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ، فى البحث المشار اليه : انه اذا كان أبطال روايات قصيرى المكتوبة قبل عام ١٩٦٤ منسيين، فان أبطال الروايات المكتوبة بعد هذه الفترة من القرويين وهم يريدون من خلال نشاطهم الثورى أن يكونوا شهودا على مواقفهم ·

ولكن هذا لا يلغى ان موقف الهامشيين فى رواية « شحاذون ومعتزون » ، ثم عبد العال فى « منزل الموت الأكيد » وطاهر فى « العنف والسخرية » ثورى • وان كان موقف جوهر الثورى السلبى • الذى ينسحب بسهولة من الميدان كى يتعاطى الأفيون والمخدرات ، فان عبد العال يعلم السكان التمرد ويطلب منهم عدم دفع الأجرة لصاحب البيت لأن المنزل بلا سكان لا يعتبر بيتا ، أما طاهر فيؤمن بضرورة اغتيال المحافظ وأن ما يفعله المتمردون الساخرون ليس سوى نوع من لعب الاطفال •

ورغم أن الكثير من هؤلاء البشر منسيون ، الا أنهم أصحاب مبادىء ، ولا يمارسون الشرور الكبرى • فشرورهم ، ان وجدت ، صغيرة وعابرة • مثل الشخص الذى يمكن ان يسرق قطا من أجل بيعه • وفى رواياته هناك المغنى الذى يبحث عن فرصة • والموظف الباحث عن امرأة يمارس معها الهوى • حتى جريمة جوهر فى « شحاذون ومعتزون » فهى جريمة مجانية • لم يقصد أن يقوم بها ، ولذا لم يكن من السهل اكتشاف فاعلها •

أما عن المكان ، فترى د• رجاء ياقوت ، انه قبل عام ١٩٦٤ كان ابطال روايات قصيرى من الفقراء • ولكن بعد ذلك بدأ يزحف الى شارع فؤاد حيث عالم الأثرياء • فهذا الشارع ملىء بالمحلات التى تبيع بضائعها للاثرياء • وهؤلاء الاغنياء يتسمون بأنانية ملحوظة • ولا توجد شخصية نموذجية فى هذه الروايات من الاغنياء • ومن هؤلاء الاغنياء سى خليل صاحب البيت فى رواية « منزل الموت الأكيد » • والحقيقة ان عالم قصيرى ظل كما هو • فرواية « العنف والسخرية » تدور فى أروقة مدينة الاسكندرية ، وفوق سطح منزل يطل على البحر •

وفى بعض روايات قصيرى فان الفقراء يظلون قابعين فى احيائهم ، التى يصورها الكاتب قذرة عفنة ، أما احياء الاغنياء فهى نظيفة ومشمسة، وفقراء المدينة لا يفكرون كثيرا فى الانتقال الى حيث يعيش الاغنياء •• فاذا كان « يكن » مغرما بفتاة تتعلم الموسيقا وتسكن فى أحد الأحياء الافرنجية، فان أحدا لا يذهب بالمرة الى هذه الأحياء فى رواية «منزل الموت الأكيد» • بينما البشر المنسيون فى الرواية التى تحمل نفس العنوان عندما يذهبون الى الحى الافرنجى يحسون انهم تائهون « يمرون قريبا من هذه الاضواء كأنهم ظلال خائفة • ينقلون معهم جحيمهم الملىء بالطين ومأساتهم القذرة • ويجمعون ندمهم • ندم قديم مستغرق فى الأرض • ورغم كل شىء فانهم لا يريدون أن يموتوا » (١) •

---

(١) Albert Cossery, Cours donnés, en Français, Rajaa Yaquotte, le Caire.

وهؤلاء الفقراء ليس لهم الحق أن يحلموا · فالأحلام دائما خطـرة · قد تجعلهم يتطلعون ويطمحون وهذه هى قمة المأساة · فعندما تطلـع جوهر الى اساور العاهرة ارنبة فى رواية « شحاذون ومعتزون » لم يكن يعرف أنها أساور مزيفة · وارتكب من أجلها جريمة قتـل مجانية ، وكذلك فان « يكن » عندما تطلع الى التلميذة التى تسـكن الحى الافرنجى فانه لم يأخذ سوى تلك الرسالة التى دسها فى يدها وهى عائدة ليلا الى منزلها ·

ويهمنا أن نصـور النساء فى روايات قصيرى · فدائمـا هنـاك امرأة تعيش على الهـامش · والرجل فى روايات قصـيرى ينظر الى المرأة على انها شىء يمكن ان يجده ويمارسه مثلما يفعل مع المخدرات · والمرأة فى رواية « شحاذون ومعتزون » تمارس الهوى فى أغلب الحالات ابتداء من أرنبة التى ماتت وهى تغوى جوهر ، ومرورا بالنماذج التى ساقها الكاتب فى الرواية · أما فى « منزل الموت الاكيد » فهى فى اغلب الحالات زوجة · ولكنها زوجة شرسة ، حتى وان كانت عجوزا · وهناك عـاهرة سابقة تزوجت من سى خليل صاحب البيت · كما ان هناك فتاة صغيرة يمكنها أن تغوى العجوز كاوة من أجـل ثمرة برتقال مضروبة · والعـاهرة فتاة طيبة فى « العنف والسخرية » فهى تصدق كلمات كريم · وتعود اليه دوما لأنها تثق فيه ، ولا تأخذ منه المال رغم أنها لا تعرف أنه مفلس · كما أن العاهرة فى« تسالى فى الوادى الخصيب » تحب رجلا وتود أن تتزوج منه لكنه رجل كسول ينام أياما دون يقظة ·

والمرأة أداة لدى ابطال قصيرى · لا يتمردن أبدا · ويمكن للرجل أن يغير المرأة مثلما فعل فى رواية « منزل الموت الأكيد » · أما فى رواية « العنف والسخرية » فان هيكل يعرف من صديق له أنه لا يستطيع ان يغير سيارته كل سنة · لكن من السهل أن يغير زوجته فى كل عام · وهـو يستخدم فتاته الصغيرة ، كى تحصل على معلومات عن مشاريع المحافظ وتحركاته بصفته صديق أبيها ·

ونحن نقف من وصف قصيرى لهذا العالم موقف الحياد · فهـذه هى رؤيته للعالم · وهى رؤية مبدع · ولعل قصيرى كان يكتب عن عـالم ضيق · مثل عالمه القاهرى الذى وصفه · وايضا عالمه الضيق الذى عاشه فى مدينة باريس · فأبطاله ، كما سبق أن أشرنا ، كسـالى مثله · أو لعله هو الذى أكسبهم هذا الكسل · فمن الغريب فعـلا · وفى عاصـمة فرنسـا ، أن يعيش شخص لأكثر من خمسـين عاما فى غرفة صـغيرة بفندق بسيط · لا يمكن لهذا الشخص ، حين يكتب ، أن يتكلم عن اشخاص يملؤهم الطموح · ويسعون للعمل ، أو يسدون المنـزل الذى يكاد ينهـار فوق رؤوسهم · وذلك بدلا من اطلاق اللعنات · مرة تجاه صاحب البيت المخادع « سى خليل » فى رواية « منزل الموت الأكيد » ومرة أخرى تجـاه

الحكومة التى لا يعرفون كيف يخاطبونها · أو كيف يتعاملون معها وهم فى النهاية ، عدا الزبال ، يجلسون فى البيت الآيل للسقوط ينتظرون أن يسـقط عليهـم ·

والجدير بالذكر ان هناك سخرية مريرة تتمثل فى بعض روايـات الكاتب وهى سخرية منسكبة ايضا من قصيرى نفسه · فهو شخص ، كما لمست حين التقيت به اكثر من مرة ، يتمتع بخفة ظل · وقـد بدت هـذه السمة من خلال الحمار « برغوت » فى رواية « شحـاذون ومعتـزون » صاحب النكتة الشهيرة · وأيضا من خلال مواقف عديدة تعرض لهـا « يكن » الذى تطارده الشرطة · حين ذهب للاقامة فى فنـدق يعطى الأغطية للزبائن ·· ثم يسحبها منهم بعد أن يغطوا فى النوم من أجل اعطـائها لزبائن جدد · ومثل هذه السمة لم تبد كثيرا فى رواية « منـزل المـوت الاكيد » · الا من خلال مواقف باللغة المرارة · مثل النساء اللاتى ذهبن لمقابلة سى خليل والأطفال الذين القوا بدراجة سى خليـل فى الوحل وأيضا حكاية المهندس المزعوم الذى جاء يعاين البيت الآيل للسقوط · ولكنهـا بادية فى السخرية من المحافظ فى « العنف والسخرية » بتعليق صوره فى الميادين والأماكن العامة تمتدحه ويبدو فيها مثيرا للضحك · وكذلك فى موقف الخاطبة وهى تدلك قفـا الأب فى رواية « كســالى فى الـوادى الخصيب » ·

من المهم أن نقـدم فى ختام حديثنا عن أدب قصيرى المكتوب باللغة العربية أنه يرتبط باللغة عند الكاتب · فعند قراءة النص الفرنسى يمكن أن نحس لأول وهلة انه مكتوب باحساس عربى أو أنه رواية عربية تمت ترجمتها الى اللغة الفرنسية ، وليس العكس ، سواء فى اختيار أسـماء الأشخاص وكتابتها مثلما هى فى النص الفرنسى · فهو حين يكتب سى خليل ، أو سـليمان العبيط ، فانه يكتب الاسـمين كاملين بالحـروف اللاتينية · كما حدث ذلك فى اسم « الحاجة زهرة » فى رواية « كسالى فى الوادى الخصيب » ·

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ان تعبيرات الكاتب لهـا أشـكال تؤكد أنه لايزال عربى الهوية والاحساس · ومن الصعب ترجمة هذه التعبيرات الى اللغة الفرنسية · فيتركها بنفس معناها العربى · ففى رواية «شحاذون ومعتزون » · فان « لم يكن » تعتبر ابنها جميلا لأن القرد فى عين أمه غزال · وفى رواية « العنف والسخرية » فانه عندما يطلب طاهر من صديقه القديم كريم أن يقدمه الى هيكل ، فانه يقدمه بطريقة مصرية :

« باسم العيش والملح الذى اكلناه معا · أحلف لك اننى لم اتصل بهـذا الرجـل » ·

وقد ساقت الدكتورة رجاء العديد من النماذج فى روايات أخرى ٠ واكدت ان هذه المصرية قد وصلت ايضا الى اسماء الاماكن مثل شارع فؤاد ٠ ومدخنة عابدين ثم شارع عماد الدين فى رواية « كسالى فى الوادى الخصيب » ، ورغم أن كل مؤشرات المكان تدل على أن « العنف والسخرية » تدور أحداثها فى الاسكندرية الا أنه يجرد الأماكن مثلما يجرد الشخصيات٠

وروايات ألبير قصيرى صعبة المفردات اللغوية والأدبية ٠ ولكنها فى نفس الوقت مكتوبة بلغة جميلة ٠ اما بالنسبة للحوار ، وخاصة فى هذه البيئة الشعبية فان المرء يحس انه مكتوب بلسان هؤلاء الناس ٠ وأغلب الظن أن قصيرى لو كان يكتب باللغة العربية ، لاختار أن يكون الحوار باللغة العامية المصرية٠ وقد يكون من السهل على المترجم ان يكتب ترجمته باللغة الفصحى ٠ لكن اللغة العامية التى يقصدها الكاتب من الصعب ترجمتها بدقة ٠ وهناك فى الحوار كلمات مثل « بس » و« لسه » وجمل أخرى كثيرة مماثلة ٠ ويمكن لقارىء ألبير قصيرى ان يترجم داخل ذاته الجمل الفصحى التى يكتبها سواء أكانت بالفرنسية أم تمت ترجمتها الى اللغة العربية الى لغته العامية الدارجة فى أحياء مصر الشعبية ٠ وخاصة فى أواخر الثلاثينات التى تدور فيها اغلب اعماله الأدبية ٠

وقد جاء على لسان ادوار خراط : « ما من شك عندى فى أنه كان من الرواد المغامرين الأوائل للعبثية بمعناها الفلسفى مترجمة فى مشاهد أو مواقف روائية خالصة ، ولم أقرأ حتى الآن ما يقارب حسه المأساوى الكوميدى فى وقت واحد بمشهد حضيض مدينة القاهرة ٠ وتظل فاجعة الاملاق ومعاناة المعدمين وشطحات المدمنين والبغايا اللائى لا يضفى عليهن ادنى مسحة من هالة التمجيد والتقديس الذى كان معتادا فى الاربعينات اذ كانت البغى تصور غالبا باعتبارها ضحية بريئة ومثيرة للعطف والرثاء ٠ وكأن العلاقة بها نوع من انتهاك المحارم وتدنيس المقدسات ٠ عند قصيرى هى ضحية بالفعل لكن من غير أدنى طرطشة عاطفية ولا ادنى تهويل قدسى معكوس ، بل هى كائن خشن وانسانى جدا بفظاظته وصغاره وحنانه أيضا ٠ تظل الفاجعة فى هذا السياق عنده مضحكة قليلا ولذلك فهى مؤثرة أكثر ٠ وتظل عبثية قليلا ولكنها تنطوى على بشارة بمستقبل مشرف وعلى الأخص فى أعماله التى كتبها بعيدا عن الوطن ، كما شجبت معه قوة تصويره للمشاهد القاهرية وللشخصيات المصرية المتميزة التى بدت فى نهاية أعماله أقرب الى التجريدات المتعلقة والتأملات والذكريات الباهتة قليلا ٠ لا شك ان فى ذلك ضريبة الغربة المزدوجة ٠ المغربة فى اللغة والغربة فى أرض الوطن (١) ٠

(١) روايات ترسم شخصيات نادرة ٠ منتصر القفاش ٠ جريدة الحياة ، لندن ، ٦ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ١٢ ٠

ويقول الخراط فى نفس حديثه الى منتصر القفاش ان ألبير قصيرى « ينحو الى نوع من الغرائبية وعلى الاخص فى تسمية ابطاله الذين يعطيهم احيانا اسماء يصعب تصديقها · أو لم نسمع عنها قط فكانها منحوتة من مزيج العامية المصرية والفرنسية ، ولا شك انه أحيانا يطلق العنان لتقريرات مباشرة عن انسحاق الناس ووطاة الفقر والجوع والعوز الروحى والمادى معا عليها ، مما قد ينحو بالعمل الروائى الى شىء من المباشرة · ولكن اذا كان لنا ان نستخلص موقفا فكريا مضمرا عن هذا الكاتب فلعله اقرب الى مزاج من اليسارية التى تقارب الفوضوية او العدمية أحيانا » ·

ولعل من الاسماء التى كتبها قصيرى فى رواياته بشكل غريب اسم « يكن » بطريقة لا يمكن معرفة مرادفها العربى بسهولة فهى تكتب هكذا Yeghen فى رواية « شحاذون ومعتزون » وكذلك اسم العجوز كاوه Kawa فى رواية « منزل الموت الاكيد » · واغلب الظن أن المقصود به هو اسم « عكاوى » فهو شائع فى تلك الفترة من ناحية · وبين الأوساط التى يتكلم عنها الكاتب فى أعماله ·

الجدير بالذكر أن هناك محاولات قد سبقت لتقديم أدب قصيرى الى قارئه العربى · ففى عام ١٩٦٨ كتب يوسف فرنسيس سيناريو فيلمه « الناس اللى جوه » عن رواية « منزل الموت الاكيد » وأخرجه جلال الشرقاوى وقام بالبطولة فيه يحيى شاهين وعبد الوارث عسر وناهد شريف وعادل امام · وقد اختلف السيناريو تماما عن النص الأدبى ، ليس فقط فى أحداثه ، بل فى سمات وسلوك الأشخاص · والعلاقات القائمة فيما بينهم ، فهو فيلم حسى تماما · حيث اهتم بتصوير علاقات حسية وخيانات زوجية وشبق ساخن من الرجال تجاه زوجات الجيران · ومثل هذه العلاقة لم تكن موجودة فى الرواية · كما افتقرت الرواية الى حسها الساخر عندما تحولت الى فيلم ·

وفى عام ١٩٩١ تحولت رواية « شحاذون ومعتزون » الى فيلم اخرجته أسماء البكرى من بطولة صلاح السعدنى وعبد العزيز مخيون ومحمود الجندى · وقد حاولت المخرجة التى كتبت النص ، أن تلتزم الى أقصى حد ، بالرواية· ولم يمكنها الاستثناء الا فى تفصيلات عابرة·· ورغم جودة الفيلم ، الا أنه أيضا افتقد حسه الساخر لدى أبطاله خاصة المواقف التى تعرض لها يكن فى الفندق ، ومن مطاردة رجال الشرطة· ومن التعذيب فى قسم البوليس · والجدير بالذكر أن نفس الرواية تم انتاجها لحساب السينما الفرنسية عام ١٩٧١ · وصورت فى تونس فى فيلم قام ببطولته المطرب اليونانى الأصل ، الذى عاش فى مصر فترة من الزمن ، جورج

موسناكى ولم يلق الفيلم أى نجاح يذكر • وقد خصصت مجلة «أدب ونقد» عددا عن الكاتب فى نوفمبر ١٩٩٣ ، ثم أفردت له مجـــلة « القــاهرة » دراسات فى ينـــاير ١٩٩٥ •

أنــدريه شـــديد :

فى عدد ٧ يوليو من مجلة « مدام لوفيجارو » عام ١٩٨٨ أجرت المجلة تحقيقا مصورا تحت عنوان I love Paris وكان عنوانه مفتاحا لفهمه ، فهو عن مدينة باريس فى منظور ثمانية من الأدباء الأجانب الذين يعيشون فيها • ومن بين هؤلاء الكتاب بيتر تاونسند والكاتبة آن هيبيـر • واندريه شديد التى تقيم فى فرنسا منذ عام ١٩٤٦ • أى أن اكثر من أربعين عاما لم تشفع للسيدة شديد أن تصبح كاتبة فرنســية • فما زال المجتمع الفرنسى ينظر اليها على انها كاتبة أجنبية • ولعـل هذا يعطى المؤشر لفهم نوع الازدواجية التى تعانيها الكاتبة • فكما هو معروف فان أندريه شديد خصصت صفحات طويلة من أدبهـــا الذى ابدعته وهى فى باريس للكتابة عن مناطق جذورها وبلادها التى جاءت منهـا ســواء مصر أو لبنــان •

واذا كان ألبير قصيرى هو أبرز الأدباء العرب الذين كتبوا الرواية باللغة الفرنسية ، فان أندريه شديد تذكر دائما كانها على قـدم المساواة مع قصيرى وهى كاتبة متنوعة الانتاج والابداع فهى شاعرة نشرت ثلاثة عشر ديوانا من الشعر• وروائية لها سبع روايات• ومجموعتان قصصيتان وثلاث مسرحيات • وبحثان عن لبنان • وثلاثة سيناريوهات للأطفــال • وقد حصلت عن هذا الابداع الغزير على خمس جوائز أدبية • منهــا جائزة جونكور فى القصة القصيرة لعام ١٩٧٩ ، هذه الكاتبة تنتمى فى جذورها ونشأتها الى بلدين عربيين : لبنان بحكم أصل الأسرة (صعب) ، ومصر بحكم المولد والنشأة والثقافة •

ولدت اندريه صعب فى مدينة القاهرة فى عام ١٩٢٩ • ودرســت فى المدارس الفرنسية بالمدينة قبل أن تسافر الى لبنان وتعود اليهــا مرة ثانية • لتستكمل دراستها فى جامعتها الأمريكية • ثم ما لبثت أن تزوجت من العالم لوى شديد الذى كان عليه ان يرحـل الى باريس عــام ١٩٤٦ فسافرت معه واختارت أن تبقى هناك وهو يعمـل الآن باحثا فى فلوريدا بالولايات المتحدة •

تقول أندريه شديد : « فى عام ١٩٤٢ • كنت شابة صغيرة تركض وراء فراشات القاهرة • فى هذه الفترة لم تكن تراودنى فكرة الكتابة • غــير أننى أردت أن أصنع شيئا ما فى حياتى • التى كانت مكـونة من المسرح

والرقص والتمثيل بالصدفة وحدها ، بدات برسم ــ ولا أقول كتابة ــ بعض الأبيات من الشعر بالعربية والانجليزية · عبرت عن العنف والموت وهدف الحياة · اتخذت اسما مستعارا هو اندريه لايك · منعا الشبهة ·

« بقيت على هذه الحـــال حتى عام ١٩٤٦ ، ذات يوم مشمس من أيام باريس · دخلت الى مكتبة تبيع مطبوعات شرقية · نقلت أسمـــاء المجلات لكى أقيم معها الاتصال · رحب بى ناشر · كان هو أيضا الناشر الأول لجورج شحادة » ·

« عام ١٩٤٨ انعطفت نحو القصص · نشرت حكايات عن مصر فى مجـلات مختلفة · ثم ظهرت روايتى الأولى « نوم الخلاص » وهى تدور حول مصير المرأة الشرقية ومصاعب حياتها فى شبكة العلاقات السائدة · البطلة تدعى سامية وهى مسحوقة الشخصية · تفرض عليها عائلتها زوجا قاسيا يمنعها من التعبير عن آرائها · بعد سلسلة من المشكلات الحـــادة تموت ابنتها · وفى ذروة اليأس تقتل زوجها » (١) ·

وقـــد نشرت هـــذه الرواية فى سـلسلة روايات الهـــلال تحت عنوان « النوم الخاطف » وأفضل ترجمة لهذا العنوان le sommeil delivré هو « نوم الخلاص » · وسامية فى هذه الرواية عبارة عن سلعة يتم التقايض عليها من أجل زواجها · فهى تتزوج من رجل على قدر من يسر الحال بعد أن أصاب العوز اباها الذى كان ميسورا يوما ما ·· وبينما هى فى المدرسة · تفاجأ بأخيهــا يأتى اليهــا ويأخـذها كى تتـم الصفقة باسمها · فهى نفسها الصفقة · وتترك مدينة اسيوط كى تعيش فى قرية صغيرة · فى منزل يتحكم فيه زوجها الذى يكبرها بسنوات · ثم أخته العانس التى تتحكم فى كل شىء ، وتفاجأ ســامية انها عبــارة عن قطعة من أثاث المنزل يتم استخدامها عند الحاجة فقط · فتسكب حبهــا فى طفلة صغيرة من بنات القرية تأتى اليها من وقت لآخر · وتكتمـــل سعـادة سامية عنـدما ترزق بطفـلة تحـولها من شىء فى البيت الى كيان · الى أم تنبض الأمومة المتدفقة فى عروقها · لكن الصغيرة ، بعـد أن كبرت قليلا ، تصاب بنوبة من البرد ·· ونتيجة لاهمال الأب وسلبيته ولقلة خبرة سامية بالحياة ، فان الابنة تموت · ولا تجد أمامها سوى أن تقتل زوجها أمام عينى أخته المســـتبدة ·

---

(١) يكفى أنها مصر · يوسف القعيد · مجلة المصور ــ القاهرة ــ ٢٤ يونية ١٩٨٨ ، ص ٤٦ ·

وفى وصف الجو والعالم تحس أن اندريه شديد قد عاشت ردحا من الزمن فى صعيد مصر • فهى تعرف عاداته • وسلوك ابنائه • فسامية نموذج للمرأة المصرية التى يعاملها الرجل غالبا على أنهـا شىء مكمـل فى البيت •

وقد عبرت الكاتبة عن هذا العالم فى بقية رواياتها بمنظـــور آخر مكمل • وخاصة فى روايتها « اليوم السادس » ie sixeme jour المنشورة عام ١٩٦٠ • ونحن هنا فى هذه الرواية أمام امرأة أخـرى •• أنضـج خبرة • وأكبر سنا وتعيش بين المدينة والريف • المدينة هى القاهرة • والزمن فى الرواية عام ١٩٤٧ • حيث انتشر مرض الكوليرا • والمـرأة اسمها صديقة • انها جدة لطفل صغير تركته لها ابنتها وماتت • وصديقة تذهب فى أول الرواية الى قرية بروات للعزاء فى وفاة أحد اقاربها حيث جالت الكوليرا هناك وصالت وحصدت الكثير من المرضى • كـان على صديقة ان تترك حفيدها حسن ليوم واحد كى تلتقى بأهلها الذين لم ترهم منذ سبع سنوات • وفى القرية يردد صالح ـ أحد الأقارب ـ قائلا لها : « بوسعك أن تعودى من حيث أتيت • لقد جئت بعد فوات الأوان • لـم يعد هنا سوى الأموات لاستقبالك ، فالكوليرا تحوط العجوز فى كل مكان» • تلك المرأة التى لم تعرف فى حياتها سوى الاحزان • فقد ماتت ابنتهـا الوحيدة قبل فترة قصيرة وتركت حسنا لتربيه •

وتجىء اهمية هذه الرحلة الى القرية من خلال ما جاء على لسان صالح أيضا فى الصفحات الأولى من الرواية «ان الكوليرا لا تهم أهل المدن فى شىء ، انها تهمنا نحن فقط » •

وصالح هذا فى حد ذاته رمز كبير للعجوز ، فهو يحدثها عن أحوال القرية ومرضاها • والأسرة التى مات منها أحـد عشر شخصا وذلك من خلال حوار طويل دار بين الاثنين • وفى هذه الزيارة أيضا تعـرف أن زوجها سعيد يجد من يتولى امره فى غياب العجوز : تبدو المـرأة وقـد تحجرت مشاعرها لكثرة ما سمعت من أخبار عن موتى الكوليرا • ولا يخفف هذا التحجر سوى مرض سليم المدرس بعد عودتها الى المدينة • ثم مرض حفيدها • لقد تركت الجدة حفيدها عند الأستاذ سليم من أجل أن تذهب الى العزاء • وسليم عند أندريه شديد رمز الأمل الذى لا يموت •

وسليم المعلم يرتدى ملابسه على النمط الأوروبى • كان كل شىء فى هذا الشاب يوحى لها بالثقة • كانت تجد وجهه جميلا وسيما • ونظـرته مشرقة • اما ابتسامته فكانت تصفها بأنها قطر النـــدى • ولكن عنـدما يبدى الأستاذ سليم رأيه فى الجهل والفقر والعلم • فان وجهه يتغـــير

فجأة وتتوهج أذناه ويتـــدفق الدم فى شرايين صـــدغه وتتصارع أفكار كثيرة فى رأسه ويتملكه عنف شديد وعندئذ تتضارب كلمـاته • ويختلط بعضها بالبعض فتصبح مبهمة • وعندئذ تسـتولى عليـه موجـات من الشهامة والثورة لا يكاد يعى كنهها ولا يستطيع أن يدرك مغـزاها أو أن يتحكم فيهـا •

وسليم المعلم ، شخصية ذات أبعاد عميقة كمـا تقـدمه الكاتبـة • لذا ، فان اصابته بالمرض ترمز الى تحطيم أمل • ليس فقط فى قلب الجدة، بل فى قلب الصغير حسن الذى انتقلت اليه الكوليرا : « بعد ستة أيـام سأكون قد شفيت • لا تنس ما أقوله لك ، فى اليـوم السادس ، اما أن نموت او نبعث من جديد • اليوم السادس » • وهكذا سيصبح لهـذا اليوم معنى كبير • فهو اليوم الذى اذا لم يمت فيه مريض الكوليرا فمعنى هذا انه قد اجتاز مرحلة الخطر •

وتمر ستة أيام • وينتظر الطفل • ولكن المدرس لا يعود • فينتظـر مرة أخرى بلا أمل • وبعد رحيل المدرس راح حسن يتسكع تائها فى كل مكان • لا يحضر فى وقت تناول الوجبة • فلا تتمكن جـدته من رؤيتـه لأيام بأكملها • فكم تسلل كالقطط بين الحـارات ممـا يعنى أنه فقـد حبله السرى ، مما يؤهله للاصابة بنفس المرض • وقد كان ذلك سببا لرحلة هروب تقوم بها صديقة من أجل الحفيد المريض • امرأة طاردتها الآلام دوما • وها هى تردد : « ان الذى يرقد هنا ليس سـوى صـورة • صورة لطفل الغد • ان اليوم لا يعد شيئا مادام الغد يقترب بعد أربعة أيـام من الآن » (١) •

وتقل صـديقته مركب • وفى اليوم السـادس يصـبح كل من فوق المركب الذى تعاطف معها ، جسدا واحدا وكتلة بشرية تسعى لتوصيل حسن الى البحر مهما كانت المصاعب • منهم مروض القرود الذى ركب معهـا والذى يدعى عوكل • وصاحب السفينة والنوتى • وأبو نواس الذى يردد فى كل أعماقه وهو يتأمل الطفل المريض : « انه حى • ان الغـد يفيض حياة » • ثم يصيح النوتى وقد أنار وجهه : انه حى •

وتكاد تكون روايتاها : « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » الوحيدتين اللتين تدور أحداثهما فى مصر الحـديثة • أما بقيـة أعمالها عن مصر فهى تدور فى التـاريخ الفرعونى • والتـاريخ القبطى • مثـل

---

(١) اليوم السادس • أندريه شديد • ترجمة حمادة ابراهيم • الدار المصرية للكتاب ١٩٦٨ •

رواياتها «اخناتون وحلم فرعون » ١٩٦٤ وهى أيضا مترجمة الى اللغة العربية • والتى موضوعها الأساسى هو الدفاع عن قدسية الحياة الزوجية ، وعن الأمل فى وجه قسوة التاريخ • فبطلة الرواية تموت فى النهاية بعد قصة حب كبيرة • وقبل غيابها تؤكد فى لحظة أمل على أن الموت ليس نهاية الحياة • انه فقط مجرد نهاية للمصير الأرضى •

أما الرواية الثانية التى تدور فى مصر من خلال التاريخ فمنشورة عام ١٩٨٢ تحت عنوان « دروب الزمن les marches du safle ونحن هنا أمام ثلاث من النساء فى القرن السادس الميلادى : «سير» • و « مارى » « واتاناسيا » • من فى أعمار مختلفة • جئن الى الصحراء القاسية من عوالم متباينة • ولأسباب أيضا تختلف • يلتقين ويقررن أن يذهبن الى الصحراء من أجل أن يعشن معا فى مصير واحد •• ولقد جاءت هؤلاء النسوة من مدينة الاسكندرية ومن بعض القرى المصرية القريبة منها • انهن يبحثن عن الراحة الأبدية فى الصحراء بعد أن عانين الكثير فى المدن والقرى • والرواية تدور على لسان رجل عجوز يدعى « تيمس » • فمارى امرأة جميلة وذات أصل نبيل • وقد عملت محظية لشخصية بارزة فى الثغر • لقد قررت ان تترك الاسكندرية فجأة ذات مساء عندما أحست ان روحا تناديها ان تذهب •• وسرعان ما راحت الصحراء تدمر هذا الجمال الحى المتدفق ، وتستهلك ذكرياتها حتى تقطع كل علاقة لها بالماضى • أما « أتاناسيا » فقد كانت زوجة وأما سعيدة الى أن جاء يوم حكم فيه المتطرفون على ابنها الأصغر بالموت وتم القبض على الطفل الذى وجد نفسه وسط قوم بالغين يحاكمونه ويقتلونه ، مما دفع الزوج أن يتجه نحو الصحراء •• وكان على زوجته أن تذهب وراءه للبحث عنه •

أما المرأة الثالثة « سير » • فهى مراهقة ، فلاحة صغيرة مليئة بالسحر • وقد هربت من الدير الذى يسيئون فيه معاملتها • وقررت أن تتوه فى الصحراء باحثة عن الله من أجل حب صوفى يتم فى صمت شديد •

وفى الصحراء تلتقى النسوة الثلاث بتميس الذى يروى الأحداث • وهو رجل على مسافة خطوات من الموت • لقد جاء الى الصحراء بحثا عن « اتاناسيا » التى جاءت بدورها بحثا عن زوجها • انها بالنسبة له حبه القديم الذى لم يتمكن ابدا أن يناله • ويقول جورج ايمانويل فلانسيه : انه بالنسبة لنص تميس فان أندريه شديد تقدم لنا فاكهة حكمتها • حكمة وصفاء يرجعان الى خبرة طويلة مرتبطة بأحزان التاريخ • فى داخلها

شعر • مثلما تكلمت المرأة بلغة فواحة • ويبدو ذلك مـاثلا فى وجـوه النساء المصريات الثلاث اللاتى عشن فى الأزمنة القديمة ، فمهمتهن الروحية تكشف لنا رؤية الروائية • رؤية تتناسب مع عصرنا •• ولكل العصور • عندما تتكلم عن « اتاناسيا » تكتب : « انها تكــره جنــون الرجــال الأقــزام من أجل السلام الذى يوحى بالمـذابح » • ونفهـم أن هـــذا الحقد هو حقد دفين • ثم ها هى تعبر لتميس عن هذه الفكرة : « العالم الذى فيه النساء اكثر ظلما لا ينقذنا أبدا من المجـاعات •• نحن نفـكر فى عالم لا يحكمه نداء الشعر وتعبر عنــه اندريه شـــديد من خــلال شخصياتها : « سير » و « مارى » و « اتاناسيا » ، انه فى النهاية عالم من الجمــال والطيبة والعدالة » (١) •

وعن تاريخ مصر القديمة قدمت أندريه شديد مسرحيات عديدة مثل مسرحيتها « برنيس المصرية » Bercnice d'égypte « والتى تعتبر أفضل ما كتبت فى مجال الشعر • وتدور الأحداث فى مدينة الاسكندرية ، بين عامى ٥٨ و ٥٥ قبل الميلاد • ابان حكم « أوليت » أحد ولاة بطليمـوس الــذى ولاه المدينة ثم ذهب يستكمل فتوحاته • وأوليت رجل طيب يحب الشعر والفن • ولذا يطلقون عليه اسم « عازف الناى » ، ويتكلم الراويـة سترابون عن الحاكم قائلا : « انه نموذج للشرف والفضيلة • وهــو رجل خيالى ، فنتازى • يميل للرقص والصراخ • والعزف على الناى • يرمز للحزن والشجون العميقة » •

ذات يوم يقرر هذا الوالى أن يترك مكانه لابنته الشابة برنيس وهى نموذج مكرر لأبيها وهى ، كما تقــول الكاتبــة ، الأخت الكبــرى للملكة كليوباترا السابعة • وكى تستقر على العرش • فان برنيس تتزوج من كلاوس ، ويكون الاثنان ثنائيا بسيطا لا يتعلق كثيرا بالسلطة • ويتصرف ببساطة مع الشعب ، فرسالتهما هى تدمير كل آثار الطغيان الذى كــان يمارسه بطليموس • لكن هذا ليس أمرا سهلا • وكى ينجحا فعليهمــا الاســـتعانة بالشعب •

ولكن ، بعد ثلاث سنوات من الفتوحات والحروب التى لا تنتهى يعود بطليموس الى الاسكندرية ، آملا أن تكون الأمور قد ســارت على هواه • لكنه يفاجأ ببرنيس وزوجها فى مواجهة عودته بكل ما يملكان • فيقرر بطليموس الاستعانة بالقائد مارك انطونيوس الذى يدخل المدينــة بجيوشه ويأمر باعدام الزوجين • وهنــا تقرر الأخت كليوباترا أن تدخل

---

(١) l'actualité litteraire. G. E. Clancier No. 31 Avril 1982, p. 3.

حلبة الصراع من أجل العرش • وأن تدافع عن الحق بعد موت أختها • وها هو عازف ناى صغير يطوف بضواحى المدينة • يغنى حكاية الملكة برنيس المصرية التى ماتت على أيدى جيوش الطغاة •

وفى الفترة الأخيرة ، ومن أجل لبنـان ، كتبت أندريه شديد روايتين تدور أحداثهما فى لبنان الأولى فى عام ١٩٨٥ تحت عنوان « منزل بلا جذور » la maison sans racines ، والثانية فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان « الطفل المتنامى » l'enfant multiple تدور أحداث الرواية الأولى فى لبنان عام ١٩٧٥ أى فى بداية الحرب الأهلية • المنزل الذى بلا جذور هو بيت أصبح يسكنه رجال مسلحون مثلما سكنوا لبنـان • وفى هذا البيت تلتقى لأول مرة الجدة بحفيدتها • أثناء اجازة صيف • أحداهما تسكن باريس والثانية فى الولايات المتحدة ويدور اللقـاء فى لحظـات قصيرة عابرة • وهناك اثنتان من النساء كانتا صديقتين فى طفولتهمـا أصبحتا الآن تنتميان الى قوتين متضاربتين ولكن عليهمـا أن تتبادلا الأماكن من أجل أن يسود السلام ، وكى يذوب الحقـد ويخـلع عنه شـعره الكثيف •

وبطلة الرواية تدعى سيسيل • انها فى الثـانية عشرة من عمرها • تعيش فى الولايات المتحدة • أما الجدة فتدعى كاليا • وهناك لقـاءات قصيرة عابرة بين الاثنتين • فاذا كان اللقاء الأول قد تم فى أغســطس ١٩٧٥ ، فان لقاء آخر تم قبل ذلك ، حيث كان هنـاك لقاء بين الجدة كاليا عندما كانت فى نفس السن عام ١٩٣٢ وبين جدتها •• وهناك حالات انتقال غير ثابتة بين الحاضر والماضر • وفى اللقاء العابر نرى هنـاك جثتين لامرأتين • انهما نفس الصديقتين القديمتين اللتين جاءتا من أجل المصـالحة والسـلام • لقـد أطلق النـار عليهمـا شخص مجهول •

تقول أندريه شديد : « جاءتنى فكرة هذه الرواية عام ١٩٧٨ • فكرة هذا اللقاء بين شخصين جاءا من بعيد ويطاردهما التأريخ •• لقد رأيت الصـــغيرة تقـع فى الفخ •• ولم أكن أعـرف كيف أنقذها فتركتها تهـــوى » (١) •

لقد ماتت الصغيرة فى هذا اللقاء العابر مع جدتها • هبت عليها الرياح الدموية فغرق الوشاح الأصفر فى الدماء •

أما روايتها « الطفل المتنـامى » فهى تدور أيضا فى زمن الحرب اللبنانية، والبطل هنا طفل برىء يدعى عمر ــ جو• وهو ممزق مثلما بلاده

(١) A. Chedid, Josyan Savigneau. Le monde 20-1-1985, p. 22.

ممزقة · كما أن أسرته منقسمة · فهو من أب مسلم وأم مسيحية · وكأنه لبنان كلها · لقد مات الأبوان فى أثناء انفجار سيارة مفخخة أسفل عمارتهما فى بيروت · وكان على عمر أن يعيش المأساة · هو فى الثانية عشرة من العمر · ولكن ذاكرته خصبة ومزدحمة مثل الكبار · ورغم هذا فلديه شهية قوية لأن يبقى على قيد الحياة · ولا يموت غدرا مثلما حدث لأبويه · يقرر الرحيل الى باريس عند أبناء عمومته · وهناك يلتقى بصديق فرنسى من نفس سنه يدعى ماكسيم · له شعر مجعد · ويحب مداعبة القطط · يلاحظ عمر ـ جو أن الأطفال الذين يعيشون فى مدن مسالمة ليست بها حرب اهلية يحبون مشاهدة التلفاز ومتابعة قصص وأفلام الحرب · يتذكر عمر ـ جو بلاده التى امتلأت بأشجار الزيتون الأسود · والنعناع · الآن أصبح وطنه أشبه بالليل الدائم ·

فى باريس أيضا يتذكر جده يوسف الذى يبلغ الثمانين من العمر · والذى عاش طويلا فى الجبال فيكتب له رسالة طويلة يعبر له فيها عن مدى سعادته بالحياة فى باريس · فهو لا يسمع ، ليلا أو نهارا ، أصوات المدافع ولكنه يسمع صوت ماكسيم يلعب · ويقول ان الأشجار هنا لا تجتث من جذورها بسهولة · وهو لا يرى أى حوائط فى المدينة وقد اخترقها الرصاص ، ولكنه يرى رجلا وامراة يتبادلان القبلات دون أن يتساءلا عن ديانة كل منهما ·· وتجىء رسالة من الجد يخبره فيها أنه سوف يأتى يوما لزيارته فى هذه البلاد · ولكن هذه البلاد لن تصبح قط وطنه · ويذكره أن المزرعة التى يعيش فيها لا يزال موجودا بها الديوك والأرانب والماعز ·

وفى الليل يحلم يوسف أن روحه تصعد الى السماء وأنه يطير فوق البحر المتوسط · ثم يصل الى باريس ·

أما عن الروايات القليلة التى كتبتها أندريه شديد ولم تذكر فيها شيئا عن الشرق · فهناك رواية بعنوان « الآخر » توحى أحداثها بأنها تدور فى لبنان حول صداقة تنمو بين شاب ورجل عجوز رأى منزلا ينهار عليه ·

هذا هو بعض من عالم أندريه شديد الروائى ·· فماذا عن علاقتها بالشعر ؟ لقد نشرت مجموعة من الدواوين من أبرزها « كلمات عن قصيدة » و « كلمات عن الأرض الجديدة » ثم « الوجه الأول » ويتسم شعرها بأنه بالغ الخصوبة · مجرد غاليا من الأزمنة والأماكن ، عكس ما حدث فى رواياتها · وهى أشعار يصعب ترجمتها الى أية لغة · فهى تعزف على معانى الكلمات من خلال مقاطعها وكلماتها القصيرة · وتؤمن أن « صمام الشعر » أو مفتاحه هو الغموض · ويجب على الشاعر أن

يغوص داخل دهاليز مليئة بالأسرار والألغاز والطلاسم : « أحاول قدر الامكان أن أبين الأشياء واضحة · ولكن هناك أشياء مختلفة فى الشعر · ويجب أن تكون لنا فيه مسالك جديدة » ·

وعن الشعر ايضا تقول أندريه شديد : « ان العالم الهائج الغامض السرى الذى نحمله فى داخلنا يفتش عن نوافذ يطل منها نحو الخارج · الشعر هو احدى هذه النوافذ · انه خارج الأعمار والأجناس والألوان والجغرافيا · انه مرادف للحرية أو بديل لها · لا تحده حدود القسوة أو الدم انه قصائد أحيانا · وتسقط منها نقاط الدم · ثم أسئلة عن الموت والحياة والحب والمرأة والظمأ الى سعادة لا تكتمل أبدا » ·

« الشعر جواب عن كل كائن · انه أيضا ينطوى على ضروريات لا نعرفها ، يجب صقل العجينة الشعرية · تطويع الكلمات للوصول الى التعبير الأكثر دقة وايحاء · والقبض على أسرار الحياة · وكل هذا يتطلب انتباها وعملا وبحثا لا نهاية له » (١) ·

ولقد اخترنا احدى القصائد السهلة نوعا · قياسا الى أشعارها الأخرى تحت عنوان « انتقام » من ديوانها « نزوات وأعياد » :

كى تهرب من السعير
فان السيدة الفسياء
تبيع قنواتها
كى تبنى بيتا
فوق نهر البورجيز
وكوخا فوق مرتفعات البحر
لكن الريح مرة
لكن الريح مجنونة
من يفضل الفسياءات
الوقاويق التى فقدت مناقيرها
قلبت الكوخ على عقبيه
والسيدة الفسياء
نفقت داخل البئر

فى عام ١٩٨٨ نشرت اندريه شديد مجموعة قصصية تحمل عنوان «عوالم مرايا ساحرة» monde miroirs magiques وبمناسبة صدور هذه المجموعة أجرت مجلة arabies حوارا مع الكاتبة تحت عنوان « اننى

(١) يكفى انها مصر · يوسف القعيد · مجلة المصور · القاهرة ١٩٨٨/٦/٢٤ ·

أحمل شرقى فى داخلى » قالت فيه ان العوالم هنا هى التجارب الانسانية التى عاشتها ٠ أما المرايا فهى التى تنعكس عليها ذكرياتها الحقيقيـة ٠ رأحيانا الملابس التى نلبسها والتحولات التى تمر بها ٠ وتعنى الساحرة الحياة اليومية التى يحيا فيها الانسان داخل خيالات ، وترى شديد أنهـا قد لجأت الى نشر هـذه الأقاصيص لأن الأقصوصة هى فن أقـرب الى الشـعر الذى نكتبه كثيرا ٠ « وقبـل أن اذهب الى القصـة القصـيرة ثم الى الرواية ٠ دون أن أهجـر الشعر ٠ أحس أنه يمكن الوصول الى تشخيص الكتابة فى القصة القصيرة ٠ وأنا أحب أن أشخص كتاباتى ٠ مثلما فى الشعر فنحن نتركه قبل أن نضع كل كلمة فى مكانها » (١) ٠

وتقول الكاتبة فى الحديث انها قد استلهمت أعمالها من منابعهـا الشرقية : « أنا سعيدة اننى أعيش فى أماكن متعددة ٠ أنا أعيش كالمثراء فى حرية ولكننى قلت لك اننى ليست لدى النية أن أقتلع جذورى بشكل ماساوى ٠ فهذا ليس أمرا سهلا بالنسبة لى من أى شىء آخر ٠ أحس أننى انتمى الى الشرق والغرب ٠ وقد كتبت كثيرا عن مصر ولبنان ٠ ومصر هى وطنى الحقيقى بالنسبة لى ٠ فان الكثير من العناصر تتلاحم ٠ وتتزاوج٠ وتتناطح ٠ وهذا يسبب لى دوما السـعادة أن أسمع ان «اليـوم السادس» و « نوم الخلاص » مثلا كتابان عن الواقعية فى مصر ٠ يجب أن تحتفظ دائما بشىء ما فى أعماقك وانت تعبر بلغـات مختلفة » (٢) ٠

وعن المزج بين الثقافتين الشرقية والغربية ٠ تحدثت أندريه شديد الى مجلة « المصور » قائلة : « لا أعانى من تمزق فى المنفى أو من صعوبات التكيف ،أشعر أننى أعثر على نفسى وذاتى فى التعـددية الثقافية ٠ ان مناخى المفضل هو التناغم بين الشرق والغرب ٠ هنا أميز بين نقـاط التكامل والاختلاف ٠ ان علاقات شرقية تسيطر على كتاباتى ٠ من النادر العثور على علاقات غربية ٠ جذورى فى مصر ولبنان ٠ شعورى شرقى، نبضى هو نبض المرأة الشرقية ٠ الاحسـاس أقوى بكثير من الأسـاس الجغرافى ٠ افتش عن تواصل ممكن بين الناس وأهتم بالبحث عن أرض تلاق ، وعن ينبوع مشترك وخبز تتقاسمه كل الشفاه ٠ بسبب ذلك ، أنا فى حاجة الى التعبير والكتابة والقول ٠ وذلك بأشكال الكتابة المختـلفة ٠ يجذبنى ما هو أساسى وطبيعى عند كل واحـد منا : المـوت ٠٠ الحب ٠٠ الحيـاة ٠٠ » (٣) ٠

---

(١) Arabics, Novembre 1998.

(٢) المرجع السابق ٠

(٣) مجلة المصور ، ١٤ يونية ١٩٨٨ ٠

والجدير بالذكر أن شديد كانت قد قالت نفس الكلام فى عدد مجلة « مدام لوفيجارو » السابق الاشارة اليه : « باريس هى أرض مثل القاهرة من الرائع للكاتب أن يكون مواطنا فيها وأن يخرج أحيانا من جذوره وأماكنه · لم أبدأ فى كتابة صفحات وجدانية عن مصر الا بعد ثلاث أو أربع سنوات فى فرنسا » ·

وقد حصلت اندريه شديد على مجموعة كبيرة من الجوائز الأدبية نذكر منها : جائزة لوى لابيه عام ١٩٦٦ ، وجائزة النشر الذهبى للشعر عام ١٩٧٢ ، والجائزة الكبرى للأدب الفرنسى التى تمنحها الأكاديمية الملكية ببلجيكا عام ١٩٧٥ · ثم جائزة أفريقيا البحر المتوسط عام ١٩٧٥ · وجائزة جونكور فى القصة القصيرة عام ١٩٧٩ · ثم جائزة فى الترجمة الأدبية عام ١٩٩٢ ·

احمد راسم :

يشكل أحمد راسم ظاهرة تستحق التأمل فيما يتعلق بالأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ، وهى أنه كان متمكنا من اللغة العربية قدر لغته الفرنسية ومع ذلك فقد فضل كتابة قصائده باللغة الفرنسية ، وكان ينشر أعماله فى أضيق حيز ممكن ، حيث لم يكن ينشر أو يطبع أكثر من ٥٠٠ نسخة فقط من دواوينه ، ولذا فان مؤلفاته المكتوبة بالفرنسية لم يقرأها الا نخبة قليلة من أصدقائه الملمين بالفرنسية · ولم يترجم شعره قط الى اللغة العربية فى كتاب ، فبدا كأنه رقص بالفعل على السلم ، فلا هو نشر أدبه على مستوى عال فى فرنسا مثلما فعل أقرانه من الأدباء الناطقين بالفرنسية ، ولم يسع الى ترجمة هذا الأدب الى اللغة العربية ·

والجدير بالذكر أن راسم يعد من أوائل الأدباء العرب الذين نالوا جوائز فى فرنسا · فقد منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة خاصة تقديرا لشعره فى عام ١٩٥٤ ·

نشأ أحمد راسم فى مدينة الاسكندرية · حيث كان الثغر مليئا بأبناء الجاليات الأجنبية الذين يتحدثون لغات عديدة · وقد كان ميلاده فى عام ١٨٩٥ فى أسرة مصرية تصاهرت مع عائلة تركية · وقد نبغ بعض أفراد هذه الأسرة فى الفنون والآداب · واشتهر البعض الآخر بالوظائف الادارية العليا مثلما سيحدث مع راسم نفسه حيث تبوأ ، كما سنرى ، العديد من المناصب فى السلك الادارى ·

التحق أحمد راسم بمدارس الاسكندرية الفرنسية · وقد كتب الشاعر السكندرى نيقولا يوسف مقالا عنه فى عدد شهر يونية ١٩٦٩ من

« المجلة » قال فيه انه : « أجاد اللغتين العربية والفرنسية ودرس أدبيهما ، ثم تلقى العربية على يد أستاذ خاص ٠ والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية ٠ ثم درس القانون بمدرسة الحقوق ٠

« وكان منذ عهد التلمذة شغوفا بمطالعة الكتب ــ الأدبية والفلسفة والعلمية ــ في اللغات العربية والفرنسية والانجليزية ٠ ويبدو أثر هذه المطالعات فى كتاب طبعه فى الاسكندرية عام ١٩١٦ وهو فى نحو العشرين من العمر ٠٠ وسماه « الدين والانسان » الجزء الأول (وضع بالفرنسية ثم ترجم وروجع) وجعله فى قالب حوار قصصى أو مناظرة تتخللها صور وأوصاف فكهة بين فيلسوف مادى ملحد وطالب روحانى مؤمن ٠٠ ثم بين الشك واليقين ٠ ووردت فى الحوار أسماء وآراء لبرجسون ، ومونتانى ، والكسيس كاريل ٠ والعلماء سوس وبسكال وجوستاف لوبون٠ كما ترد تجارب كيماوية ، ونظريات فلكية ، وآراء علمية كانت ثابتة فتغيرت ٠ يستشهد بها الماديون ٠

« فهذا الكتاب على صغر حجمه مع براعة حواره يدل على اهتمام مؤلفه أحمد راسم منذ صباه بالمسائل الفلسفية والنظريات العلمية ٠ ثم بترجيح الايمان والروحانية على الالحاد والمادية ، فى حين كان أمثاله من أبناء الأعيان يعمهون فى وديان أخرى » (١) ٠

ويقول بشير السباعى ان أحمد راسم قبل أن يتم العشرين من عمره كان قد قرأ وحفظ ، عن ظهر قلب ، الكثير من أعمال الشعراء الكلاسيكيين العرب والفارسيين والهنود واليونانيين واللاتينيين ، الى جانب الكثير من أعمال الشعراء المحدثين الشرقيين والغربيين على حد سواء ٠

« فى عام ١٩١٥ ، أحب أحمد راسم فتاة صغيرة اسمها نيسان ، لكن الموت سرعان ما فرق بينهما ، فسافر الى أوربا (٢) ٠

وقد عشق أحمد راسم الفن التشكيلى وهو فى هذه السن ٠ فصادق الفنان المعروف محمود سعيد ٠ ثم بدأ يبدع باللغة الفرنسية ٠ وحسب نيقولا يوسف «كان سبب اتجاه راسم للابداع باللغة الفرنسية أنه كان يتقنها ويطلع على أدبها ، وتعرفه الى الأوساط الفنية والأدبية بالاسكندرية ٠ فكان أن اتخذها أداة للتعبير فى معظم انتاجه الأدبى الغزير ٠ ونظم بها جل أشعاره المتسمة بالطابع الشرقى ٠ فى أسلوب بارع

---

(١) أحمد راسم ٠ نيقولا يوسف ، المجلة ، يونيه ١٩٦٩ ، ص ٤٢ ٠

(٢) أحمد راسم ٠ بشير السباعى ٠ مجلة القاهرة ، اكتوبر ١٩٩٠ ٠ ص ٣٥ ٠

لا يقل روعة عن أسلوب شاعر فرنسى كبير اصيل · وبدأ ينشر شعره فى الصحف والمجلات الفرنسية بمصر ، ومنها مجلة « مصر الحديثة » ، و « الصحف الأسبوعية المصرية » كما فى غيرها (١) ·

أحمد راسم ، اذن ، كان يكتب بالفرنسية وهو فى مصر · وبدا كأنه يعيش فى بلاده بجسده فقط · فلم تشر أى من المراجع التى بين أيدينا أنه كان على صلة بالمثقفين المصريين الذين يكتبون باللغة العربية · بل صادق النقاد الفرنسيين · وتعرف على أبناء الجاليات الأخرى من المثقفين الذين ترجموا أعماله الى لغاتهم مثلما فعلت الشاعرة اليونانية السكندرية اليزابيث بسارس · كما شارك فى تحرير مجلة « الأسبوع المصرى » التى كانت تصدر فى القاهرة فى العشرينات وهى من تمويل كاتب يونانى يدعى ستافروس ستافرينوس · لدرجة أن « المجلة » قد خصصت عن شعر أحمد راسم عددا خاصا فى عام ١٩٢٦ · وقامت نفس المجلة باصدار ديوان لراسم يحمل عنوان « وجدتى تقول ايضا » فى عام ١٩٣٠ ويعتبر هذا هو الديوان الثانى للشاعر حيث كان قد أصدر فى عام ١٩٢٧ ديوانه الأول تحت عنوان « كتاب نيسان » le livre de Nyssane الذى استوحى أشعاره من حبيبة مرحلة الصبا « نيسان » ·

فى تلك الآونة كان أحمد راسم يتدرج فى الوظائف ، وقد ساعده فى سرعة الترقى اتقانه للغات الأجنبية بالاضافة الى ثقافته ووسامته · فعمل فى السلك الدبلوماسى فى العديد من عواصم العالم فى كل من ايطاليا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وساعده ذلك على الاتصال المباشر بثقافات أخرى · وكثيرا ما ارتبط بصداقات مع أبناء هذه البلاد خاصة الأدباء والمثقفين ·

وعندما عاد الى مصر عام ١٩٢٨ عمل فى مناصب ادارية عليا فكان سكرتيرا عاما لرئاسة مجلس الوزراء · ثم وكيلا لمحافظة القاهرة · ومحافظا لمدينة السويس فى عام ١٩٤١ · كما عمل بعد ذلك مديرا لادارة المطبوعات ، وكان آخر هذه الوظائف مدير عام مصلحة السياحة المصرية عام ١٩٥٢ · ثم ما لبث أن ترك الوظيفة كى يتفرغ لأدبه حتى وفاته فى يناير عام ١٩٥٨ ·

ويقول نيقولا يوسف ان أحمد راسم قد « عرف خلال تلك الوظائف المختلفة ، فى بلاده وخارجها ، بوطنيته والاعتزاز بعروبته · فكان يضع

---

(١) أحمد راسم · نيقولا يوسف ،مرجع سابق ، ص ٤٣ ·

دائما مصلحة وطنه ومواطنيه فوق كل اعتبار · وكان فى الوقت نفسه موضع تقدير المواطنين والأجانب معا » (١) ·

تنوع نشاط راسم الكتابى بين الابداع الشعرى باللغة الفرنسية ، وهو نشاطه الغالب ، وبين الترجمة والنقد · وفى أشعاره النثرية التى نشرها فى دواوين مثل « قصائد العذارى » عام ١٩٢٥ · و « جدى يقول أيضا » ١٩٣٠ · و « زمبول » ثم « يقول أيضا » ١٩٣٢ و « أحمد يقول » · وتبدو مدى حميمية الشاعر مع الأشخاص الذين عاش معهم · خاصة أبناء اسرته · فقد كتب من أجل جدته الشركسية الأصل والتى كانت تدعى زنججيل ـ أى لون الورد باللغة التركية ـ بعض الكلمات فى ديوانه الأول « كتاب نيسان » وهو شعر منثور ، بينما أطلق اسم مربيته « زمبول » وهى كلمة تعنى الهزيلة كسراج على وشك الانطفاء ·· فقد أهداها عنوان ديوانه الثانى · وقد تنوعت أعمال راسم فنشر من الدواوين « سقت حمارى » عام ١٩٣٥ · و « مهبول عتاقة » ١٩٤١ ، و « الحقيقة العتيقة » ١٩٤١ ، ثم « بائع الكتب الصغير الأستاذ على » عام ١٩٤٣ · و « نثر لا جدوى منه » ١٩٤٩ · و « ملك » ثم « حاتم الطائى » عام ١٩٥١ · و « نوال » ١٩٥٢ · و « نهى » ١٩٥٣ · و « يوميات مصور خائب » ١٩٥٤ أما مؤلفاته بالعربية فهناك « الدين والانسان » ١٩٢١ · ثم شعره المنثور « الحديقة المهجورة » ١٩٣٢ ·

ويقول لوسيان البير فى حديثه عن ابداع راسم الشعرى : « وكما أن عناصر الضوء السبعة والتى يضمها اشعاع أبيض من النهار تتحلل على وجه الماسة الى ألوان قوس قزح · وتنطلق فى حزمة من الألوان لا يفصل أحدها عن الآخر غير لون شاحب خفيف ·· فانه هكذا تفتحت الروح السكندرى لأحمد راسم فان الشعاع الأبيض للبهجة أو ما شابه من العناصر الخالدة لشعر الحب ينثر على الفور روحا متألقة لضوء مميز ·· وكان على هذا الروح السكندرى أيضا المنبعث من سلالة ظل نساؤها طويلا لا يتذوقن الحياة الا فيما يدور بأحلامهن · فى أعماق القصور المزدوجة الاغلاق ـ بالشعريات العربية الطراز « المشربيات » · وبالسياج الكثيف المرصع بالياسمين المتراخى · وان هى الا نافذة تزيد القنوط ثقلا على قلب معتكف · ثم ما يلبث حفيد « زنججيل » ان يبلغ وقتا بدأ فيه الصبايا حوله يستمتعن بالحريات البريئة » (٢) ·

---

(١) أحمد راسم · نيقولا يوسف ، المجلة ١٩٦٩ ، ص ٤٣ ·
(٢) المرجع السابق ·

ويهمنا أن نشير أن راسم كان من أنصار الشعر الحر والشعر المنثور • لذا فان الكثير من ابداعه أقرب الى الشعر المنثور • و « قد تخرج القصيدة فى عمود ــ كل سطر فيه كلمتان أو ثلاثة أو عشرة ــ متصلة فى المعنى ولها فى النهاية وقفات • وقد يكون هناك وزن أو لا يكون •• ويكتب على غلاف كل مجموعة بعد اسمها كلمة « أشعار » ويعدها النقاد الفرنسيون شعرا • ولم يتجاوز راسم الحقيقة فهو شعر له مبنى ومعنى • وهو عاطفة منطلقة على الورق لا تحدها قيود وقواف وأوزان ، وفى شعره خيال يبدع ويبتكر ولا يشتط ويجمح ــ ورمز لا يغوص فى الابهام • وفيه سخرية أقرب الى الدعابة • وغزل رقيق لا يتماجن • وصوفية من وحى الروح • ومادية من وحى الجسد • وصور شعبية للناس • والشارع ودكان البدال والبحر والصحراء • والساقية والنخيل •• وصور من الشرق والغرب وثقافة عالية • ولكن القلب البشرى هو المحور الذى تدور حوله كل هذه المساحات الأرضية • ان الكثير من قصائده ليذكر بالصور التشكيلية التى أبدعها ابن خاله الفنان محمود سعيد ، ذات الحيوية النابضة والبعيدة عن شطحات التجربة ومستغلقات الرمزية •

و « اذا كانت اللغة الفرنسية هى الثوب الأنيق الذى ارتدى به شعره • فقد كان هذا الشعر بمثابة الانسان الشرقى • والروح المصرى الطابع الذى تخرج من فيه بين آونة وأخرى لفظة عربية تنم عليه » (١) •

كنا قد أشرنا أن أحمد راسم قد حصل على جائزة الشرف المدونة باسم فارس • وجائزة خاصة من الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٤ • وقد كتبت مجلة « الاثنين » تحية الى راسم بهذه المناسبة يهمنا هنا أن ننقلها قالت فيها :

« والجائزة التى منحها المجتمع الأدبى الفرنسى لأحمد راسم هى تحية موجهة لمصر كلها • لا لأحمد راسم وحده •

« والذى يؤسف له الا يكون أحمد راسم قد فكر فى نقل بعض مؤلفاته أو تكليف أحد أصدقائه بنقلها الى العربية • ففى هذا اتمام للفائدة • وتفخيم لتقدير الشاعر الملهم ، والكاتب اللبق فى الأوساط المصرية نفسها • حيث القارىء المصرى يجهل الكثير عن مواطنه أحمد راسم ، الذى يصوغ منذ نحو أربعين سنة لآلى عواطفه حيث يمتزج الحب بالألم حينا • وبالفرح أحيانا » (٢) •

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ •

(٢) أحمد راسم • مجلة الاثنين ــ ٩ أغسطس ١٩٥٤ •

واذا كان أحمد راسم لم يقم بترجمة أعماله ولم يطلب من أصدقائه أن يفعلوا ذلك ٠ فانه بعد أربعة وثلاثين عاما من هذا التاريخ قام بشير السباعى بترجمة مجموعة من أشعار راسم نشرتها مجلة « القاهرة » ٠ وكما قال المترجم فانه اعتمد فى ترجمة أغلب القصائد التى نشرتها المجلة على نسخة من مختارات راسم الشعرية مهداة من الشاعر الى شكرى زيدان الصحفى المعروف فى دار الهلال ٠

وقد اخترنا قصيدتين ترجمهما السباعى ٠ الأولى تحت عنوان « دعاء » :

الهى يامن تعلم
نقل الكلمات
ادعوك أن تجعل كل قصائدى اغنيات حب
مطرزة بالصمت كافئدة اليتامى
لأنه لم يبق فى
غير ايقاعات خفية
لأنه لم يبق فى
غير سر الكلمات
المتلاطمة حتى الضنى
أدعوك أن يتسنى لى مثلما تسنى للشاعر
تاونسين
ان أتمتم بأغنيات على عود بلا وتر
لا يفهمها سوى حبيبتى
مثلما تفهم نظرتى
حين تستاقر خجلى
على عرى
يديها الأنثويتين ٠

ومن قصيدة « كيف يمكنك » يقول :

حين تفتشين عن اسرار قلبى
تشبهين الأطفال الذين يهشمون لعبهم بحثا عن الروح الخفية
التى تحرك قطاراتهم
ان كان حلمى على ايقاع اصابعك يشدو

وان كان فكرى على زورق ضفائرك يهيم
فكيف يمكنك الشك فى عاطفتى ؟
حين يتركز على بهاء عينيك
اشـــعر أن كل شـــعاع حــزمة حية
وهيهات أن أكون فى أى وقت آخر أكثر قربا من الله ·

جـــورج حنين :

قليلة هى المراجع العربية التى تحدثت بشكل متسع عن جورج حنين · ومن أهم هذه المراجع كتاب لسمير غريب يحمل عنوان « السريالية فى مصر » · فيه تابع المؤلف حركة السيرياليين فى مصر من خلال مجموعة من أبرز أبناء هـــذه المدرسة مثـل رمسيس يونان وأنـور كامل وكامل التلمســانى وابراهيم فارس · ورغم تعدد هذه الأسماء الواردة فى الكتاب الا انه من الواضح تماما أن سمير غريب قد كتب كتابا عن جورج حنين فى مصر · فقد خصص صفحات كثيرة من هذه الدراسة عن حياة وعطاء حنين خاصة فى فترة حياته فى مصر · ونحن نعترف أن المراجع التى بين أيدينا عن الشاعر المصرى أقل كثيرا مما توفرت لدى سمير غريب الذى اعترف ان مجموعة من أصدقاء الشاعر وأفراد أسرته قد أمدوه بالمراجع خاصة صديقه عبد القادر الجنابى · وزوجة الشــاعر اقبــال العلايلى ·

ولذا ، فان اغلب ما سيرد فى الحديث عن حنين سيكون مرجعه ما جاء فى هذا الكتاب · فحنين مولود فى العشرين من نوفمبر عام ١٩١٤ من اب مصرى وأم ايطالية · وجورج لم يذهب قط الى المدرسة ولكن مربيـا تولى تعليمه القراءة والكتابة حتى سن الثانية عشرة · وفى عــام ١٩٢٤ عين والده سفيرا لمصر فى مدريد فصحبه جــورج ومربيه · وهنـاك تعلم اللغــة العربية وحاول ان يترجم اليهــا كتاب كارل ماركس «رأس المال» ·

اذن ، فجــورج حنين كان يجيد اللغة العــربية لدرجة أنه كان يترجم اليها · وذلك بعكس اقرانه مثل البير قصيرى وأندريه شديد ·

وقد انتقل جورج مع أبيه بين روما ثم مع أمه الى فرنسا والتحق بجامعة السوربون فى باريس ، وحصل منها على ثلاث شهادات « ليسانس » فى الحقوق والأدب والتاريخ حتى عام ١٩٣٩ · خـلال تلك الفتــرة كان يتردد على القــاهرة ويشارك فى بعض الأنشطة الثقافية (١) ·

---

(١) السريالية فى مصر ، سمير غريب ، الهيئة العــامة للكتاب ، القــاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٢ ·

وفى عام ١٩٢٤ كتب كوميديا انسانية بعنوان « تكملة ونهاية » ثم انضم الى جماعة فنية تسمى جماعة « المحاولين » قبل التحاقه بالسوربون » وكان سكرتيرها جابرييل بقطر ٠ « كما صدرت مجلة شهرية باللغة الفرنسية اسمها « انيفور » Un effort وتصف نفسها بأنها المجلة الوحيدة النزيهة فى مصر ومركز الفكر الحر ٠ وقد تحدث جورج فى احدى ندوات هذه الجماعة عام ١٩٢٧ عن الشاعر المستقبلى الايطالى « مارينيتى » وأدان بقوة تواطؤ الشعراء والامبريالية الايطالية فى الأعمال الأدبية الفاشية (١) ٠

وقد نشر جورج مقالاته فى هذه المجلة ٠ ثم نشر بيانه « ومن اللاواقعية » عام ١٩٣٥ اتضح فيه كم كان قريبا من السريالية ٠ ثم نشر قصصا باللغة الفرنسية فى مجلة « انيفور » وهى قصص تسخر من البرجوازية التى أسماها بالحمقاء ٠ كما نشر قصائد بالفرنسية ٠ وراح يراسل مجلة أدبية فرنسية تحمل اسم « ليزيمبل » les humbles ونشر فيها مقالات مطالبا بسيادة البروليتاريا ٠ ويقول سمير غريب ان «ابن الباشا ، كان بعيدا عن الاسترخاء فى حياة أولاد الذوات وأظهر تعاطفا شديدا مع الفقراء والمضطهدين ، وشعر بأنه يجب الاعداد لنهضة جديدة ، تفرض الأفكار القادرة على تغيير المجتمع ، وأراد أن يكون من بين من يأخذون المبادرة » (٢) ٠

وقد أبدى حنين حماسه الشديد فى أن يقدم لأبناء وطنه من المثقفين نماذج من الأدباء الفرنسيين المعاصرين ٠ ولذا ، قدم الى قراء العربية كلا من فرديناند سيلين وأندريه مالرو وهنرى دى مونترلان وآخرين ٠ كانت لديه الرغبة لأن يظهر لفنانى بلده كيف أن الفنون التشكيلية قادرة على المشاركة ، مثل الكتابة ، فى معرفة الانسان ٠

فى تلك السنوات كان جورج حنين ينتقل بين القاهرة وباريس ، وفى عام ١٩٣٦ تعرف على الكاتب والفنان السريالى أندريه بريتون ٠ وفى عام ١٩٣٧ قدم محاضرة عن السريالية ٠ ثم بدأ يشكل جماعة من السرياليين المصريين أمثال الشاعر ادمون اليابس ، والرسامين كامل التلمسانى ورمسيس يونان ٠ وقرر أن يسمى جماعته « الفن والحرية » تعبيرا عن انتمائه لتروتسكى ٠

وفى نوفمبر ١٩٣٨ أصدر جورج أول دواوينه باللغة الفرنسية تحت عنوان « لا معقولية الوجود » Déraison de l'être مزينا برسوم كامل

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ ٠

التلمسانى · وفى يناير تكونت جماعة « الفن والحرية » l'art et la liberté التى أصدرت مجلة « التطور » عام ١٩٤٠ والتى كان من أهدافها :

(أ) الدفاع عن حرية الفن والثقافة ·

(ب) نشر المؤلفات الحديثة ، والقاء محاضرات عن كبار المفكرين فى العصر الحديث ·

(جـ) ايقاف الشباب المصرى على الحركات الأدبية والفنية والاجتماعية فى العالم ·

وفى ديسمبر ١٩٣٩ شارك فى تأسيس جريدة باللغة الفرنسية تحمل اسم « دون كيشوت » فكان يكتب ويرسم فيها · ولكن مجلة « التطور » التى صدرت عن الجماعة فى عام ١٩٤٠ باللغة العربية كانت تجمع بين السياسية والأدب والفنون · ولكن المجلة لم يكن لها مورد مالى سوى تبرعات الأعضاء ، وبالأخص جورج حنين وحصيلة بيعها القليلة · وقد نشرت قصصا وقصائد لأدباء من نفس الجماعة وأدباء آخرين من غير الجماعة مثل ألبير قصيرى · وعانت المجلة من مشكلة الاستمرار فلم تصدر سوى سبعة أعداد فقط ·

وبعد توقف « التطور » تعاون السرياليون مع سلامة موسى صاحب مجلة « المجلة الجديدة » وفى عام ١٩٤٢ انتقل امتياز المجلة الى رمسيس يونان ثم ظهرت مشاكل تعوق دون استمرارها ، ويقول سمير غريب : « أدت المجلة الجديدة دورا عظيما فى مرحلتها · كانت مجلة سياسية ثقافية أعلنت عن نفسها بأنها مجلة « للكفاح والتجديد الاجتماعى » (١) ·

كان جورج حنين يمضى اجازاته فى باريس · وخلال اقامته هناك عام ١٩٤٦ التقى لأول مرة بالشاعر أيف بونفوا الذى كتب عنه مقالا فى مجلة « كنزان ليترير » فى العدد ٢٠ عام ١٩٧٧ متسائلا : « من كان جورج حنين ؟ : من الخارج كانت حياته ، على الأقل من الناحية الأدبية ، تبدو للوهلة الأولى وكأنها ترجع الى مجموعة من الظروف · فهو مصرى قبطى ، ولكنه فرنسى الثقافة بلغ سن النضج عند عتبة الحرب · وظل لمدة اثنى عشر عاما الرجل الذى يفكر لجيله فى مصر · وقد أتى لهم بالسريالية · الى مجتمع توحدت فيه الروحية بالمجتمع فى رباط محكم مثلما حدث بين ماركس ونيتشه · ومثل جوليا لاسيرسا بكافكا · وجاءت

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ ·

دار النشر التى أسسها والتى أطلق عليها اسم « حصة الرمل »
la part du sable وقد بدا صوته مسموعا وهو ينشر أعمال
هنرى ميشو وجان جرنييه وادمون اليابس وشعراء شباب فى مجلته
الجميلة «حصة الرمل» فى فرنسا ، وفى باريس التى كان يعود اليها بقدر
الامكان كل ربيع كان يشارك مجموعة أندريه بريتون ، دون أن يمس
استقلاليته البالغة الحساسية • ولعب دورا كبيرا فى اعادة نشر « مقاطعة
مدشنة » أكثر مانفستو أهمية فى تاريخ السريالية بعد الحرب • حدث ذلك
فى ليلة افتتاح معرض عام ١٩٤٧ • كما شارك أيضا فى « الفرقة الثالثة »
المجلة التى أسسها جان ماكيبه » (١) •

ومن الواضح أنه عند الكتابة عن حنين ، فان كلا من الكاتب العربى
والفرنسى قد نظر اليه من منظوره القومى • فسمير غريب قد اهتم بنشاط
جورج حنين فى مصر • أما بونفوا فقد كتب عن نشاطه فى الثقافة
الفرنسية • ومن الواضح انه بعد عام ١٩٤٧ زاد نشاط حنين فى الثقافة
الفرنسية ويقول بونفوا ان حنين قد اضطر الى أن يترك مصر كى يتوجه الى
اليونان • أما سمير غريب فيقول انه فى عام ١٩٥٣ غادر حنين فيلا
والديه فى روض الفرج ليقيم فى الزمالك مع زوجته وأصبح المحاور
الممتاز لكثير من الأدباء الذين يمرون بمصر من كتاب وصحفيين وأساتذة
وبخاصة المتخصصين فى الاسلام مثل جاك بيرك ولوى ماسينيون ، ويقول
الكسندريان ان جورج حنين كان لديه ميل للاعتقاد أن وجود الشرق يعتمد
على أهميته بالنسبة للغرب • وفى نفس الوقت ، كان يحذر قليلا من تقدير
المثقفين الفرنسيين المبالغ فيه للثقافة العربية • كما يقول جورج حنين
نفسه : « ان أوربا بائسة مرتين ، حاربت الشرق عندما كان يمثل حالة
سطوع • وتبحث عنه اليوم لأسباب عميقة فى حين أنه يمثل حالة
الانحطاط الأكثر قذارة » (٢) •

وقد نشر حنين فى تلك الفترة مجموعة من القصص القصيرة فى
مجموعة من القصائد النثرية تحت عنوان « العتبة الممنوعة » le seuil
interdit التى صدرت عام ١٩٥٦ • كما كتب مقالات فى صحيفة
« لوبروجريه اجيبسيان » •

وقد وجد حنين أن عليه أن يغادر مصر بعد أن جاء ضابط من الجيش
ليجلس على مكتبه فى شركة السجائر التى كان يعمل فيها • فسافر الى

---

(١) G. Henin Yves Bonnefoy. le quinzain litteraire, 1977.

(٢) مصدر سابق ، ص ٣٦ •

اليونان عام ١٩٦٠ . ثم توجه الى ايطاليا وطن امه . ثم قرر أن يعيش فى باريس حيث وجد فرصة عمـل ومسكنا للاقامة .

ويقول سمير غريب ان حنين قد انتقل بين بلاد عديدة بعد ذلك ، ومن المعروف انه عمل مع زوجته فى هيئة تحرير مجلة « جون أفريك » الأسبوعية وهى مجلة تصدر باللغة الفرنسية وتهتم بثقافة العالم الثالث . وقد عمل فيها عدة سنوات ونقل ادارتها من المغرب الى باريس . وفى السنوات الأخيرة من حياة الشاعر شهد حنين نشاطا مكثفا على المستوى الثقافى فكتب مقدمة كتاب يحمل اسم « مختارات الأدب العربى المعاصر » وشارك فى « الموسوعة السياسية الصغيرة » التى اشرف على اصدارها الشـاعر جان لاكوتير . وفى ١٨ يوليو عام ١٩٧٣ رحـل عن عالمنا . وتم دفنـه بالقاهرة بناء على وصيته .

وفى كتابه عن « السرياليـة فى مصر » اهتـم سـمير غريب كثيرا بالجانب التشكيلى لجورج حنين . وبآرائه السياسية وكتاباته النثرية فى الفنون والسياسة ولم يهتم به كمبدع وشاعر الا من خلال نشره لخمس قصائد سبقت ترجمتها الى اللغة العربية . بينما اهتم الشعراء الذين كتبوا عنه كمبدع خاصة ايف بونفوا فى مجلة كانزان السابق الاشـارة اليها . وقد اخترنا هنا بعض أشعاره ، والحقيقة أن دواوين حنين كانت قليلة رغم عطائه الشعرى . ففى عام ١٩٤٨ نشر ديوانه « حصة الرمل » . ولـه ديوان آخر تحت عنوان « العلامة الأكثر ظلاما » ، وبشكل عام فان جورج حنين كان يرى أن الشعر هو « الاداة وكمرادف لتحد أكبر : تحد للقوى الكونية ، لملكة الموت ، وللأسرار التى تحاصر حياتنا الدنيوية .. الشاعر يتعلم الضحك فى المقابر ، يستخدم الجنون كسلاح ضـد فقر العقـل ، يستخدم الحلم كسلاح ضد املاق الواقع . من سوفوكليس حتى لرتريامون مرورا بشكسبير ، تنتشر السلسلة الشعرية على ايقاع عاطفى دائما اكثر تشجيعا ، فى مناخ حاد حيث تتجابه وتمتزج كل التعبيرات المكنة عن الرغبة ، حيث تبدع الرغبة من أجل الضرورة الوحيدة للانطباق عليها . لأشياء جديدة جذابة ، تخترع الرغبة من أجل الحاجة الوحيدة للاحتراق فى لهيبها . لبؤرة تمغنط جديدة » (١) .

ومن هذا الشعر نقدم جـزءا من قصيدة « مبدأ هوية » المنشور فى ديوانه « العلامة الأكثر ظلاما » .

---

(١) G. Henine, Condition de la poseie, Don quichotte 8-3-1949, p. 2.

راح يجمع اسمه
كمياه آسنة
تسقط فيها الحجارة
صانعة نقطة حولها دوائر
اتجه نحو السماوات
خاشعا وصابرا
يتأمل ليل السماوات
غير مضح بصورته الخاصة
التى تشبهه باليأس

اثناء دخوله المدينة
انغلقت الأبواب مثل
بين الرجل والمرأة
لا توجد أكثر من فتحة
من نصل توليدى

وجحود الندم
سيحل في العالم
بيد ساكنة

ويهمنا هنا ان نقدم نموذجا آخر من شعره ، حيث نقتطف من قصيدته « أنتحار مؤقت » كما جاءت ترجمتها فى كتاب « السريالية فى مصر » (١) :

شفاه نادرة مختصرة
تتفتح لتدع جاسوسا يمر
وهو متخف فى فرقة عازفة

---

(١) السريالية فى مصر · سمير غريب · هيئة الكتاب · القاهرة ـ ١٩٨٦ ، ص ٢٠٢ ·

لا أعرف أبدا أى لحن
ينشبث بطـــرق من اللهيب
والآن تقف النافذة
بغير عمد ولا ضوء
شـــقيقة الشـــفاه المـرة
فمنها تدخل الاعصاب الهائجة
متلبســـة ايادى بشرية
تقطع رؤوس النساء
بعد الحب
على مائدة ما
شيء يبتسم خلال نعاسات العــالم
انه وجــه
لا يلمح ابدا
ولا ينسى ابــدا
وجه يؤرجحه
ثلج الذكرى الذى لا ينتهى

قائمة بأسم الأدباء المصريين الذين كتبوا
باللغــة الفرنســية

ـ يعقوب ، يوسف (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) :

ولد فى مصر القديمة · يرجح أنه أرمنى · أغلب أبناء أسرة يعقوب الذين عادوا مع الحملة الفرنسية الى فرنسا ، علمه أبوه اللغة العــربية · سافر الى باريس عام ١٨٢٠ ونشر ديوانه الأول فى « مدح مصر » الذى جذب اليه الانتباه عام ١٨٢٠ ، كما اشترك فى اعداد وضع « وصف مصر » · ارتبط بصداقة مع الشيخ الطهطاوى ثم عين مدرسا للغة العربيــة فى (مدرسة الشباب للغات) اهتم بالشعر · سافر وأسرته الى مارسيليا وهناك مات ·

من أعماله : محاضرات تاريخية عن مصر (١٨٢٣) ·· قصص رومانسية عربية فجــة (١٨٢٧) ·· مزيج الآداب الشرقيــة والفرنســية (١٨٣٧) ·

ارتين ، يعقوب (١٨٤٢ ـ ١٩١٩) :

من أصــل أرمنى · كان ابوه وزيرا للخارجيــة فى حكومــة محمد على · درس فى تركيا وفرنسا · واهتم بالقانون والأدب واللغة · عندما عاد الى مصر عام ١٨٧٠ عينه الخديو اسماعيل سكرتيرا أوربيــا للقصر · وبعد ذلك عين وزيرا مرتين · واهتم بالأدب المصرى · من أهم أعماله : « الممتلكات العقارية فى مصر » (١٨٨٣) و « حكايات شعبية » (١٩٨٥) · و « ١٦ حدوته » (١٩٠٣) و « حكايات شعبية سودانية » (١٩٠٩) ·

اكساوس ، سيلين (١٩٠٣) :

ولدت فى الاسكندرية من ابوين لبنانيين عاشا طويلا فى مصر · درست فى المدارس الفرنسية · كان اخوها رينيه ناسو شاعرا موهوبا · اختلطت بالأوســاط الأدبية · وساهمت فى الحــركة الأدبيــة النــاطقة بالفرنسية فى مصر ولبنــان من أعمالها « الكنيستان » ١٩٤٣ و « السلم العاجى » ١٩٥٢ · وتاريخ وفاتهــا غير معروف ·

أركاش ، جان (١٩٠٢ ـ ١٩٦١) :

ولدت فى الاسكندرية لأب من أصل سورى لبنانى وأم فرنسية • درست فى « ليسيه فرانسيه » ثم درست الأدب والموسيقا • تزوجت عام ١٩٤٥ وانتقلت لتعيش فى القاهرة • وماتت عام ١٩٦١ ودفنت فى الاسكندرية • لم تنشر أعمالا أدبية • لكن أغلب ما تركته مسودات : الاسكندرية فى مرآتى (١٩٣١) ، الفرقة العالية (١٩٣٣) ، أمير الصليب (١٩٣٧) شفا أبو سليمان (١٩٥٣) نشر فى دار المعارف •

أسعد ، فوزية (١٩٢٩)

ولدت فى القاهرة لأبوين صعيديين • درست فى مدرسة « مير دى ديو » ورحلت الى فرنسا • وحصلت على دكتوراه فى الفلسفة وعادت لتدرس الأدب فى جامعة عين شمس • تزوجت من د• فخرى أسعد الذى سافر الى جنيف • من أعمالها « المصرية » رواية (١٩٧٥) وكتاب باللغة العربية عن سورن كيركجارد (١٩٦٥)، ورواية «أطفال وقطط» ١٩٨٧ و « البيت الكبير فى الأقصر» ١٩٩٢ •

بارم ، راءول (١٩٠٤) :

من أصل ملطى • ولد فى بورسعيد • ودرس فى القاهرة فى المدرسة الألمانية • ثم فى مدارس الجزويت بالاسكندرية • نشر أشعاره الأولى وهو فى سن الرابعة عشرة بالقاهرة فى الصحف • ثم نشر أول ديوان له عام ١٩٢٦ • اشترك فى تأسيس ست مجلات أدبية باللغة الفرنسية • عمل فى الترجمة • ومدرسا • وعمل فى احدى دور النشر • ترك مصر عام ١٩٥٦ الى ايطاليا • من دواوينه : «الملاحق الأولى» ديوان شعر ١٩٢٦ ، « مفتون بشفتيك » ١٩٢٨ ، « ارفع الستار » ١٩٢٩ ، «جناح قديم » ١٩٣٠ ، « الصلاة الراقصة » ١٩٦٩ ، «مجداف من ذهب» ١٩٧١ •

باوم ، روبير (١٩٠١) :

ولد فى تونس • ثم تركت الأسرة تونس الى القاهرة عام ١٩٠٤ • عمل مفتشا فى المدارس الاسرائيلية ثم رحل الى فرنسا ليؤدى الخدمة العسكرية عام ١٩٢٢ • وعاد الى مصر ليعمل بالصحافة فى الاسكندرية ثم فى القاهرة • روائى وكاتب قصة قصيرة وشاعر • وكاتب مسرحى • من أعماله « أشياء صغيرة » (١٩٢٥) و « الظلال على الحائط » ١٩٢٨ ، « خمسة مشاعل » ١٩٣٠ ، « قصص أطفال للكبار » ١٩٤٢ ، « قوس قزح » ديوان شعر عام ١٩٥١ ، « علامة عربية » رواية ١٩٥٥ •

بونجان ، فرانسوا (١٨٨٤ ــ ١٩٦٣) :

ولد فى ليون • ودرس فى المدينة • وهنــاك كتب روايته الأولى « قصة اثنتى عشرة ساعة » كتب لها المقدمة رومان رولان • وصل عام ١٩١٩ الى مصر وأقام بها ٥ ســنوات وشغف بها كثيرا • وصادق مثقفا مصريا هو أحمد نصيف الذى فتح له مجــال الاسلام والأزهر • عــاد الى فرنسا وطلب العودة الى مصر • وعاش سنوات بين المغــرب وسوريا والجــزائر ومات فى الرباط • من أعماله : «منصور ، قصة طفل مصرى» ١٩٢٤ ، منصور فى الأزهر » ١٩٢٧ ، « الشيخ عبده المصرى » ١٩٢٩ ، « الثقة فى فتاة ليل » ١٩٣٩ •

جــون سيانيفو ، آجوســتينو (١٨٧٦ ــ ١٩٥٦) :

ولد فى القاهرة من أصل ايطالى • كان أبوه يعمل لمصلحة الخديو اسماعيل • عاش فى الاسكندرية واهتم بالشعر • وكان ينتقل بين مصر وأوربا • وكانت أشعاره عن مصر • وفى أواخر حيــاته اســتقر فى ايطاليا • وهناك ذاع صيته كشاعر • اهتم به أندريه جيد • من أهم أعماله : « أشــعار » ١٩٢٥ ، « الحضور الخفى » باللغة الايطاليــة ومنشور بالاسكندرية عام ١٨٩٩ ، « اليد » ١٩٠٠ ، باللغة الايطالية •

جوزيوفيشى ، ألبير (١٨٩٢ ــ ١٩٣٢) :

ولد فى اسطانبول ودرس بها • أبوه من أصل رومانى • جــاء الى مصر عام ١٩٠٤ مع أسرته • تعرف على الكاتب ألبير عدس واهتم بالأدب • كتب الرواية • سافر الى مصر ثم قرر الاقامة بها • ترك عند موته الكثير من الروايات غير المنشورة • من أعماله : « بالتعاون مــع ألبير عدس » و « القلقون » عام ١٩١٤ ، و «كتاب جحا» ١٩١٩ ، و «سعيد الجميل » ١٩٢٨ •

حنين ، جورج (١٩١٤ ــ ١٩٧٣) :

(انظــر الفصــل الثــانى) •

فراوى ، جيهــان (١٨٦١ ــ ١٩٤٠) :

اسمها الحقيقى جان بوش داليس ، جاءت مع زوجها سليم فهمى الى الاسكندرية عام ١٨٧٩ ثم عاشا فى طنطا • درست اللغــة العــربية بناء على نصيحة زوجها • وأرسلت مقــالات الى الصــحف المحــلية والأجنبية • وحققت رواياتها الاجتماعية والتاريخيــة التي تصف مصر

الحديثة والقديمة نجاحا وشهرة . عادت الى فرنسا عام ١٩١٩ بعد وفاة زوجها . وظلت تهتم بالأدب . وكان أصدقاؤها من المصريين هناك . من أعمالها : «الأمير مراد» ١٨٩٨ ، «فى قلب الحريم» ١٩١٠ ، «وردة الفيوم» ١٩١٢ . « الغريب » ١٩٢١ . و « المصرى الخالد » ١٩٢١ ، و « مصير الآنسة عيسى الغريب » ١٩٣٥ .

ديبو ، سيريل :

اسم مستعار لشخص يدعى محمد صديق . ابن صديق المفتش وزير مالية الخديو اسماعيل . درس فى سويسرا . عاد الى مصر وصادق العديد من الأدباء الفرنسيين مثل أندريه جيد ، وجان كوكتو ، عاش فى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى . واستقر فى الاسكندرية . من أعماله : « البكاشين » مسرحية عام ١٩٤٤ . « دون جوان أو النرجس » ١٩٤٤ .

راسم ، أحمد (١٨٩٥ ـ ١٩٥٨) :

(راجع الفصل الثانى) .

سكوفى ، أليك (١٨٨٦ ـ ١٩٣٢) :

شاعر يونانى يكتب بالفرنسية عاش فى الاسكندرية . وكان يعيش بين مصر وفرنسا . اشترك فى تحرير مجلة « الأسبوع المصرى » من أعماله : « الأشعار الأولى » ١٩٠٩ ، « أغنيات الشعارات » ١٩٠٩ . « الاغراءات » ١٩٢٤ . « الكمان الآلى » ١٩٣٢ . و « سفينة بالهلب » رواية ١٩٣٢ .

شديد ، أندريه (١٩٢٨) :

(انظر الفصل الثانى) .

شميل ، ماريوس (١٨٦٣ ـ ١٩٥٦) :

ولد فى ليفربول بانجلترا . ودرس فى بيروت . وجاء الى مصر ليعمل فى البنوك والصناعة . ابن أمين شميل الذى كان شاعرا . اهتم مثل أبيه بالشعر . وراح يكتب مقالات فى النقد الفنى فى الصحف المحلية . وفى عام ١٩٢٠ أسس « مجلة العالم المصرى » . وحصل على جائزة واصف غالى . يعتبر واحدا من طليعيى الأدب المكتوب بالفرنسية فى مصر . من أعماله : « الطوفان الكبير » مسرحية ترجمت الى العربية عام ١٩١٨ ، و « ضد النسيان » ١٩٢٠ .

عدس ألبير (١٨٩٣ ـ ١٩٢١) :

ولد فى القـاهرة ودرس الحقـوق فى باريس · ارتبـط عطـاؤه بجويبزفيش وفى نهاية الحرب العالمية قرر أن يستقر فى فرنسا · وبعد وفاته عملت زوجته على نشر أغلب أعماله · من أعماله : «ملك عار» عام ١٩٢٢ ، و « عدس عند برجسون » عام ١٩٤٩ ·

العقـاد ، توفيق (١٨٨٩ ـ ١٩٥٦) :

ولد فى الاسكندرية ودرس فى المدارس الثانوية الفرنسية ثم فى القدس · تنقل بين الاسكندرية وفرنسا وحصل على الدكتوراه وعمل فى البنوك والصـحافة والمسرح · أقـام فى لبنـان فترة ثم عـاد الى الإسكندرية · من أعماله « ليلة فى وادى الملوك » ١٩٢٥ و « ليلة عند سفح الهرم » ١٩٢٧ ، « وليلة تحت قوس النصر » ١٩٣٧ ·

غالى ، واصف بطرس (١٩٧٨ ـ ١٩٥٨) :

ولد فى القـاهرة ودرس فى المدارس الفرنسـية ثم سـافر الى فرنسا · عند عودته اهتم بالسياسة ، من أهم أعماله « حديقـة الزهور » عام ١٩١٣ ، « اللآلىء اللامعة » ١٩٢٣ ·

فوشيه زنانيرى ، نيللى (١٨٩٧) :

ولدت فى الاسكندرية من أسرة سورية تقيم فى مصر منذ القرن السابع عشر · درست فى دمشق وأقامت فى مصر · اهتمت بالمسرح ودرسته لمدة عامين فى فرنسـا · تزوجت من الصحفى جورج فوشيه · وبعد زواجها الثـانى افتتحت مكتبـة · ثم سـافرت الى سويسرا · من أعمالها : دواوين « حديقة الصباح » عام ١٩٢٠ ، « الواحة العاطفية » ١٩٢٩ ، « فى الظهيرة تحت الشمس الحارقة » ١٩٣٦ ، و « الشـمس الغائمة » ١٩٧٤ ·

قصيرى ، ألبير (١٩١٣) :

(انظـر الفصـل الثـانى) ·

القلوب ، قوت (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨) :

(انظـر الفصـل الثـانى) ·

موسكاتيللى ، جان (١٩٠٥ ـ ١٩٥٦) :

من أصل ايطالى · ولد فى القاهرة ودرس فى المدارس الألمانية ثم اهتم بالصحافة والحركة الأدبية · عمل فى « الأسبوع المصرى » ، تولى رئاسة تحرير مجلة « ايماج » كتب الشعر · ظل فى مصر حتى وفاته · من أعماله : « هذيان » ١٩٢٦ ، « أنا بدونك » ١٩٢٧ ، « أشعار ملقاة فوق مقعد » ١٩٢٩ ، « أشعار » ١٩٣٥ ، « رباعيات للحب » ١٩٥٢ ، « زنجية فى معسكر الاعتقال » ١٩٥٣ ، و « أشعار فى مصر » ١٩٥٥ ·

منصور ، جويس (١٩٢٨ ـ ١٩٨٦) :

(انظر ص ١٨٩) ·

نية سليمة (١٨٧٨ ـ ١٩٠٨) :

اسمها الحقيقى أوجينى برن · تزوجت من رشدى باشا وعاشت فى القاهرة · واختلطت بالمصريين ، من أصل تركى · راسلت أهلها الذين يعيشون فى فرنسا · اهتمت بالحركة النسائية · وقد تتلمذت هدى شعراوى على يديها · من أعمالها : « حريم ومسلمون » ١٩٠٨ ·

اشارة : تم الرجوع فى هذه المعلومات الى كتاب جان جاك لوتى ، وأضيف اليها كل ما توصلنا اليه من خلال البحث ·

الفصــل الثــالث

الأدب اللبنانى المكتوب باللغــة الفرنسية

تختلف ملامح الاحتلال الفرنسى لكل من سوريا ولبنـان عن نفس الملامح فى المغرب العربى · فلا شك أن تجربة الفرنسة فى بلاد المغرب العربى قد تأصلت لدرجة أنه كان على هذه البلاد أن تستهلك عشرات السنوات من أجل ان يتم تعريب أوجه الحياة فى شمال المغـرب ·

ورغم ذلك ، فان ظهور أدباء يكتبـــون باللغة الفرنسية قد بدأ فى لبنـان قبل المغرب بسنوات طويلة · فاذا كان الجيل الأول من الكتاب الجزائريين العرب ، الذين يكتبون بالفرنسية قد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، فان مسرحية « عنتر » التى كتبها شـكرى غانم عـام ١٩١٠ قد سبقت مثيلتها فى المغرب العربى وأيضا فى مصر · وقد حققت هذه المسرحية نجـاحا عند عرضـها فى فرنسـا على مسرح الأوديون فى هذه السنوات · وقد تناولت المسرحية صورة من كفـاح العرب ضد الاحتلال العثمانى · وقد سـاعد هذا النجـاح الكثير من اللبنانيين الشباب فى تلك الأونة أن يمشوا فى نفس الطريق مثل ميشيل شيحة وهكتور كلات وشارل فورم ·

ورغم ذلك ، فان التجربة لم تتضح الا بعـد انتهـاء الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهرت مجموعة من الشعراء الرومانسيين · وظهر روائيون من أمثال فرج الله حايك الذى بدأ ينشر رواياته الرومانسية منذ عـام ١٩٤٠ خاصة ثلاثيته المعروفة تحت اسم (أبناء الأرض) أو (أبو نصيف) عام ١٩٤٨ · ثم « ابنة الله » عام ١٩٤٩ · و « سجن الوحدة » عام ١٩٥١ · ويقـــول كتـــاب les litteratures francophones depuis 1945 ان حايك أشـبه بالفنان التشكيلى حيث راح يرسم القرى اللبنانية · وسكب مشاعره الفياضة فى أدبه ، عن الممنوعات · وعاداتها وتقاليدها · وقد ظهر عنف الحرب الأهلية اللبنانية فى رواية « يوميات آن » عام ١٩٤٧ من تأليف أوريس شحاده · كما كتبت عنها باللغة الفرنسية أيضا ايفلين

العقاد فى رواية « المستأصلة » حيث نرى كيف تتأثر النسوة بأفكار الآباء التسلطية ، كما أن الكاتبة اندريه شديد كتبت روايتين عن الحــرب الأهلية اللبنانية « منزل بلا جذور » عام ١٩٨٥ و « الطفل المتنامى » عام ١٩٨٩ ٠

ومن بين الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا بالفرنسية هنــاك ديوان « وصف الانسان » لفؤاد جابرييل نايف ٠ ثم هناك الشاعرة نادية توينى صاحبة ديوان « أشعار للتاريخ » عام ١٩٧٢ ٠ ومروان الحص ٠ وفينوس خورى غاتا ٠ صاحبة ديوان « أراض دامية » عام ١٩٦٨ ٠ ولهــا أعمال شعرية أخرى مثل « جنوب الصمت » ١٩٧٥ و « الظلال وصرخاتهــا » ١٩٨٠ ٠ ثم رواية « ضجة من أجل قمر ميت » عام ١٩٦٣ ٠ أما الشاعر والناقد صلاح ستيتة فقد قدم : « النحلة الميتة » عام ١٩٧٢ ، و « المياه الباردة المحفوظة » عام ١٩٧٣ ٠ ثم « أشــعار » عام ١٩٧٨ ٠

ومن بين هذه النماذج الأدبية المتميزة اخترنا نموذجين من جيلين مختلفين الأول شاعر وكاتب مسرحى هو جورج شحادة والثانى روائى معاصر لا يزال فى حالة عطاء وقد أبدى تميزا منذ أعماله الأولى وهــو أسين معــلوف ٠

جــورج شــحادة : (١٩٥٧ ـ ١٩٨٩)

يعتبر شحادة أبرز أديب لبنانى يكتب بالفرنسية ٠ وتجىء أهميته أيضا ليس فقط فى أنه كاتب مسرحى متميز ٠ ولكن لأنه انضم الى السرياليين المصريين ٠ وشــحادة مولود فى عــام ١٩٠٧ فى مدينــة الاسكندرية لأبوين لبنانيين يتكلمان اللغة الفرنسية ٠ وقد عادت الأسرة الى لبنان ٠ وهناك درس الحقوق ٠ ثم عين سكرتيرا عاما فى مدرسة الآداب العليا فى بيروت ٠ ثم كلف بالاهتمام بالشئون الفنيــة لــدى البعثة الثقافية الفرنسية فى لبنان ٠

ورغم أن شحادة قد بدأ يكتب قصائده الأولى فى الثلاثينات ٠ ورغم فرص الحياة أمامه فى باريس ، الا أنه ظل مقيما فى بيروت طيــلة عمره حتى اندلعت الحــرب الأهلية اللبنانية فلم يجد بدا من الانتقال الى العاصمة الفرنسية هناك حتى وافاه الأجل ٠

نشر شحاده مجموعته الشعرية الأولى « شرارة » فى عام ١٩٢٨ وقد بدت فيها نبرته السريالية بكل وضوح ٠ كمــا نشر فى تلك الفترة روايته الوحيدة « رود وجون سين » ٠ وفى عــام ١٩٣٨ استلم رســالة

من الشاعر بول ايلوار الذى كان يسكن مدينة انتيب فى جنوب فرنسا الذى كتب له رأيه عن ديوانه «شرارة» . فقال : « أشعارك تحمل لى نظرة عميقة . لحنا متناغما كدت أنساه . كتابك يترك فى أثرا ايجابيا لا يمكنك تصوره » (١) .

وهكذا صدرت ثلاثية اشعاره التى تحمل عنوان « اشعار ١ » عام ١٩٣٨ . ثم « أشعار ٢ » عام ١٩٤٨ . و « اشعار ٣ » عام ١٩٤٩ . بعدها انقطع عن كتابة الشعر وتفرغ للمسرح . وكتب مسرحيات طليعية فى الزمن الذى راح فيه كتاب المسرح الطليعى يقدمون أحسن ما لديهم أمثال يوجين يونسكو واداموف وبيكيت وأرتو الذين حاولوا تحطيم اللغة للوصول الى شكل جديد . الا أنه خلافا لمسارهم راح جورج شحادة يهتم بالمسرح الشعرى فقدم اعمالا مثل « مستر بوبل » عام ١٩٥١ . و « سهرة الأمثال » عام ١٩٥٤ . و « قصة فاسكو » . و « زهرات البنفسج » عام ١٩٦٠ . وفى العالم التالى نشر مسرحية « الرحلة » ثم جاءت مسرحيته الشهيرة « مهاجر برسيبان » عام ١٩٦٥ . وفى عام ١٩٧٣ نشر ديوانه « الثوب هو الأمير » . وفى تلك الفترة انشغل باعداد كتابه عن « مختارات البيت الشعرى الواحد » وفى عام ١٩٨٥ عاد مرة أخرى الى الشعر فنشر ديوانه « سباح الحب الواحد » .

تميز جورج شحادة كشاعر باهتمامه بالعبارة والكلمة والمعنى . وقد كان يمتلك سرد الكلمة ، مثلما كتب الطاهر بن جلون ، فهو يستخرج كلماته من منبع نقى بعيد . ومن حديقة داخلية . بها المراعى ، وتتولد فيها الصورة مارة بالمياه العذبة قبل أن تصبح ظلا . لقد خلطت كتاباته الأولى بين تامل الحياة اليومية والرؤى الخيالية والسريالية وعلى سبيل المثال ما جاء فى السطور الأولى من قصيدته تلميذ السلطان :

« فى الربيع . هنا حذاء أزرق يطير من قرية لأخرى . وتنهق الحمير فى بيت اختى وتبدو النافورات هادئة . آه يا ملح بلادى » (٢) .

كما أن اهتمامه بالكلمة يتجلى فى احاطته اياها بالتكريم والاحترام ليس من خلال ثباتها وجمودها بل من خلال اعتبارها وجودا مستقلا

---

(١) رحيل جورج شحاده . بيار ابى صعب . اليوم السابع ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر .

قابلا بذاته للحياة والوجود بخلاف الأشعار التى كانت سائدة فى عصره ٤ وبين أبناء جيله الذين أرادوا ارجاع الكلمة الى وجودها الحسى ، وفى مواجهة رأى شحادة للكلمة وجودا مستقلا ، وكأنه من خلالها يعوض عن كل الخسارات والخيبيات ، وبهذا المعنى يمكن ربط اللغة لديه بالمنفى ٠٠

وقد اعتبر جورج شحاده ان علاقته باللغة تنطوى على نوع من التحدى ٠ وفى الأخص لأنها لغة غريبة عنه ٠ لقد حاول بسبب عدم تمكنه من اللغة العربية أن يصل عبر هذا التحدى من اللغة الجديدة الى نوع من الزمان يعوض له مرة خسارته للغة العربية ومرات أخرى خسارته لفقده للأرض التى سافر بعيدا عنها أثناء الحرب الأهلية :

أمى كانت تضىء المصابيح لتبعد عنا الظلال

كانت تعد عمرنا على الأصابع عندما تدق دقاتها ساعة الحائط

أمى كانت تتكلم عن الوقت الذى يمر وهى تبتسم

والرجال الذين تبعوها كانوا ملائكة

الآن ٠ وقد مات القمر أين انت أيتها الأفكار الرائعة

الحب ذو الأسنان من الملبس

الطفولة التى كنت تبكين على خدودى

انها ولادة المساء

النضارة الأولى للاعشاش

تحلم الصبية قليلا

وهى تتلفت حولها

الآن بات الليل يكرر نفسه الى مالا نهاية

والأشجار تختبىء فى أوراقها

والصمت يصل من بعيد

عين ماء بكت كانت تروى

عندما ستغادر وطن المصابيح

ذات ليلة كطفل البرد

رب ملاك

سيأتيك بالمداد

كى تدون ما تراه :

المياه الحية التى تصبح ظلا

الشجرة التى تضل طريقها ٠

كطفل من ذلك الزمان تضيع صرخته

فى حديقــة التفـــاح الأبيض
حين القمر يغطى كل شىء بحبه
أرى مجــددا فى مرآة مهجورة
ذكريات بعكازات بيضــاء
ولا أعود أعرف من منا هى أو أنا
يرثى لحــاله أكثر
لفرط شراسة السنين
أيها القمر الخفيف يا مرآة الغياب
(سباح الحب الواحد ـ ١٩٨٥) (١) ٠

وقد لاحظ نقــاد شحاده أن له تعبيرات محددة يستعملها فى قصائده منها « الوردة » و « الياسمين » و « النساء » و « المياه » و « العيون » و « النظرات » و « القمر » وأيضا « الموت » ٠ فقد كان يؤمن أن الشـــعر يومض فى مركز الكون : « أنا مصنوع من أجل المطلق » ، ففى قصيدة من مجموعة مقاطع نشرها فى « الأشعــار » تحت عنوان « وفى الأحــلام يحكى طفـل قصــــة حياته » يقـــول :

فى كنيسة القرية وعند اقتراب الليــل
يخرج المصلون من مخابئهم
ويغير طفل ملاك الجدار
ويكسب البخــور غطــاءه للظـل
والسحرة النائمين
الزنابق الى أقدامهم المعتمــــة
ويعيدا فى سماء من شموع
تسافر الايقونات
قبل النوم
تتكلم اخوات أمى بصوت خفيض
جاء كل شىء من الظل
الوجوه والأصوات
حتى الســاعة فى القفص
التى لم تعد تغنى

(١) هذه القصيدة من ترجمة بيار أبى صعب كما نشرت فى اليوم السابع ـ ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤١ ٠

يومض عود ثقاب
كي يمكن أن نرى
خالاتي المنحنيات
في نقطة من ذهب

في كل نافذة تبدو السماء والمراعي
في هذا المنزل المنسي
هناك أيضا الطيور القادمة بالأخبار
وفي الأحلام طفل يحكي قصة حياته
حب
حيث ليالي الشتاء
والمصباح الرقيق في ثوبه الزجاجي
والساعة التي تدق وترن
وينام الطفل وحده

أما عن مسرح جورج شحاده فقد انزلق الفنان « من الشعر الى المسرح بطبيعة مدهشة ، يبقى شاعرا قبل كل شيء · ويبقى للخضرة نفسها ، والشفافية والنضارة عينهما ، ولتداعي الصور والحالات ، الدور الأساسي في بناء مسرحياته · ولعل ما يميزه أساسا عن كتاب المسرح الطليعي الآخرين الذين غالبا ما يرد اسمه الى جانبهم (وهم مثله كتاب فرانكفون من أصل غير فرنسي) أعني يونسكو وبيكيت خاصة وربما أحيانا أدموف وأرابال · فاذا كان شحاده أبحر مثل هؤلاء في الاتجاه المعاكس للمسرح الذهني والفلسفي وارثه الثقيل ، فقد وصل الى جزيرة له وحده · دون الآخرين · تمثل فيها الحساسية الشعرية ، على مستوى اللغة طبعا · انما أيضا على مستوى المناخات والأجواء · الأهمية الأولى · ذات يوم انتفض شحاده على أثر سؤال أحد الصحفيين له : أمسرح شعري هذا الذي تكتب ؟ « بل مسرح يفسح لفوضى الكلمات والصور · بدأت كل مسرحياتي · ودون نموذج مسبق ، تاركا المبادرة للغة لقد ساعدني المسرح على الخروج من القصيدة · لكن في العمق انها المسألة نفسها » (١) ·

وحسبما جاء في جريدة لوموند (٢) فان المسرحيات السبع التي كتبها شحادة قد أهملت عن غير عمد · كان عليه أن ينتظر اثنى عشر عاما كي تمثل مسرحية « مستر بوبل » على مسرح الهوشيت بباريس : في

---

(١) رحيل جورج شحادة · بيار أبي صعب · ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤١ ·
(٢) Le Monde 8-3-1985, p. 15.

عام ١٩٥١ اقترح عليه الممثل والمخرج جان لوى بارو أن كانت لديه الشجاعة أن يقدم مسرحه ·· وقد عرضت مسرحياته من وقت لآخر ·

وفى نفس الجريدة يقول شحادة : عندما أسمع عبارة « مسرح شعرى » أرغب فى الهرب · لا · فالمسرح يترك لكاتبه أن يرتب الكلمات والصور · انظر الى ماتيو · انه يرسم أمام عينى · وأحيانا أخشى لو أصبحت فنانا تشكيليا · ولكن خلف اللوحة هناك نقاط من الألوان · هناك نظام وتقارب ·

« أبدأ مسرحياتى دائما دون أن يكون هناك هيكل خاص · وأترك المبادرة للغة · لقد ساعدنى المسرح على الخروج من الشعر · ولكن فى الأعماق فالشعر قد فعل نفس الشىء · اننى أسمع نقاط الماء تتساقط محدثة : توك · توك · توك · راسين يثيرنى الملل · وأفضل كورنى · انه يأتى بكلمات غامضة وساحرة » ·

يهمنا الاشارة أن جورج شحادة لم يكن يفكر قط فى مغادرة لبنان الا بعد اندلاع الحرب الأهلية · ويقول فى جريدة لوموند ــ ٢٠ يناير ١٩٨٩ ــ انه فوجىء يوما بأحد رجال الميليشيا يشهر بندقيته امامه وراح يسأله لماذا يطلق عليه الناس اسم «العصفور» · وقد كان شحادة معروفا بهذا الاسم نتيجة لرقة جسمه والذى كان نحيلا كالعصفور · يومها ضحك شحادة بمرارة وقرر ان يغادر البلاد · وقد نجح الصحفى اللبنانى « ميرزا عكار » فى أن يجعله يكتب عن تجربته فى الاقامة بباريس التى مات فيها فى السابع عشر من يناير ١٩٨٩ ، فقال : « أحس كأننى فى بيتى وأنا فى باريس · ولكن أوضاع الوطن تجعلنى أحس أننى فى منفى : كم أشتاق الى الجبال اللبنانية ! » ·

الجدير بالذكر أن جورج شحادة كان أول من حصل على جائزة الأدب الفرانكفونى فى عام ١٩٨٦ · وهى جائزة مستحدثة تبلغ قيمتها ٤٠٠ ألف فرنك فرنسى وتمنحها الأكاديمية الفرنسية كل عام · وقد حصل عليها ايضا الروائى المصرى البير قصيرى ·

أمين معلوف (١٩٤٩) :

أغلب الروائيين العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية مهمومون بواقعهم الذى عاشوا فيه · وكيف تحرك هذا الواقع بين أيديهم ولم يستطعوا الامساك به · فحاولوا التعبير عنه ورصده فى أدبهم · حدث هذا بشكل واضح عند أدباء المغرب العربى · وفى مصر عند ألبير قصيرى وأندريه شديد · أما الكاتب اللبنانى أمين معلوف فقد ترك هذا

الواقع بصراعاته الدامية · وانتقل الى التاريخ العربى القديم يصور عالما ورديا حالما فى روايات من طراز « ليون الأفريقى » و « سمرقند » · بل راح الى ما هو أبعد من ذلك فى روايته الثالثة « حدائق النور » · وعليه فان لمعلوف مذاقا مختلفا · فهو من الكتاب الذين اهتموا بكتابة الرواية التى تتحدث عن التراث العربى · كما أنه استمد أحداث هذه الروايات من تراث تاريخى · فأبطال رواياته مثل حسن الوزان ، وعمر الخيام والقديس مانى عاشوا بالفعل فى التاريخ ·

اذن ، جاءت أهمية معلوف فى أنه شغف بالتاريخ العربى القديم · وتوغل فيه ، وقرأ الكثير منه ، حيث راح يفتش فى حناياه ، ويجلو صدأ النسيان عن شخصيات وأحداث كاد التاريخ أن يمحوها · ثم هو ينسخ حول هذه الشخصيات والأحداث روايات متخيلة · واذا كان كتاب معلوف الأول الذى نشره عام ١٩٨٣ « الحروب الصليبية كما رآها العرب » · عبارة عن دراسة تحليلية موثقة لموضوع مهم فى تاريخ العرب ، فان الكاتب قد راح يصوغ هذا التاريخ فى اطار روائى جذاب من خلال رواياته المنشورة ·

وأمين معلوف من مواليد بيروت فى عام ١٩٤٩ من عائلة ذات أصل يونانى · وهو ابن لصحفى كبير · لذا وجد نفسه قريبا من والده وهو طفل · وعمل فى الصحافة على مدى اثنى عشر عاما · حيث تولى ادارة جريدة « النهار » · لغته الأولى هى العربية ثم الانجليزية التى أتقنها وهو فى الثامنة · ثم سافر الى فرنسا ليعمل رئيسا لتحرير مجلة « جون آفريك » · اذن فهو يجيد الكتابة باللغة العربية · ولكنه عندما اختار أن يكتب ابداعا وجد أن اللغة الفرنسية هى الأفضل لعدة أسباب « تضافرت عوامل عديدة لتدفعنى الى اختيار اللغة الفرنسية : فأنا أقيم فى فرنسا منذ سنوات عديدة · ومن الطبيعى أن أتوجه الى المجتمع الذى أعيش وسطه ، كما أن حركة الكتاب فى العالم العربى معاقة بعوامل متعددة : توزيعية · وسياسية · واقتصادية ، مما يجعل من المتعذر على الكاتب أن يحيا من أعماله · فأنا أعيش هنا من حقوقى كمؤلف واستطيع الانصراف الى الكتابة دون أن يعوقنى عائق ، ولا مشكلة لدى مع اللغة العربية · فأنا أكتب بها وأحبها · وأتمنى حقا أن يتمكن الكاتب أن يعمل فيها بجدية وأن يتمتع بوضعية كاتب فعلى » ·

« هناك عامل آخر أكثر التصاقا بالكتابة ، فقد رأيت أنه من الأفضل لى ، كعربى ، أن أعبر عن موضوعاتى بلغة أجنبية ، فأنا أفرض على الفرنسية بعض الكلمات والمعانى العربية · وهذا ما يمنحها « نكهة »

أخرى اذا صح التعبير لو كتب بالعربية ـ لبدا ذلك سطحيا الى حد ما ·
أخيرا أعتقد أن على الكاتب أن يكتب باللغــة التى يرى انهـا تعبر عن افكاره ، سواء كانت العربية أو الفرنسية أو البرتغاليــة أو الروســية · هنــاك اعتبـار قومى أو وطنى للغة تتحول فيه اللغة الى رمز وشعار · وأنا لا يهمنى هذا الاعتبار · ليست اللغــة فى النهاية أكثر من حامل للأفكار ووســيلة تعبيرية » (١) ·

فى كتابه الأول ـ وهو غير روائى ـ المعنون « الحروب الصليبية كما رآها العرب » يحاول أمين معلوف أن يقدم وجهة نظر الى الغــرب أهملت الآن ·· ليست هذه المحاولة الأولى من نوعها · وينقســم الكتاب الى قسمين يعرض الأول واقع الوطن العربى فى زمن الحروب الصليبية ، حيث احتدمت الخلافات حول الخلافة والسلطة · ثم هنــاك قسم يعرض أشهر بانوراما لزحف الصليبيين وانتصــارهم برغم العقـبات الى ان استطاعوا أن يؤسسوا مملكة القدس والامارات · ورغم ان الكتاب اقرب الى البحث الا أن معلوف قد صاغه بشــكل أقرب الى السرد · ويقول ميخائيل خورى ان « أول ما يلفت النظر فى هذا العرض الروائى الذى لا يخلو من التشويق ، أن القارىء لابد ان يتأثر بما ارتكبه الصــليبيون من أعمــال وحشية وجرائم فى انطاكية والقــدس ، وفى أماكن أخرى استطاعوا الدخول اليها · كذلك يتأثر القــارىء ، بما هنالك من انقســام وتفتت فى الوطن العربى والاسلامى · ليعجب بعد ذلك بعرض عملية جمع الجهود بين الموصل ودمشق · للتصدى لهذه الغزوات · ثم الجمع بين جهود دمشق والقــاهرة بقيادة صلاح الدين لتوجيه الضربة القاضية الى الصليبيين · بحيث عادت بهذه الفتوح جميع بلاد الســاحل برمتها الى المسلمين » (٢) ·

أما القسم الثانى من الكتاب فهو يتناول تأثير الحــروب الصليبية على الشرق والوطن العربى ، وكذلك أثرها على الغربيين انفســهم ولــو بشكل هامشى ، وقد بين معلوف أن هذه الحرب كانت ذات تأثير ايجابى على الغرب ، أما تأثيرها على الشرق فكانت بالسلبية · ويطرح معلوف سؤالا هو : هل تبرر هذه الأحداث اللاحقة الدعوة الى اعتبــار الماضى فى خبر كان ؟ وهل يحقق ذلك اية غاية ايجابية للعرب ؟ أم أن الدعــوة يجب أن تكون الى حسن الافادة واعتماد المواجهة بشــكل مواز نحو الخطر ؟

---

(١) مجلة اليوم السابع ـ ٣ نوفمبر ١٩٨٦ ، ص ٣٧ ·

(٢) الحروب الصليبية كما رآها العرب · ميخائيل الخورى · مجلة الشاهد ، أكتوبر ١٩٩٠ ـ ص ١٠٠ ·

رأى أمين معلوف أن العــرب قد ابتلوا بعاهتين ، قياسا الى ما حققه الغربيون • فقد عجز مسئولو القيـادة العــربية عن بنـاء مؤسسات ثابتة ، فى حين نجح الغــربيون منذ وصــولهم الى الشرق فى خــلق وتكوين دول حقيقية • يتم فيها انتقال السلطة بشكل عام ، دون حدوث أى صدامات • أما كل انتقــال فى الحــكم لدى العــرب فكان يشكل تهديدا بقيــام حرب أهلية •

أما النقطة الثانية فهى أن الغربيين قد أقبلوا على المدرســة العربية فى جميع الميادين سواء فى بلاد الشام أو فى أسـبانيا أو فى صقلية •• وكان من غير الممكن الاستغناء عما تعلموه منها لتوسعهم وانتشارهم فيما بعد • فتراث الحضارة الاغريقية ما كان لينتقل الى أوربا الغربية الا عن طريق العرب مترجمين ومكملين • بيد أنه لابد من لفت نظر الكاتب الى أن هذا الانتقال كان قد بدأ قبل بدء الحروب الصليبية بقرن على الأقل »(١)•

فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » تناول الكاتب سيرة احــدى الشخصيات العربية التى عاشت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين • أو بالضبط بين عامى ١٤٨٣ و ١٥٥٤ • وهــو ، كما يرى المؤلف ، الشخصية العربية الوحيدة التى شاركت مشـاركة فعـالة فى عصر النهضة الأوربى • كما كان أول من وضع كتـــابا ذا أهميــة عن أفريقيا • وليون الأفريقى هــو الرحالة ، والعــالم العربى حسن الوزان • وتدور أحداث الرواية على لسانه فيقــول : « أنا حسن بن الوزان • جان ليون دى مدسيس • ختنت على يد الحــلاق • وعمــدت على يد « بابا » يسموننى اليوم بالأفريقى • الا أننى لست من أفريقيا • ولا من أوربا • ولا من « حاضرة » العرب • يسموننى كذلك بالغرناطى ، والفارسى ، والزياتى • ولكنى لم آت من أى بلاد • ولا من أية مدينــة • أو قبيلة • أنا ابن الطريق ، وطنى قافلة • وحياتى مسيرة بعيدة عن الواقع بعــدا تاما » • ولا شك أن هنــاك تقـــاربا من ناحية عــلاقة الوزان بالأشــياء مع الكاتب أو فلنقل أغلب الأدباء العرب الذين يبدعون بالفرنســية • فحسن حائر بين الأماكن والهــويات وهو رجل يحب الانتقال والترحال يبحث لنفسه عن أرض يستقر عليها • انه رجــل له نفس أهمية ابن بطوطة فى التــاريخ العــربى • عشق الأماكن وعرف البشر ، وتذوق أطعمة عديدة فى بيوت تمت استضافته فيها وكانت مصر احدى المحطات التى نزل فيها • فخصص لزيارته لها فصلا من يوميــاته التى دونت على يد أمين معلوف : « عندما وصلت الى القاهرة ، يا بنى ، كانت هذه المدينــة قد أضحت ومنذ عهود طويلة ، حاضرة امبراطورية زاهرة • وقصراً

---

(١) المرجع السابق •

للخليفة · أما حين تركتها فقد باتت مجـرد عاصمة لاقليم · ولا ريب أنه لن يقيض لها أبدا أن تستعيد مجدها التليد » ·

« لقد شاء الله ، عز وجل ، أن أكون شـاهدا على ذلك السقوط ، وأن أرى المآسى التى عرفتها · فقد كنت لا أزال أمخر عبـاب النيل · احلم بالمغـامرات · وبالثروات الجزلة حين حل النذير بالبـلاد · غير انى لـم أكن قد تعلمت بعد كيف أحترم القول · وكيف أفسـد المراسيل » (١) ·

وقد اعترف معلوف فى حديثه الى مجلة اليوم السابع ــ ٣ نوفمبر ١٩٨٦ ــ أنه قد اكتشف شخصية حسـن الوزان قبـل فتـرة قريبة · حين كان يقـرأ حول الرحالة العربى ابن بطوطة · فراح يبحث عن مصادر لمعرفة الرجل · واكتشف أنه عاش حياة شائقة ومثيرة · و« بدلا من الاكتفـاء بالوقائع التاريخية « المحققة » كان يجدر بى أن أحـاول اعادة تصور الفترة · نعم · ان ما وصلنا من أخبار حسن الوزان لهـو ضئيل جدا ومتناثر فى مقدمة هذا الكتـاب أو ذاك · وفى المناسـبات القليلة التى يلمح فيها هو نفسـه الى سيرته ، ولادته ، وأشـعاره فى عمله · هذا هو ما دفعنى الى الحسم لصالح الرواية بالاضافة الى رغبتى الشخصية لمحاولة الكتابة الروائية · لا يمكن بالطبع اعتبـار الكتاب رواية محضا · ومع ذلك فجانب التخيل فيها كبير جداً » ·

ومن المعروف أن هذه الرواية قد تركت صـدى على الصـعيدين الفرنسى والعربى · ففى فرنسـا ، وفى عام نشرها ، ظلت على قائمـة مبيعات الروايات لعدة أسابيع طويلة · واستطاعت بذلك أن تتفوق على روايات كتبها أدباء لهـم أسماؤهم الرنانة سواء من فرنسـا ، أو من الرواية المترجمة مثل رواية « الامبراطورة » لبول أوسوليترز المعـروف أن رواياته تبيع أرقاما خيالية ، ثم جـان دارسو عضـو الأكاديميـة الفرنسية · والطبعة الحديثة من « جان لافاوريت » لمارسيل بانيول وطبعة حديثة أخرى من رواية « خارج أفريقيـا » للكاتبة الدنماركيـة كارين بلكسن ، علما بأن فيلمين كبيرين كانا يعـرضان مأخوذين عن الروايتين الأخيرتين فى نفس الفترة فى أوروبا ·

وقد اهتم النقـاد العرب بمتابعة هذه الرواية ، سواء قبل ترجمتها الى اللغة العربية ، عام ١٩٩٠ أو بعد ذلك · فقد نشرت مجـلة الهـلال مقـالين الأول كتبته سيزا قاسم قالت فيـه انه « من الواضح أن اختيار مثل هذه الحقبة التى تضع حضارتين وجها لوجه بكل دوافعها وقيمها ،

---

(١) Leon l'africain, A. Maalouf. Lattes, Paris, 1986.

وعلى مختلف المستويات كان أحد أسباب نجاح الرواية · وقد أتاحت الرواية للكاتب حرية أن يجمع التاريخ والتخيل · فالأسد الأفريقى شخصية من تلك الشخصيات « الجسور » ، التى تربط بين الحضارات · وكيف يمكن الربط بين الساحات الجغرافية والحضارية المختلفة الا من خلال شخصية ترحل ـ وتقيم ـ وتنتقل من مكان الى آخر حاملة معها اللقاح مثل الطيور المهاجرة ؟ هذا ما فطن اليه أمين معلوف ووظفه فى روايته التى قسمها الى كتب مستقلة حمل كل منها اسم مدينة : كتاب غرناطة ـ كتاب فاس ـ كتاب القاهرة ـ كتاب روما ··

« المكان بطبيعته ساكن لا يتحرك الا من خلال انتقال البشر ، ولا يتغير الا بفعل الزمن ، والزمن فى هذه الرواية زمن تاريخى وليس زمنا « طبيعيا » اذ أن التغير الذى اجتاح المكان كان تغيرا جذريا حول وجه المنطقة والتاريخ : سقوط الأندلس · ونشوء دولة الملوك الكاثوليك بصعود فردينان وايزابيللا ، انشقاق الكنيسة البروتستنتية وصعود نجم شارل الخامس كارلوس كينتوس ·· تفتت المغرب العربى وقيام العثمانيين » (١) ·

أما أمين العيوطى فقد كتب فى عدد آخر من نفس المجلة ، مستندا الى الطبعة العربية من الرواية أن : « الخلفية الجغرافية والتاريخية لا تدخل بنية الرواية كمجرد خلفية للزينة ·· بل ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربة الشتات والتمزق والغربة التى يعيشها حسن بن محمد الوزان والتى يعيشها كثير من العرب اليوم فى شتاتهم المعاصر ·

« ومع هذا النسيج الثرى يجدل معلوف خيوط المعاصرة · فوسط هذه الفوضى الشاملة لابد أن يرفع قطاع الطرق والمتآمرون والمغامرون · هناك الزروالى اللص · قاطع الطريق · القاتل الذى اكتنز ثروة خلال ربع قرن من السلب والنهب · والذى يتآمر مع شيخ المجذوبين ليلقى بأخت حسن فى حى المجذوبين حين ترفض الأسرة زواجه منها » (٢) ·

ويقول العيوطى ان واقعية الشخصية قد ارتبطت بواقعية الأسلوب فالوزان نفسه ، يعكس ظروف عصره وأحواله والقيم التى كان ذلك العصر يعيش بها · فالرواية فى نهاية الأمر تهدف الى تصوير موضوعى لعالم محدد ·

ومن أعماق التاريخ العربى والاسلامى اختار أمين معلوف شخصية عمر الخيام (١٠٤٨ ـ ١١٣١ م) ليكتب عنه رواية لا تقل جاذبية وأهمية

---

(١) ليون الأفريقى ، د· سيزا قاسم · مجلة الهلال ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٨٠ ·

(٢) أمين معلوف ، د· أمين العيوطى ـ الهلال ـ القاهرة ، سبتمبر ١٩٩١ ·

عن الرواية الأولى • ان لم تكن قد زادت • وهى رواية « سمرقند » •
ومن المعروف أن الخيام شخصية ذات جاذبية خاصة تثير شهية المبدعين للكتابة عنها • فقد عاش حياة خاصة مثيرة • وكتب شعرا بليغا يعكس فلسفة الشاعر فيما يتعلق بعلاقته بالوجود والكون • وقد جاءت لمعلوف فكرة الكتابة عن عمر الخيام وهو يقرأ رواية « مذكرات أدريان » للكاتبة البلجيكية مرجريت يورسنار (١٩٠٣ ـ ١٩٨٧) • وخاصة العبارة التى تقول فيها الكاتبة : « هناك فقط وجه تاريخى واحد يغرينى بنفس الالحاح الذى يغرينى به وجه أدريان • انه عمر الخيام • الشاعر والفلكى » •

اذن ، ففى حياة عمر الخيام ما يصنع رواية مثيرة يمكنها ، من خلال كاتب مثل أمين معلوف ، أن تحقق كل هذا النجاح الذى حققته رواية « سمرقند » ، فقد كان الخيام رجلا شغوفا بالرحيل عبر الأماكن والأزمنة مثلما فعل حسن الوزان • فارتحل الى بلاد الشرق المجاورة لفارس • من سمرقند الى أصفهان واسطنبول وتبعا لطبيعة الرحيل • فقد عرف الخيام أثناء رحلاته السرمدية الكثير من الشخصيات المهمة • وأيضا من بسطاء الناس • فاقترب منهم •• ورغم كل هذه الشخصيات العديدة • فان أقرب الناس اليه كان هو حسن الصباح • الرجل الذى وقف ضد السلطة ومعها : « جعلت القسم الأول من الرواية يتمحور حول ثلاث شخصيات مثلت وجوها مختلفة فى ذلك التاريخ : نظام الملك ، رجل دولة من طراز رفيع ، ومفكر سياسى • انه رجل حكم امبراطورية • ودون نظراته فى الحكم • كان مصلحا • وفى بعض الأحيان ذا جبروت • وقد صنعت هذه الأشياء من حسن الصباح ثائرا من خلال مفهوم دينى » (١)

لقد كان حسن قائدا أسس أهم منظمة عسكرية عرفها التاريخ الاسلامى كما يرى ابن معلوف •

لقد دار صراع بين نظام الملك وبين حسن الصباح • صراع أدى عمليا ، الى تدمير الامبراطورية السلجوقية • امبراطورية ملك شاه ، التى كانت تمتد عبر آلاف الأميال • من الصين شرقا وحتى حدود البحر المتوسط غربا •

وتدور أحداث الرواية ، بقسميها ، على لسان شخص أمريكى من أصل عربى اختار لنفسه أسماء عديدة لكنه يفضل أن يناديه الآخرون

---

(٢) الشاعر والحاكم • حوار ابراهيم العريس • اليوم السابع • ٤ ابريل ١٩٨٨ ص ٣٧ •

بـ « عمر » أى بنفس اسم الخيام · وهو يندمج داخل الشاعر من خلال عبوره الأثيرى نحو التاريخ · فيتحدث فى القسم الأول عن الخيام وعن أسراره وصداقاته · أما فى القسم الثانى فيتكلم عن علاقته بالمخطوط الذى به أدق أسرار الخيام ·

وتنتمى شخصية الرواية الى القرن التاسع عشر · وان كان قد عاش بضع سنوات من القرن العشرين · ويقول انه سافر الى باريس كى يتعرف على الشيخ جمال الدين الأفغانى وهو فى المنفى · وانه حدثه عن رغبته فى البحث عن مخطوط مهم يتعلق بـ « عمر الخيام » · لذا ، فقد سافر الى بلاد فارس · واشترك هناك فى الأحداث السياسية التى شهدتها فارس فى تلك الآونة · وهى أحداث أشبه بما يحدث الآن فى ايران ، ووسط مواقف ساخنة يتعرف على أميرة فارسية حسناء تخبره أن لديها نسخة نادرة من مخطوط حول الشاعر عمر الخيام ، ويحس الاثنان أن مصيرهما قد ارتبط بصاحب الرباعيات · فيتزوجان · ويسافران معا الى أوربا فوق احدى السفن الضخمة · حدث ذلك فى عام ١٩١٢ · وفى احدى الليالى المظلمة تحدث الاميرة شيرين زوجها عن مخاوفها الكامنة · فيحاول أن يسرى عنها · ويقرأ عليها بعضا من رباعيات الخيام · ولكن البحر بدأ غاضبا فاشتد ساعده على السفينة المعروفة فى التاريخ باسم « تيتانيك » وتنقلب السفينة وتغوص فى أعماق البحر حاملة معها الكثير من الأسرار ومخطوط عمر الخيام وحياته وتموت الزوجة فى هذا الحادث · ولكن الله ينقذ عمر الذى يحاول أن يحكى كل ما دار فى سمرقند أيام عمر الخيام ·

ويقول معلوف فى تعليق له حول مزج الحاضر بالماضى فى هذه الرواية: « لم أحاول عمدا أن أقحم الحاضر فى أحداث الماضى · طبعا لم يغب عن بالى أن هناك تشابها وتلاقيا بين الماضى والحاضر · لكننى بروايتى لأحداث الماضى حاولت أن أفهم تلك الأحداث من الداخل وأفهم شخصياتها · أيضا من الداخل · قد يجد البعض ، وقد أجد أنا شبها متعدد الجوانب ، بين ضحية نظام الملك ، وشاه ايران الراحل · لكن الشبه محدود بين حسن الصباح ، الثائر الاسماعيلى ، وبين الذين يقودون « حركات ذات قناع « دينى » ·· يكفى أن حسن الصباح ثار · أولا ، على معتقدات جاهلة أى معتقدات الشيعة الاثنى عشرية · وبالتالى لا يمكن أن تكون هناك مقارنة كلية بينه وبين شخصيات عاشت فى بلاد فارس · المرحلة التى باتت فيها الشيعة الاثنى عشرية المذهب المهيمن · هناك شبه ، لكنه محدود للغاية · لكنى لن أفاجأ ازاء مقارنات سيوردها البعض · بيد أن الحقيقة هى أكثر تعقيدا بكثير مما تبدو للوهلة الأولى ·

حتى لو كان بامكان المرء أن يستفيد من دروس الماضى لابد له من رؤية الماضى كما كان ، ومن تفادى ادخاله طرفا فى صراعات الحاضر » (١) ٠

اذا كان التاريخ الاسلامى قد بهر معلوف بصفة خاصة ٠ فهو ، كما يبدو من اهتماماته ، مبهور بتاريخ الشرق الأوسط والمنطقة بصفة عامة ٠

ولعل معلوف لم يود أن يأسر نفسه فى مرحلة بعينها ٠ وقد بدا ذلك واضحا فى رواياته التالية ٠ ففى روايته « حدائق النور » يتحدث عن نبى ، غير سماوى ، يدعى مانى عاش فى القرن الثالث الميلادى ٠ وقد أقض هذا الرجل مضاجع رجال الكنيسة فى عصره بأفكاره الجريئة ٠ فقد قامت دعوته على أساس « دين الجمال » ٠ وهذا الرجل أيضا مدفون فى التاريخ ، وكان على المؤلف أن يخرجه من مقبرته كى يعيد اليه الحياة فى روايته ٠ ويطلق عليه أحيانا اسم « المسكين مانى » ، انه رجل قادم من بلاد بابل كى يصرخ صرخة تنطلق الى كل أرجاء المعمورة ٠ وقد انطلق صداه فى حياته من الصين وحتى الجزائر وظل معروفا لأكثر من ألف عام ، ثم بدأت أستار النسيان تسدل عليه ٠ وتقول مجلة لوبوان (٢) ان مانى قد خرج من جعبة عمر الخيام رغم الفارق الزمنى بين الاثنين ٠ فقد تولد مانى من الظل ٠ وبدا كأنه جاء من عالم الاسلام وكأنه يرد على الأسئلة الأكثر عمقا التى يرددها البشر ٠ لقد عاش مانى عمرا قصيرا ٠ فمات وهو فى السابعة والعشرين من العمر ٠ وكان ضحية لصراعات دينية اندلعت بين رجال الدين المسيحى ٠ ولا شك أن مثل هذا الموت فى تلك السن المبكرة بذلك الأسلوب قد يثير أسئلة حول أساليب الناس فى ممارسة دياناتهم فى منطقة الشرق الأوسط ٠٠ لقد أراد مانى أن يوحد كل هذه الأديان وان يصبح البشر تحت لواء دينى واحد ٠ من بوذيين وكونفوشيين ويهود ومسيحيين ٠ عماد هذا الدين هو البساطة ٠ لقد رأى مانى ان الانسان هو صورة العالم مطبوعة ٠ وهو يمشى فى درب النور والظلام ٠ وعليه أن يختار ٠ ولا شك أن مصيره مرتبط بسلوكه ٠ فهو اما الى طريق النور او الى طريق الظلام ٠

ويرى مانى أن الوجود الانسانى قد أصبح مميزا بمواجهة مع القوى الكونية ٠ ولذا فان على الانسان أن يتحلى بالحب ويمارس الصلاة ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

(٢) Maalouf et son prophèt, Le Point 18-3-1991, p. 48.

ويتتبع معلوف سيرة الحياة القصيرة التى عاشها مانى منذ ولادته ولقاءه الأول مع المجموعة الدينية المعمدانية · ثم رسالته الكونية · وقد عاش مانى طفولته وصباه فى واحة مليئة بالنخيـل · وكان يسـمع هاتفا ان عليه أن يرحل فى المستقبل · وفى سن الرابعة والعشرين أصبح له تلاميذ من بينهم والد مانى الذى أرسله هذا الأخير فى مهمة الى أحد البلاد · وقد توجه مانى نفسه الى الهند · ولم يتوقف عن بث دعواه · وكان ينادى تلاميذه أن يذهبوا الى الميدان · وقد التقى فى رحلاته بالكثير من البشر والناس ·

وكماهوملاحظ ، فان مانى صورة مشابهة لحسن الوزان وعمـر الخيام · فهو وان لم يرحل من أجل الرحيل مثلما فعل الوزان · الا انه عاش تجربة الرحلة · والالتقاء بالناس · وقد كان الامبراطور فاليرين معجبا به كثيرا لكن بعد أن مات طرده ابن الامبراطور بهرام من البلاط · ثم تم القبض عليه وظل فى السجن ستة وعشرين يوما ولم تتحمـل روحه التى اعتادت الانطلاق السجن ، فأسلم روحه صـباح اليوم الثانى من مارس عام ٢٧٤ م ·

وقد أجرت مجلة « لوبوان » حديثا مع الكاتب بمناسبة صـدور روايته قال فيه : ان مانى كان يرى أن أصل العـالم ينقسـم الى قسـمين منفصلين · عالم النور وعالم الظلام · وذات يوم حدث صدام هائل بين هذين العالمين فاختلط النور بالظلام بألف طريقة مختلفة · وهكذا تولدت الكائنات من انسان وحيوان وطبيعة · وأجسام غير مرئية · لقد تولد هذا العـالم كله ممزوجا من النور والظلمة معـا · وكان يطالب أن يعمل كل منا على سيادة النور على الظلام · وقد راح رجال الدين يتعاملون مع مانى على أنه هرطقى ·

ويقول معلوف (١) : ان مانى قد مس منطقة المحرمات الدينيـة والسلطات · كما أن افكاره تقوم على مبدأ الصفوة · فالصفوة تشغل مكانة مهمة فى المجتمع · وتأثيرها المعنوى يؤخذ دائما بعين الاعتبار · لذا أخذ الصراع بين مانى ورجال السلطة شكلا حـادا ·· ففى ذلك العصر كان يحكم العـالم أربع امبراطوريات : امبراطورية أكسـوم (الحبشة) والصـين ، وروما ، وفارس ·· التى كانت قريبـة من المنطقة العربية · وفى فارس كان شهبور هو أقوى الحكام فى تلك الحقبة · وهو رجل مصاب بهوس لدرجة أنه يمكنه أن ينافس نفسه · وكان يرى أن الامبراطورية الرومانية تشكل عليه خطورة ملحوظة · وفى عهد شهبور

---

(١) المصدر السابق ·

ظهر رجلان كبيران تعارضا فيما بينهما · انهما الساحر الأكبر كردير وماني · وكان الساحر هذا يسعى لبناء كنيسة حقيقية · ذات طابع رسمي · أما ماني فقد كان ينادي بأن تتوحد الأديان الثلاثة الكبرى في تلك الآونة · فقد كانت البوذية سائدة في الهند وشرق آسيا · ثم المسيحية واليهودية · وقد كاد شهبور أن يمتثل لماني · الا أن « كردير » وقف له بالمرصاد · واضطر ماني أن يخضع للضغوط التي يواجهها ·

وفي نفس الحديث عقد معلوف مقارنة بين القرن الثالث والقرن العشرين فقال ان القرن الثالث عرف صراعات الامبراطوريات · وصراعات اقتصادية وسياسية ومشاكل روحية · ودينية · وبعد اعدام ماني بعشرة أعوام أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية في روما · وأحس الناس أن حيواتهم لم تعد كافية بالقدر المطلوب ·· فراحوا يبحثون عن شيء آخر » ·

في عام ١٩٩٢ نشر الكاتب رواية تحت عنوان « القرن الأول بعد بياتريس » وهي تنتمي الى الخيال العلمي · وكأنه قد نفض يديه ، ولو مؤقتا ، من التاريخ كي يتجه نحو المستقبل · فيحكي لنا قصة غريبة ، تبدو واقعية وكأنها تمس كلا منا ، وتقوم الفكرة على انه طالما أن العلم قد استطاع معرفة نوع الجنين قبل ميلاده · فهل يمكن ذات يوم معرفة عادات وسمات ومستقبل هذا الطفل ؟· وهل يمكن أن نتحكم في الأجنة القادمة حتى يصبح العالم كله بلا نساء · ويمتلىء فقط بالرجال ؟ : « منذ عشر سنوات انتابتني فكرة عن عالم بلا نساء · فلاشك ان علم الوراثة سيتقدم بشكل خيالي · كما أن الروحانية ستتخلف في كل أنحاء العالم » ·

وفي الرواية يصبح من المفضل أن يولد الغلمان عن البنات · في البداية لا أحد يصدق الأمر حتى الراوية نفسه المشغول بالسعادة التي حلت عليه · انه يحب صحفية تدعى كلارنس وهبته بنتا · فيمارس عليها كل مشاعر الأبوة التي كان ينشدها « ولدت بياتريس في الليلة الأخيرة من أغسطس · قبل موعدها بقليل مثلما كانت تفعل وهي تذهب الى المدرسة » · وبعد ميلاد بياتريس تقوم مشاكل سكانية · وتطرح أسئلة حول علاقة مولد كلارنس بما حدث · يظهر شعب جديد لديه الخيار للانتحار · لقد أصبحت النساء عملة نادرة · لذا يتم اخفاؤهن عن الأعين ويتم بيعهن بأغلى الأثمان · وفي بلاد الجنوب تتفجر ثورة من أجل اضطراب الأحوال السكانية · وتندلع الصراعات وينقسم العالم · ويسود الحزن · ويمر قرن · انه القرن الأول على ميلاد بياتريس انه

قرن مظلم • ويشعر الراوية أن عليه أن ينسحب مع أسرته الى مخبأ من الرخام كى يجد فيه الأمان •

ويقول معلوف : « لا شك أننى بالغ الحساسية • كرجل شرقى لهذه اللعنة القديمة التى تثقل على النساء • فى بلادنا ، مثلما فى الكثير من بلاد العالم الثالث ، فان مولد فتاة يستدعى الحداد فى باكستان • وفى الصين يقومون بقتلها » (١) •

★★★

كلمات قليلة تعمد الكاتب اللبنانى أمين معلوف أن يضعها فى صفحة منفردة فى نهاية روايته « صخرة طانيوس » التى فازت بجائزة جونكور فى الأدب لعام ١٩٩٣ •• وهى أن وقائع هذا الكتاب مأخوذة تقريبا بالكامل من حادثة حقيقية • حين قتل البطريرك فى القرن التاسع عشر على يدى أبوكشيش معلوف الذى هرب الى قبرص مع ابنه • أما بقية الشخصيات فمن وحى الخيال •

ومثل هذه العبارة تعتبر مدخلا أساسيا الى عالم أمين معلوف • فالكاتب يعود من جديد الى أحداث حقيقية دارت فى الماضى ، ويستلهم من وثائقها روايته • ثم يضيف من خيالاته ما يتناسب مع روح روايته • حدث هذا حين رجع الى ما كتبه الرحالة حسن الوزان فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » ثم الى جزء من سيرة الشاعر عمر الخيام فى رواية « سمرقند » وأيضا الى ما توفر لديه عن حياة النبى مانى فى روايته « حدائق النور » وأخيرا فى « صخرة طانيوس » •

لقد سعى معلوف دوما أن يضفر الخيال بالواقع • وأن يجعل الأول فى خدمة الثانى ، بمحاولة لاحيائه بأى ثمن • فبدت هذه الضفيرة ذات شكل خاص بالكاتب ، مهما اختلف الزمان أو المكان الذى تدور فيه أحداث كل رواياته •

وفى روايته ، سعى معلوف من ناحيته الى اتباع نفس الشكل الأدبى الذى سبق أن استخدمه فى رواية « سمرقند » حيث أتى فى البداية الى العصر الحديث ، مشيرا أن هناك وثائق يمكن أن تلقى الضوء على المرحلة الزمنية التى يود التوغل فيها • فاذا كان هناك باحث أمريكى من أصل عربى قد تمكن من العثور على أوراق تخص الخيام ، فان المؤلف – كراوية – فى « صخرة طانيوس » يؤكد عثوره على وثائق مهمة تلقى الضوء أيضا على جريمة القتل التى حدثت فى الرواية عام ١٨٣٨ باحدى

---

(١) L'homme qui aimait les femmes, le Nouvel observatur, 23-4-1992, p. 131.

الضيعات اللبنانية والتى انتهت باختفاء شخص يسمى « طانيوس » أطلق اسمه فيما بعد على الصخرة الكبرى المجاورة لضيعتـه « كفر عبيدة » ·

يقول الكاتب فى الصفحات الأولى من روايته عن هذه الصخرة : « تأملت كثيرا هذه الكتلة من الحجارة دون أن أجـرؤ على الاقتراب منها · ليس بسبب الخـوف من الخطر ، فالصـخرة بالنسـبة لقريتنا هى لعبتنا المفضلة خاصة بالنسبة للاطفال · فقد اعتدت أن أرى الصغار الذين يكبروننى يتسلقونها · وفيما بعد لم يكن لدينـا أية لعبـة ســوى أن تلتصق جلودنا بالصخرة ونحن لا نستطيع مقاومة سحرها » ·

والكاتب الذى سوف يحكى لنا ما شهدته هذه الصخرة طوال ردح من الزمن ، عليه فى البداية أن يعرفنا على أبطال هـذه الحكاية الرئيسيين قبل أن يروى لنا وقائعها ، وقبل أن يحدثنا بالتفصـيل عن الضيعة كمكان أشبه بحصن فى حشاياه كل هؤلاء البشر ، الذين اذا ابتعدوا عنها أحسوا كأنهم السمك الذى خرج من الماء ·

فأبطال هذه الحكاية هم : لمياء · والشيخ فرنسيس · ثم جريوس · والمرأة هى محور الأحداث هنا ، ويتسمى الفصل الأول كله باسـمها · « اغواء لميـاء » · انها تحمل جمالها كأنه عقيدتها · هى زوجة للقروى البسيط جريوس · وتعمل فى منزل عمدة الضيعة وشيخها فرانسيس · وفى هذا البيت طلب جريوس يدها للزواج · فهى بمثـابة ابنة لفرانسيس الرجل الذى يمزج بين الطيبة والقسوة · وبين متناقضات عديدة مثل أغلب الذين يمتلكون مقدرات الأماكن والبشر ·

والشيخ فرانسيس هـو سيد الضـيعة ، ولذا فكم يتمنى الجميـع الحصول على مضائه ، وحيث يردد أحدهم مثلا : «لقد رأيت الشيخ اليوم» بشىء من الغمز · بينما يردد الآخر : « اليوم قبلت يد الشيخ » كأنه حصل على رضاء الزمن · فهذه اليد كما يقول معلوف قد تأتى بالسعادة ، أو التعاسة لأبناء الضيعة · وهى من القوة بحيث انهـا تمثل مهابة خاصة لهؤلاء الذين ذاقوا قسوتها حتى انهـالت عليهم مصائبها · يجب أن يحترمه الآخرون · وأن يطلبوا حمايته · وربما أشياء أخرى خاصة النساء ·

تلك كانت ملامح عابرة عن الشخصيات الرئيسية التى ستكون ذات علاقة فيما بعد بالوليد طانيوس ابن لمياء · أما المكان فهو ضيعة غير موجودة على الخريطة اللبنانية تسمى « كفر عبيدة » ، ولكنهـا تمـزج بين سمات العديد من الضيعات فى ذلك العصر · انها واقعـة هنـاك فى

الجبال • تخضع للنظام الاقطاعى • حيث يملك الشيخ الكثير رغم أن النظام الادارى فى ذلك العصر سيفرض عليه حاكما وبطريرك • والناس فى هذا السهل المنخفض لا يتطلعون الى أعلى • فهم يرون أن العمدة لا يمكن أبدا تجاوزه • ولذا ، فان معلوف يفرد له عددا من الصفحات للحديث عن ما يتمتع به من سمات متناقضة •

أما الزوج جريوس ، فهو رجل قليل الكلام ، والابتسام • ولم تكن لمياء تطمح فى أن يكون لها زوج خلافه • رغم أنه يكبرها سنا ، بين الزوج وامرأته كانت هناك مسافة زمنية • فقد كانت فى ربيعها الخامس عشر ، أما هو فكان فى خريفه الثلاثينى • ومع ذلك فهى سعيدة • بل ان الكثير من نساء القرية يحسدنها على مكانتها • فهى ذات حظوة خاصة بالنسبة للشيخ الذى يناديها أمام الناس بـ « بنتى » • وهى حين تسمع هذا النداء تشعر بسعادة غامرة • ولكن يقال ان حدود هذه العلاقة قد اقتربت من مرحلة الخطر • لذا ، فعندما ولد «الصغير» طانيوس اثيرت الأقاويل عن هوية الأب الحقيقى : هل هو فرانسيس أم جريوس ؟ •

لقد ظل هذا الأمر الموضوع الرئيسى لأهل الضيعة ، رغم انهم يتكلمون أقل • انهم يأكلون ما يكفيهم ويتعاملون مع الشيخة زوجة فرانسيس بنوع من الازدراء ، عكس نظرتهم الى زوجها • وليست هناك اشارة من سكان القرية الى حقيقة أبوة مانيوس • ولكن الكاتب أشار الى ذلك تلميحا فى البداية • ثم ما لبث الأمر أن تأكد فيما بعد •

فليست لمياء مجرد خادمة فى البيت ، ولكنها عندما تدخل على الشيخ تقدم له الفاكهة ، تشاركه التقاط بعض الثمار رغم أنها أعلنت لزوجها ، خفية ، عن مخاوفها من الدخول الى الشيخ لأنه يطلب منها فى بعض الأحيان أشياء أخرى لا تلبث أن تتهرب من الحديث عنها ، حتى لا تثير شكوك زوجها •

وقد أشار المؤلف أن لمياء ظلت بعد زواجها من جريوس مسطحة البطن طوال عامين • وانها قد حملت بعد أن تناولت من ثمار تلك الفاكهة • ولذا ولد طانيوس فى يوم صيفى ولكنه ملبد بالغيوم • وقد احتار أبوه فى اختيار اسم له فكان « عباس » أولا ، ثم استقر المقام على طانيوس وهو اسم غريب بالنسبة للضيعة التى اعتادت أن تطلق أسماء أخرى لأبنائها •

وقد حاول معلوف أن يعطى العديد من التفسيرات للتسميات اللبنانية فاسم عباس كان تيمنا بعم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الذى يسمى باسمه اثنا عشر خليفة حكموا المنطقة العربية ردحا طويلا من الزمن · أما اسم فرانسيس فقد استمد من القديس فرانسوا داسيس الزاهد المعروف ·

وهناك فصل بأكمله حول الخلاف الذى دار الى أن استقر على اختيارهم اسم الوليد الجديد · ولكن المثير حقا هو ذلك الفضول الذى استبد باحدى النساء لمعرفة الاسم الحقيقى الذى على الوليد أن ينتمى اليه · هل هو الزوج جـــريوس ، أم الشيخ فرانسيس ؟ فذات يوم أتت زوجة القس الى بيت الرجل · يدور بينهما حوار مثير :

— آخر مرة ، طلبت يد « بونا » بطرس وأعطيتها لك · فماذا تريد هذه المرة ؟

— هذه المرة أريد يدك ، يا شيخ ·

ويرتبك الرجل ، ولكن المرأة ، التى هى أيضا شقيقة لمياء ، تطلب منه أن يعترف لها ، حتى وان كانت امرأة ، اذا كان هو الأب الحقيقى للوليد ، وبكل ثبات وثقة يردد : « اذا وددت أن تعرفى ·· فهذا الطفل ليس من صلبى » ، وهو يعلم تماما انه كاذب ·

ورغم أن الشيخ يكذب ، فانه يذهب الى بيت لحم من أجل اقامة مراسم الحج · أما جريوس الزوج ، فانه يتلقى التهانى وعليه أن يصدق جيدا ، داخل نفسه ، ان طانيوس ابنه · فهو اذا لم يصدق ذلك فسوف تتحول حياته الى جحيم ·

وينتقل الكاتب من الهم الخاص ، الى الهم العـــام ، فالبلاد فى تلك السنوات تعتبر طريق مرور للجيوش المصرية الى الشام ، والعاصمة العثمانية ، بينما يعم احساس بأن هناك نهضة قادمة · كأن لبنـــان تستعد لدخول العصر الحديث ·

والجدير بالذكر أن معلوف هنا قد اســتخدم ثلاثة مســتويات من الأزمنة ، فهو يعود من عـــام ١٩٣٨ الى ١٨٢١ حين ولد طانيوس · ثم هناك زمن المؤلف نفسه · الذى يروى من اطاره وقائع الرواية باعتبار أن أحداثها قد انتهت ، ولعل هذا يذكرنا بنفس الكيفية التى تناول بها الكاتب الكولمبى جابريل جارثيــا ماركيث روايتـــه « وقــائع موت معــلن عنه » فنحن ســلفا نعرف ما ستسفر عنه الأحــداث · لكن من أجل معرفة المزيد ، وحكى التفاصيل مثير دائما للمتعة ، يجب علينـــا أن نقـــرأ الرواية ·

وإذا كان المؤلف قد انتقل بين هذه الأزمنة ، بكل سهولة ، فانه فيما بعد يختار أن يتتبع طفولة طانيوس الذى ينتظر مصيرا قدريا مليئا بالمعاناة ، فهو مولود ومعه « ثأره » الخاص · تحوطه تلك الصخرة الرابضة فى التاريخ التى عليها أن تتسمى فيما بعد باسمه · وهناك أيضا أبوان : أحدهما حقيقى والآخر يحمل اسمه ·· ومجموعة من الأشخاص الذين سيلعبون دورا مؤثرا فى مصيره مثل البطريرك ، وهو رجل أشد قسوة وظلما من فرانسيس · وأيضا حاكم البلاد الذى يصدر الفرمانات الواجبة الطاعة ·

الجدير بالذكر أن هناك تقاربا واضحا بين بعض وقائع هذه الرواية ، ورواية ماركيث السابق الاشارة اليها · ليس فقط فى الصياغة الأدبية ، ولكن أيضا فى أن أحداث كلتا الروايتين مأخوذة عن وقائع حقيقية ذات علاقة بالمؤلف نفسه ·

وقد اختار معلوف أن يجرى بالسنوات ، حتى بلغ سن الصبا · فما أن أصبح فى الخامسة عشرة ، حتى انقلب فرانسيس فجأة على معاونه القديم « رافوز » بعد أن رفع حصة الضرائب « الميرى » فلم يكن أمام الرجل سوى الهروب · وما لبث الاقطاعى أن أصدر أمره بمنع دخوله الضيعة · ويشير المؤلف أن السبب الحقيقى لهذا الغضب والطرد ليس أبدا الضرائب ، وانما لأن الاقطاعى حاول أن يغرر بامرأته مثلما فعل مع لمياء · ولكنه تصدى له · وما لبث جريوس أن حصل على وظيفته · ولكن « رافوز » ما يلبث أن يعود ومعه شفاعة من نائب الحاكم المصرى للعفو عنه · ثم يلتقى بطانيوس الصغير ذات يوم فيحدثه أنه ليس مطلوبا منه أن يقبل يد الشيخ يوميا · مثلما يفعل أبوه · ولكن عليه أن يدرس ويتثقف · ويصبح بذلك أباه الروحى ·

ويقبل طانيوس على التعليم · ويعرف أن هناك فرقا بين ما يتلقاه من معرفة وبين ما يدور من حوله من عادات وتقاليد · ويزامله فى الدراسة « رعد » الابن الشرعى للشيخ فرانسيس · وتتوطد العلاقة بالبطريرك ، ويتردد الرجلان على بيت الحاكم العام للجبل ·

وفى الضيعة هناك شخص آخر يدخل فى خضم الأحداث يدعى « القس شتولتون » · والذى يروى فى مذكراته أنه فوجىء بأن السنوات تقدمت فجأة بطانيوس · وأنه رغم سنوات عمره الخمس عشرة فان بعض الشعيرات البيضاء قد بزغت فى رأسه : « تصورت أن هناك أسطورة فى هذا الركن من الجبل تتعلق بالشيب الذى يصيب الصغار · وبالفعل يحدث هناك شىء مرعب » ·

وشاع الأقاويل عن علاقة ما بين زوجة القس وبين « رعد » • وفى مجتمع صغير مغلق مثل هذا لا تلبث أن تتسرب الحكايات ، الحقيقى منها والمزيف ، فلا شىء يختبىء بما فيها حكاية بنوة طانيوس • فان قصة رعد تنتشر على ألسنة النساء ، وتعود الى الأذهان قصص الأب القديمة • ويغلق الصبى طانيوس على نفسه أبواب المكتبة من أجل الاستزادة من المعرفة ، ربما رفضا لهذا العالم ، وربما بحثا عن وسيلة أفضل لفهم الحياة • ثم يحس أن هناك مشاعر ما تنتاب المرء حين يرى فتاة جميلة ، مثل « أسماء » التى يحبها ذلك الحب الطفولى الجميل ،» ويحاول فى البداية أن يحفظ سره فى داخله • انها ابنة معلمه الكبير « رافوز » الذى يناديه دائما بـ « ابنى » • وهى لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد ، لكنها أيقظت فيه مشاعر رائعة مقدسة •

لكن هذا الحب النقى فى حياة طانيوس لا يلبث أن يختفى • ففى عام ١٨٣٨ ، تتعرض الضيعة لهزة أرضية عنيفة تصدع قصر فرانسيس الضخم ، والذى يعيش فيه أغلب أبطال الرواية • كما تتصدع المنازل القروية • وينتج عن ذلك سلسلة من المآسى • فبالاضافة الى الموت • هناك القحط • ويقرر الحاكم مضاعفة الضرائب • أما البطريرك فيحس أن عليه أن يمارس سلطاته لمصلحته الخاصة • انه رجل لا يهمه أن يكون هناك شرف ، بل أن تأتى اليه العوائد بأى ثمن ، وهو لا يكن للمشاعر النبيلة أى تقدير • حيث يسعى لتزويج « أسماء » بابن أخيه •

ويصاب طانيوس بألم عظيم ويهرب من حبه الى امرأة أخرى « لقد عرفت امرأة ، لم أكن اتكلم لغتها • ولم تكن تعرف لغتى • لكنها كانت تنتظرنى على السلم • وذات يوم طرقت بابها لأخبرها أن سفينة تنتظرنا من أجل الرحيل » •

ويرحل طانيوس بعد أن مات البطريرك صريعا برصاصة أصابته بين حاجبيه • كما يموت جريوس مقتولا • وتندلع حرب طائفية فى الضيعة ، بالغة القسوة مثل حرب الأمس القريب فى لبنان • وكما يقول « شولتون » فى أوراقه الخاصة : لقد رجوت طانيوس أن يرحل • كان هذا هو واجبى نحوه • وأنا أقول له : فكر ، فانت لست صاحب مصلحة فى هذه الحرب • ليحكم المصريون جيلك ، أو العثمانيون وليعلن الفرنسيون الانجليز » ، لكنه ردد : لكنهم قتلوا أبى •

بعد أن يرحل طانيوس الى قبرص ، تنقطع صلته بالضيعة • فلا أخبار تأتيه من هناك ، كما أن أخباره لا تصل الى أهله ، وخاصة أمه

لمياء • انه واحد من كثيرين سافروا بسبب هذه الحرب الى لندن وباريس وفيينا والقاهرة • ولكن قلوبهم ظلت معلقة بالوطن • يرغبون فى عبور البحر للعودة حتى لو تعرضوا للنيران • ويفكر فى العودة من أجل الثأر • لقد وجد نفسه أمام وجهى عملة للثأر • الأول مرتبط بدماء أبيه ، والثانى يتعلق بالازدراء الذى يحسه داخل نفسه ، وتنسكب الأحزان والهموم داخل قلب الشاعر الذى أصبح شعره أبيض تماما • رغم براءة وجهـه « أنت يا طانيوس يا ذا الوجه الطفولى • والرأس المتسعة لستة آلاف عام • لقد عبرت أنهار الدم والوحل وخرجت كالشعرة من العجين • لقد مزجت جسدك بجسد امرأة • والقيت بعذريتك فوق الأرض • اليوم أصبح مصيرك معلقا وبدأت حياة أخرى • فانزل من فوق صخرتك • وانغمس فى البحر : واجعل جسمك يلعق نقطة واحدة من الملح » •

لكن طانيوس لا يعود لينتقم على طريقة الثأر العـربية • بل ليرى أمه • فيكون اللقاء حارا للغاية وهى تصرخ باكيـة : « أنا فى حاجة اليك• فلا تبتعد مرة أخرى » • ولكن الغريب أن طانيوس عاد ليختفى من جديد • ويكون الاختفاء هنا أقرب الى عبثية مصائر أبطـال الأسـاطير الذين لا يعودون قط ، فقد فشل طانيوس الشاب الأشيب فى الاندماج داخـل هذا العـالم الضيق ، الملىء بالقسوة • ولذا ، لا يجد أمامه سوى حل واحد هو الخروج من الوطن • وقد تحدث الكاتب عن هذا الخروج فى حديثه الى ابراهيم العريس فى مجلة الوسط (العدد ٩٤) قائلا : « لا يهمنا أين ذهب• وكيف ذهب • يهمنا قراره كرد فعل على ما يحدث • النهاية هى خروجه من عالم الرواية • اختفاؤه • هذه هى فكرة الكاتب • حكاية الهجـرة ما قبل الهجرة • فاذا كان على أن أواصل فسيكون من الضرورى أن أحكى قصة أخرى لا علاقة لها بالأولى » •

تلك كانت وقائع رواية « صخرة طانيوس » لأمين معلوف ، وقد حاولنـا سـردها قـدر الامكان • فمعـلوف ليس فقط روائيـا موهـوبا ، ولكنـه لا ينسى فى داخـله المـؤرخ والصحفى • فهـو لا يحدثنا عن قصـة « ثأر » امتـلأ التـاريخ بالملايين من أمثـالها • ولكنـه يؤرخ للبنـان ، فى تلك الآونة ، وينقـل صـورة صادقة وحية لكل ما كان يحدث فى ضيعة لبنانية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • وقد وقع معلوف فى حيرة لترجمة الأسماء والألفاظ الى الفرنسية التى يكتب بها فتركها فى أغلب الأحيان عربية بلا دلالات • وكأنه كتب «صخرة طانيوس» لأبناء وطنه الذين يعرفون الفرنسية وليس فقط لقراء اللغة الفرنسية ، أيضا ، وليس للقارىء العربى الذى لا يعـرف الفرنسية وتلك سمة واضحـة لدى الأدباء العـرب الذين يكتبون عادة باللغـة الفرنسية

قائمة الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا باللغة الفرنسية

ابو زايد ، فؤاد :

ولد عام ١٩١٥ فى ساحل علما (مرتفعات لبنان) · شاعر وقصاص · نشر ديوانه الأول « اشعار الصيف » فى عام ١٩٣٦ ببيروت · والذى لاقى ترحيبا من الأكاديمية الفرنسية · ثم جاء ديوانه الثانى « اشعار جديدة » المنشور فى باريس عام ١٩٤٢ · نشر ديوانه الثـالث « فكرة » عـام ١٩٤٥ ·

ابو سـليمان ، الفـريد :

عاش بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٥ حيث مات وهو فى الثالثة والعشرين من العمر بعد اصابته بمرض عضال لا برء منه · كان يحس دوما أن نهايته قريبة · وقد اكتست نغمة قصائده بحزن عميـق مكسو باليـأس ونداءات مليئة بالتمرد · لم ينشر له سوى ديوان واحد هو « رماد ساخن » الذى صدر عقب وفاته بعشر سـنوات · والذى طبـع فى بيروت باللغة الفرنسية ·

احدب ، جومانة

ولدت فى بيروت · نشرت أشعارها الأولى وهى فى الرابعة عشرة من عمرها · تعاونت مع صحف ومجـلات عديدة لنشر قصـائدها · عملت فى جريدة « النهار » و « مجلة لبنان » اللتين تصدران بالفرنسية · ثم « اكسيون » action و « كراسات الشرق » · كما عملت فى بعض الصحف والمجلات فى مصر · ونشرت بها قصائدها · نشرت أول ديوان لها فى عام ١٩٤٩ باللغة الفرنسية فى باريس ·

اركاش ، جان :

ولدت فى الاسكندرية · لأب لبنانى وأم ريفية فرنسية · درسـت الأدب والموسيقا وقـامت بالعـديد من الرحـلات بين أوروبا والشرق · نشرت كتابها الأول « مصر في مراتي » عام ١٩٣١ و « الغرفة العليا »

المنشور بباريس عام ١٩٣٣ · ثم « الأمير ذو الصليب » بباريس عام ١٩٣٨ ·

أمون ، بلانش :

فرنسية من أصل لبناني · بدأت حياتها كفنانة تشكيلية · وعرضت لوحاتها في باريس وبيروت · روائية تكتب قصصا قصيرة ، ومقالات · نشرت كتابها الأول « قصة لبنان » عام ١٩٣٧ · كما كتبت في صحيفة « النهار » التي تصدر بالفرنسية ·

بطرس ، ايفلين :

ولدت في بيروت · واشتركت في النشاط الاجتماعي والحركة النسائية · تكتب الرواية ، نشرت روايتها الأولى « يدان » عام ١٩٢٦ التي كتب لها المقدمة كل من جيروم وجان تورو ·

ثابت ، جاك :

ولد في بيروت عام ١٨٨٥ ، شاعر نشر ديوانه « ضحكات ونحيب » عام ١٩٠٧ ورواية « الصخب الدامي » عام ١٩١١ · ودراسة عن سوريا عام ١٩٢٠ · ثم رواية « هيلسا » عام ١٩٢٢ وديوان شعر يحمل عنوان « أشعار مختلفة » عام ١٩٢٥ ·

جماتي ، بول :

مولود في جبل لبنان · شاعر · نشر العديد من الدواوين مثل « رماح الحرب » عام ١٩٢١ · و « جناح صغير لهووس ميت » عام ١٩٢٥ · و « شموس » عام ١٩٢٧ · و « باريس بالمغنسيوم » عام ١٩٢٨ · ثم « أشعار » عام ١٩٣٨ ·

حايك ، فرج الله :

ولد عام ١٩٠٩ في بيت صباب بجبل لبنان · بدأ حياته بديوانين هما : « دموع وابتسامات » و « جنة ابليس » ١٩٢٩ · نشر روايته الأولى « برغوت » عام ١٩٣٩ · ثم نشر دراسات عن « يسوع » عام ١٩٤٦ ؛ و «الله لبناني» عام ١٩٤٦ ببيروت · ثم ثلاث روايات هي «هيلينا» ببيروت عام ١٩٤١ · و « الغريبة » عام ١٩٤٧ · و « جورفيل الساحر » عام ١٩٤٧ · و « أبو سيف » ١٩٤٨ · ثم ثلاثية روائية تحمل عنوان «أبناء الأرض » عام ١٩٥٠ · « ابنة الله » ١٩٤٩ · « سجن الوحدة » ١٩٥٠ ·

حكيم ، فيكتور :

ولد عام ١٩٠٧ · وقد نشر العديد من القصائد والمقالات فى صحف مصرية ولبنانية وفرنسية · نشر ديوانه الأول « فريناز » عام ١٩٤٥ · ثم دراسة عن الشعر اللبنانى عام ١٩٤٨ ·

سـمير ، ادمون :

ولد عام ١٩٠٢ · شاعر · نشر منذ عام ١٩٢٨ مجموعة من القصائد فى صحف ومجلات بيروت · وفى عام ١٩٤٢ صدر ديوانه الأول فى بيروت ·

شحادة ، جورج :

(انظـر الفصـل الثانى) ·

شـديد ، اندريه :

(انظر الفصل الخاص بالأدب المصرى)

شيحة ، ميشيل :

ولد فى بيروت عام ١٨٩١ · مؤسس ومدير صحيفة « النهـار » التى كانت تصـدر باللغـة الفرنسـية · فى عـام ١٩٣٤ نشر ديوان شـعر يحمل عنوان « منزل الحقول » وساهم فى اصدار العديد من المجـلات منها « المجلة الفينيقية » و « فينيقيا » و « مجـلة لبنان » و « كراسـات الشرق » باللغة الفرنسية ·

غانم ، خليل :

ولد فى بيروت عام ١٨٥٧ · وسافر الى باريس وعمل فى جريدة « لوفيجارو » ثم فى صحيفة « الحوادث » نشر ديوان شعر يحمل عنوان « المسيح » عام ١٨٩٩ · ثم دراسة تاريخية مهمـة من جـزءين عـام ١٩٠١ تحت عنوان « السلاطين العثمانيـون » ·

غريب ، ميشيل :

ولد عام ١٩١٢ فى دامور بجبل لبنـان · وقـام بتدريس الأدب الفرنسى فى كلية البطـريركية ببيروت · نشر ديوانه الأول « أرومات فى الظل » عام ١٩٣٦ · ثم نشر الكثير من القصائد فى الصحف اللبنانية التى كانت تصدر بالفرنسية ·

قرداحى ، شــكرى :

ولد فى عام ١٨٩٠ ببيروت · تولى وزارة العدل · ورئاسة شرفية للبلاط ، كما عمل مدرسا فى الأكاديمية القــانونية الدولية بلاهاى وفى كليــة الحقوق ببيروت · ثم حصــل على دكتــوراه شرفية من جامعة الجزائر · ونشر مجموعة من الدراسات القانونية باللغة الفرنسية منهــا على ســبيل المثــال : « مفــاهيم وممارسة القــانون الدولى الخاص فى الاعــلام » عام ١٩٣٨ ·

قلت ، هكتور :

ولد عام ١٨٨٨ ، شاعر ، عاش فى مصر ونشر أشــعارا فى أهــم المجــلات بالقاهرة والاسكندرية ، عاد الى لبنــان ١٩٢٠ · وعمــل فى الصحف والمجلات المحلية · وتولى مسئولية المكتبة القومية فى بيروت ثم عمل قنصلا عاما فى ســـاو باولو عــام ١٩٤٨ ومن أهــم دواوينــه « السرو والخروع » عام ١٩٣٤ و « فى الرياح القادمة » ١٩٣٧ · و « القديسة ماما » وكلها منشورة ببيروت ·

كورم ، شارل :

ولد فى بيروت عام ١٨٩٤ · واصدر أول مجلة ثقافية لبنانية باللغة الفرنسية باسم «المجلة الفينيقية» ثم أسس دار نشر تحمــل نفس الاسم · شاعر · من أهم دواوينه « الانسانية والجبل » ١٩٣٥ ، و « طفــل الجبل » (مقــالات) عــام ١٩٣٨ · ثم « الفــن الفينيقى » ١٩٣٩ · و « سر الحب » ١٩٤٨ و « سيمفونية النور » ١٩٤٨ ·

كورى ، شارل :

ولد فى باريس عام ١٩١٠ من أصــل لبنانى · طبيب وشاعر ، نشر ديوانه الأول عام ١٩٣٣ بعنوان « ساعات ضائعة » ثم ديوانه الثــــانى « من شاطىء لآخر » عــام ١٩٤١ · والذى أهــدته الأكاديمية الفرنســية جائزة خاصة ·

معلوف ، أمين :

(انظــر الفصل الثالث) (*) ·

(★) تم رصد هذه الأسماء من كتاب : Anthologie des auteurs libanais.
الصادر فى بيروت عام ١٩٤٨ ·

الفصل الرابع :

الأدب الفلسطينى المكتوب باللغة الفرنسية

اختلفت تجربة الكاتب الفلسطينى الذى يعيش فى الشتات ، من حيث علاقته باللغة التى يكتب بها أدبه ، عن أقرانه من الأدباء العرب الآخرين الذين يكتبون باللغة الفرنسية • فرغم أن هذا الكاتب وجد نفسه فى شتات ، الا أنه لم يشأ أن يغير من لغته التعبيرية ، لاحساسه أنها شىء أساسى ورئيسى يربطه بوطنه الذى تشتت عنه • ونقصد بذلك الفلسطينيين الذين اختاروا أن يعيشوا خارج حدود الأرض العربية • وقد حاول السينمائيون من هؤلاء الفلسطينيين ان يقدموا أفلاما ناطقة بلغات غير عربية ، وذلك لأن على المخرج أن يمتثل لشروط المنتج ، ولما كان المنتج فى أغلب هذه الأحيان أوروبيا فان الأفلام الروائية والقصيرة التى قدمها الفلسطينيون ناطقة بلغات أوروبية • مثل أعمال ميشيل خليفى التى انتجت فى بلجيكا •

لكن الفلسطينيين لم يشاؤا أن يكتبوا الا بالعربية • مهما عاشوا خارج حدود الوطن العربى ، والأسماء كثيرة فى هذا المضمار ومنهم على سبيل المثال افنان القاسم •

وسوف نقدم هنا كاتبا فلسطينيا تشكل حالته كمبدع لونا فريدا فى الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ، وهو الكاتب ابراهيم الصوص • سهو دبلوماسى فلسطينى عمل سكرتيرا عاما لمنظمة التحرير الفلسطينية فى باريس منذ سنوات طويلة • اذن فهو موجود هناك بحكم منصبه الدبلوماسى وليس مفروضا عليه أن يكتب باللغة الفرنسية • لكن ابراهيم الصوص وجد نفسه فى المدينة اليهودية الأولى فى غرب أوروبا — باريس — والتى تضم اكثر من تجمع يهودى ، واليهود هم الذين يسيطرون على الكثير من صحافة المدينة ، وهم الذين يطلقون على الأشياء مسمياتهم الخاصة كأن نقول « أدب يهودى » و « فلسفة يهودية » و « فن تشكيلى يهودى » وما الى ذلك • اذن ، فكل من يحاول الخروج على هذا

الناموس الذى يضعه اليهود متهم بمعاداة السامية . وقد يكون نازيا يريد ان يعيد للعالم صورة هتلر الذى عذب اليهود ووضعهم فى معسكرات الاعتقال الشهيرة .

أدرك ابراهيم الصوص أنه من أجل أن يفهم الفرنسيون قضيته التى يدافع عنها فيجب أن يمارس لونا من الكتابة اقرب الى هذه العقلية ، يبعد صورة الشخص الزاعق الذى يدافع عن أرضه . فلا شك ان الكتابات التى تتفق مع عقلية الفرنسيين سوف تمر من خلال مرشح خاص . لدرجة أن بعض اليهود أنفسهم لن يمانعوا فى المساعدة لنشر مثل هذه الأفكار الى القارىء فى كل أنحاء أوروبا . طالما ان أهداف هذا الابداع ، لا تتعارض مع ما ينادون به .

اذن ، كان على ابراهيم الصوص أن يتغلغل من خلال افكاره الخاصة ككاتب مبدع . حتى وان كانت هذه الأفكار لم تكن تناسب فى البداية أهداف منظمة التحرير الفلسطينية التى يعمل ممثلا لها فى باريس منذ اكثر من ثلاثة عشر عاما . الا ان اشخاصا من طراز الصوص ساعدوا فى تغيير افكار المنظمة .

لقد اختار الصوص أن يتحاور مع اليهود على الطريقة الأوروبية . ان يذهب اليهم فى عقر دارهم . فيناقش ويبدع كما يشاء . ككاتب متمكن يفهم ما يدور حوله . فقد دفع فى أواخر عام ١٩٨٦ بروايته الأولى «بعيدا عن القدس» Loin de jérusalem الى ناشرة باريسية تدعى ليانا ليفى . وغير خفى اسمها اليهودى . وانتهزت الناشرة الفرصة كى تدفع بكتاب الصوص الى السوق مصحوبا بكتاب آخر من تأليف الكاتب الاسرائيلى يورى آفينرى يحمل اسم « اخى العدو » . ولم تكن مصادفة أن تقوم دور نشر فرنسية أخرى بدفع كتب مماثلة من طراز « اشقاء اسرائيل الثلاثة » لشالوم كوهين . و « أنا يهودى عربى فى اسرائيل » لمردخاى شوشان ، وغيرها من أعمال الكتاب الاسرائيليين الذين تترجم أعمالهم مباشرة الى اللغة الفرنسية .

اما رواية الصوص فهى مكتوبة مباشرة باللغة الفرنسية .وتروى قصة شاب فلسطينى يدعى نبيل وفتاة يهودية مراهقة تسمى جابريللا . انهما يعيشان فى نفس المنزل بمدينة القدس . تربيا معا . واقتربا من بعضهما البعض طوال سنوات الطفولة والصبا حتى ترعرعا . وتحابا ثم تزوجا . تبدأ احداث الرواية عام ١٩٣٥ . قبل ان يتم نفى نبيل بثلاثة عشر عاما بعيدا عن مدينة القدس . والرواية أقرب الى السيرة الذاتية . فابراهيم الصوص لم يكن قد ولد فى عام ١٩٣٥ الذى تدور فيه الاحداث . اما جابريللا فقد كان الصوص فى الثالثة من عمره

عندما شاهدها لآخر مرة • حين تم نفيه خارج القدس عام ١٩٤٩ مع ابيه الذى ظل محتفظا بمفتاح البيت الذى اقامت فيه فيما بعد اسرة يهودية جاءت من رومانيا • وعندما تركت أسرة الكاتب مدينة القدس عثر الصغير على بيانو قديم تعلم عليه عزف المقطوعات الموسيقية • وقد دفعه هذا الى دراسة الموسيقا فى باريس ثم لندن التى ألف بها أولى مقطوعاته الموسيقية • ثم عمل ممثلا للمنظمة •

لقد حول الصوص مهنة بطله من شاعر الى موسيقار • فمن المعروف أن الصوص قد بدأ حياته شاعرا ونشر ديوانا بالفرنسية يحمل عنوان « دافيد وجوليات » ثم جاءت روايته باللغة الفرنسية التى اجتر فيها ذكريات الطفولة عن ابيه • حيث يروى تاريخ اسرته منذ عام ١٩٣٥ وحتى الآن • وقد أبدى الصوص اعجابه بأدب مرجريت دوراس وباتريك موديانو ، وهو كاتب فرنسى يهودى من أصل تونسى • وفى الرواية تحدث عن مذبحة دير ياسين • وحرب عام ١٩٤٨ • وكما يقول الكسندر بوساجون أن الصوص : « يكتب بلا حقد • ولكن هذا يكفى لتسوية الصراع الذى يسمم الشرق الأوسط والعالم منذ ثلاثة اجيال • ولكنه حسبما يقول لست مسالما • ولكن شعبينا لا يمكنهما ان يمارسا الحرب الى الأبد » (١) •

وجابريللا فى الرواية يهودية جاءت من المانيا بعد ان تعرضت اسرتها لمضايقات النازية التى كانت قد استولت على الحكم لتوها • وقد اختار الكاتب فترة الثلاثينات لروايته لأنها ، كما يقول ، لم يكن فيها « رجال مسلحون جاءوا من بلادهم من أجل البقاء فى اسرائيل ويحولونها الى مستعمرة متعجرفة » •

أما الكتاب الثانى لابراهيم الصوص فقد نشر فى ابريل عام ١٩٨٨ تحت عنوان « رسالة الى صديق يهودى »Lettre a un ami juif. وليس خافيا أن الكاتب قد استعار هذا العنوان من كتيب صغير كتبه البير كامى عام ١٩٤٢ تحت عنوان « رسالة الى صديق المانى » ابان الاحتلال النازى لفرنسا • والكتاب ليس ابداعيا • ولكنه نص سياسى فى المقام الأول • وقد اختار الصوص أن يكون ناشره هذه المرة هو دار غير يهودية ، وتقول مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» ان الكتاب قد جاء كرسالة خالصة من الكراهية قبل الاحتفال بأربعين عاما على قيام الدولة العبرية • وبعد فترة من مقتل المناضل الفلسطينى أبو نضال فى تونس • وتقول المجلة ان الكاتب قد دعا هنا يهود الشتات أن يبرهنوا على

(١) l'evenement de jeudi, 23-1-1987, p. 87.

حسن نواياهم باقناع اسرائيل بالتفاوض مع المنظمة ، ويهمنا أن نترجم جزءا من الحديث الذى نشرته المجلة مع الكاتب بهذه المناسبة لالقاء الضوء على آراء الكاتب :

— لونوفيل اوبسرفاتور : لماذا تكتب الرسالة الى صديق يهودى وليس الى صديق اسرائيلى ؟

— ابراهيم الصوص : فى الواقع · لقد ترددت طويلا · فاذا كتبت رسالة الى صديق اسرائيلى · فان على أن أوجهها الى صديق اسرائيلى حقيقى · وعلى أن أكتب الى الاسرائيليين فى معسكر السلام الذين يتظاهرون فى الشارع ضد قهر الجيش الاسرائيلى فى الأراضى العربية المحتلة · ولقد قلت لهم : حاولوا أن تذهبوا بعيدا · وأن تحموا الفلسطينيين · فى كل مرة ترون فيها الجنود أو العسكر يهاجمون قرية · ضعوا أنفسكم بين الجيش والفلاحين · فى كل مرة ترون الجيش يفجر منزلا بالديناميت ادخلوا المنزل مع الأسرة الفلسطينية ؛ لأنكم سوف تمنعون الانفجار ·

« ولكننى اعرف أن حركة السلام تشكل أقلية · وأنها كانت أقل قوة أثناء حرب لبنان · وعندما تظاهر أربعمائة ألف اسرائيلى فى تل أبيب ضد مذبحتى صابرا وشاتيلا كانت نسبة الاسرائيليين الذين يفضلون سياسة الضغط ويقبلون سياسة أكثر تشددا قد ارتفعت ، اذا لم تكن حركة السلام قد فرضت نفسها على التجمعات اليهودية فى الخارج ، فانها خنقت · ولذا ، وجهت رسالتى الى كل اليهود عبر هذا الصديق الذى تخيلته ·

— الا تخشى أن يخرج الصديق من جيبه ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ويخبرك انكم تريدون تدمير دولة اسرائيل ؟

— لا· فعندما سألت هذا الشخص أن يكون شجاعا مثل الاسرائيليين الذين ينزلون الى شوارع تل أبيب بنداء حركة السلام · عندما اتكلم عن الشعب الاسرائيلى أقول ان هذا الشعب له حق الوجود · وياسر عرفات نفسه لا يكف عن ترديد هذا · نحن لا نحارب أشباحا · وأنا أدعو الاسرائيليين أن يخرجوا ميثاقهم بدورهم · وألا يتجاهلوا وجود الشعب الفلسطينى · أقول للصديق اليهودى : اذا أردت أن تلغى ميراث الهولوكست فيجب أن تعرف أيضا من ناحيتك ، وتعى ماضينا · أعرف انك يجب أن تعيش فى سلام وأمن · وأعرف مدى ارتباطك الروحى بهذه الأرض · ولكننى لا أعرف أن لليهود الحق فى أرض الفلسطينيين · الحق التوراتى غير موجود · فحقى يأتى من أننى قد ولدت هناك ويجب

ان أعيش هنــاك • ولا أرى ، أخذا فى الاعتبار الارتبــاط الروحى ، ان حق اليهود يمكن أن يكون على أرضى • ومع هذا فانا بوصفى فلسطينيا اقول لهم : طالما أن ارتباطكم الروحى موجود • فانا مستعد للمعايشة معكم • تعــالوا معى للعيش على مقربة •

ولكن الزمن يمر بسرعة • منذ انــدلاع الانتفــاضــة فى الأرض المحتلة • لم يعد يوجد سوى مائة وخمسين قتيلا والاف الجرحى • والمبتورى الأعضاء ، والمطرودين • والمســاجين • القتــلى والجــرحى لديهــم أسر • وأصــدقاء • وعــلاقات • حتى تتخيلوا درجــة الحقد • ورغبة الانتقــام التى يمكن أن توجــد فى الشعب الفلسطينى • لقــد ســمعتم تصريح رئيس الوزراء الاسرائيلى الــذى يشــبه الفلســطينيين بالجراد • لقد سمعتم عن عنصرية المستوطنين • فالفلسطينيون يشمون من هذه النغمة من العنصرية ضدهم ، أنهم لا يمــكن أن يكونوا ســعداء بتشبيههم بالجراد • فلا يجب أن نعاملهم كالمحشرات ، ندهسهم ويموتون •

— هل قرأ ياسر عرفات مســودة كتــابك ؟

— لا • ولكن ليس فى هذا الكتاب ما يستحق أن يوقع عليه بنفسه •

الجدير بالذكر أن مجلة « لوبوان » الفرنسية قد نشرت فى عددها الصادر فى ٣ اكتوبر ١٩٨٨ أن ياسر عرفات أكد أمام رولان ديماس وزير الخارجية الفرنسية آنذاك : « لن اكون رئيس الحكومة الفلسطينية المؤقتة» ثم استدار ، كما تؤكد المجلة ، ناحية ابراهيم الصوص وهو يقدمه مرددا: ربما سوف يكون ابراهيم الصوص • والغــريب أن الكاتب قد طلب بعــد هذا التصريح بشهور من الســلطات الفــرنسية أن تمنحــه الجنســية الفرنسية ، وقد كان •

لم يتأخر الرد الاسرائيلى كثيرا على كتاب ابراهيم الصوص • فرغم أن الكاتب الفلسطينى لم يوجه رسالته الى كاتب بعينه ، فان الكاتب الاسرائيلى ايلى بارنافى قد رد على ابراهيم الصوص فى كتيب صغير يقع فى ثمانين صفحة تحت عنوان « رسالة من صديق اسرائيلى الى الصديق الفلسطينى » بالتعاون بين مجلة الاكسبريس ودار نشر فلاماريون • وهو مدرس فى جامعة تل أبيب • واعتقد انه ليس مجالنا ونحن نتحــدث عن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية أن نرصد ما جاء فى هذا الكتاب • لكن يمكن ان نقدم بعض افكاره ؛ لأن ذلك كله قد جاء من مبــدع بدأ يتعامل فى الصراع العربى الاسرائيلى بمفهوم جديد • حيث يقول الكاتب : « علينا

أن نتحاور مع منظمة التحـــرير الفلسطينية ، لأن الكثير من الدلائل قـــد تغيرت · فعندما جرؤت حنا سنيورا الصحفية واحدى المتحدثات باسم عرب الداخل أن تقول فى القدس انكم لن تجرؤوا على الكتابة فى باريس أن الصهيونية هى الحركة الثرية للشعب اليهودى · لاشك أن هذا يعنى . رغم كل ذلك ، أن كل شئ يتحرك فى ملعب الفلسطينيين » ·

ومن الواضح الدور الذى لعبه أدب الصوص فى التمهيد للتحـــاور بين الفلسطينيين ، واليهود ، وقد حدث ذلك ابان محادثات أوسلو السرية، واختفى الصوص ، وها هو عرفات رئيساً للحكم الذاتى الفلسطينى ·

الفصـــل الخـــامس :

الأدب الجزائرى المكتوب باللغة الفرنسية

« ولدت الحرب العالمية الثانية فى الجزائر حياة أدبيـة أكثر ثراء وأكثر انفتاحا وتنـوعا ، وقد جاء ذلك من صدمة الحرب ، وبداية الاتصال بثقافات أخرى · وأصبح الأدباء الجزائريون ، خاصة الشباب ، مطلوبين لدى القراء والناشرين · وقد ساعد ذلك على ظهور ما يسمى بالمدرســة الجزائرية » (١) ·

ففى بداية القرن · كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شـمال أفريقيا باللاتينية · وتحمس لهـذه الفكرة أدباء فرنسيون مثل لوى برتران وروبير راندل · ثم مع بداية الثـلاثينات كانت الفكرة هى صناعة أفريقيا على المنوال المتوسطى · وظهر جيل من الأدباء فى تلك السنوات عرفوا تحت اسم « شباب البحر المتوسط » كان أغلبهم من الفرنسيين · وفى الأربعينات لمع الأديب الشاب ألبير كامى باعتباره فرنسـيا يعيش ويكتب عن الجزائر · وسمى هذا الجيل الذى عاصر الحرب فى الجزائر من الفرنسيين بالجيل الاستعمارى الثـالث ، ومن أبرز أبنـائه « ايمـانويل روبليس » صاحب مسرحية « ثمن الحرية » ·

وقد شكل هذا الجيل مدرسة الجزائر · والذى ظهر ابداعه فى مجـلات مهمـة مثـل مجلة « فونتـان » fontaine و « لارش » l'arche و « لانف » la nef وما لبثت هذه المجـلات أن انتقلت الى باريس عقب انتهاء الحرب ·

وقبل أن تنتهى سـنوات الأربعينات بـدأت الأســماء الجـزائرية الحقيقية تلمع فى الأفق · ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العـربى المكتـوب بالفرنسية فى الجزائر · وفى تلك السنوات كان الاستعمار الفرنسى يتعامل

---

(١) Les litteratures francophones depuis 1945, j. j. Joulent., p. 171.

مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث • وكان يتم تعليمها فى أضيق الحدود فى فرنسا • وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التى يتقنونها • ومن أبناء هذا الجيل هناك جان حمروش ، ومولود معمرى ، ومولود فرعون ، ونبيل فارس • وهم جميعا من البربر : ولغتهم الأصلية هى اللغة البربرية • أما الأدباء الذين لغتهم الأصلية هى العربية فهناك مالك حداد ومحمد ديب وكاتب ياسين •

وقد ساق هذا الكاتب الجزائرى أن يستخدم اللغة التى يمتلك ناصيتها أكثر من غيرها • وهى أيضا فى تلك الآونة لغة بنى وطنه •

ويقول كتاب « الأدب الفرانكفونى منذ عام ١٩٤٥ » (١) ، ان مسألة اللغة المكتوبة لم تكن تهم كثيرا فى مجتمع ترتفع فيه نسبة الأمية أكثر من ٩٠٪ قبل عام ١٩٦٠ • ولذا ، فان الكاتب العربى فى تلك الآونة كان يكتب لقارىء آخر وهو القارىء الفرنسى ، أو الأوروبى بشكل عام• وقد أحدثت هذه الظاهرة ما يسمى بالمأساة اللغوية للمستعمر • فالكاتب يمتلك لغتين لا يستطيع أن يستخدم أدوات واحدة منهما فى التعبير • وكان الكاتب يحس أن الفرنسية هى اللغة الأم طالما أنه يحس بها • ويحلم ويفكر ، أما اللغة العربية فهى لغة غريبة فى تلك الآونة • لذا ، اختار الكتابة بها دون أن يشعر بأى ندم ؛ لأنه لم يكن يملك سوى أن يفعل ذلك •

وقد شكلت هذه الظاهرة خطورة على الكاتب الذى يحب أن يناهض هذا الاستعمار • فأحس أن عليه أن يهاجر الى لغته العربية • لكن هذا لم يحدث بسهولة • ولعله لم يحدث لمن كانت جذورهم أشد فى اللغة الفرنسية • وقد كتب كاتب ياسين أكثر من مرة أن « موقف الكاتب الجزائرى الذى يعبر بالفرنسية هو أنه بين خطين من النيران يجبرانه أن يبدع • وأن يرتجل » •

وقد كان الجيل الذى ظهر فى عام ١٩٥٢ أكثر شهرة فى البلاد العربية ، حيث ان أغلب أعماله قد ترجم الى اللغة العربية وخاصة فى مصر • فمن المعروف أن ثلاثية محمد ديب « البيت الكبير » La grande maison و « الحريق » l'incendie و « النول » le metier a tissu ترجمت فى مصر فى أواخر الستينات ونشرتها روايات الهلال • ومن أبناء هذا الجيل هناك جان حمروش • ثم مولود فرعون • وهؤلاء الأدباء ما لبثوا أن دخلوا فى المعركة مع الشباب الذين جاءوا من بعدهم

---

(١) المصدر السابق •

مثل كاتب ياسين وبشير حاج على مالك حداد · منهم الشعراء ومنهم كتاب الرواية كما هو معروف ·

كاتب ياسين :

تجىء اهمية الكتابة عن كاتب ياسين ضمن الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية ليس فقط من انه يمثل الجيلين الأول والثانى من هؤلاء الأدباء · ولكن ايضا لأن علاقته باللغات التى ينتمى اليها قد شكلت بالنسبة له بلبلة خاصة جعلته يدافع فى فترة من حياته عن اللهجات المحلية الجزائرية ، وينادى بها لغة للكتاب وخاصة الابداع الأدبى · فقد تربى فى مجتمع به العديد من اللهجات واللغات · فبالاضافة الى اللهجة المحلية الجزائرية · هناك اللغة البربرية والعربية الفصحى والفرنسية · ولذا ، سنجد أن مشكلة اللغة تؤرقه بشكل ملحوظ · وقد بدا هذا كثيرا فى الأحاديث الصحفية التى ادلى بها فى السنوات الأخيرة من حياته ·

ولا يمكن الكتابة عن السيرة الذاتية لكاتب ياسين دون الرجوع الى الأحاديث الصحفية التى أدلى بها للعديد من المجلات العربية · خاصة التى تصدر من باريس مثل « اليوم السابع » و « الوطن العربى » فضلا عما كانت تنشره صحيفة لوموند من وقت لآخر كلما صدر كتاب جديد للأديب ، خاصة فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، ففيما قبل لم يكن يكتب عن سيرة الكاتب سوى القليل من السطور · وفى فترة من حياته · كان قد توقف عن الابداع لأكثر من خمسة عشر عاما · ولذا راح يجتر حياته وشهرته بشكل ما ، واستفاض البوح بما يتعلق بذاته للصحافة ·

ولد كاتب ياسين فى السادس والعشرين من اغسطس عام ١٩٢٩ ، بالقرب من مدينة قسطنطينية · « كانت امى عبقرية · وكانت لديها سعادة فى التعبير الغريب بالعربية · كان أبوها رجل ادب · موهوبا مثل اخوته فى اللغة العربية · نسى ابنته لكن امى كانت تنصت اليه من خلف الباب · وتعلمت العربية الفصحى من مخبئها · وانتهى الأمر بأن ساعدها ابوها فى الدراسة » (١) ·

اما ابوه فقد ادخله كتاب القرية ليتعلم اللغة العربية ويحفظ القرآن الكريم · ولكنه ما لبث أن نقله الى المدرسة الفرنسية التى ظل بها حتى عامه الخامس عشر ·

---

(١) Kateb, le premier des lieurs, le monde 20-12-1886, p. 10.

ويعتبر عام ١٩٤٥ نقطة تحول ملحوظة فى حياة « كاتب » ، ففى الثامن من مايو قامت المظاهرات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسى ٠ وتم القبض على كاتب ياسين ٠ وطلبوا منه أن يخون وطنه ٠ الا أنه رفض ٠ فبقى فى السجن فترة من الوقت وراح يمارس الكتابة والابداع ٠ « بدأ كل شىء بالنسبة لى بالشعر ٠ ربما اننى كتبت قصائدى الأولى فى سن التاسعة و العاشرة ٠ فى التاسعة قرأت بودلير ٠ هــذه العــلاقة المبكرة بالشــعر انما أدين بهــا الى أبوى ٠ كانا يتمتعان بفطرية شــعرية عالية ٠ تصور أنهما حتى عندما كانا يتشاجران كانا يتناجيان شعرا ٠ الا أن البداية الحقيقية تعود الى عام ١٩٤٥ ٠ تعرف ولاشك ما حدث فى ذلك العــام ٠ لقد اطلقت الشرطة الفرنسـية النـار على الطلبـة الجزائريين من المتظاهرين ، ولما كنت أنا واحدا منهم فقد أودعت السجن٠ كنت يومهـا طالبـا فى المدرســة الثانوية فى سـطيف ٠ دام حبسى شهورا عدة ٠ وحالما خرجت بدأت بكتابة مجموعتى الشعرية الأولى ٠ تنقسم المجموعة الى قسمين ٠ ذلك اننى لدى خروجى من الســجن ٠ تعرفت على « نجمة » ـ ابنة عم لى ٠ ومتزوجة، همت فى الحال بهذه المرأة، وسأظل كذلك ، هكذا ضمت المجموعة قسمين : قصائد فى النضال وأخرى فى الحب ٠ منذ البداية كان الشعر بالنسبة لى هو : « الشعب ونجمة » ٠

« لقد حالفنى الحظ بعد فترة ٠ كنت جالسا فى مقهى ، وكان يجلس الى طاولة مجاورة رجل فرنسى أبيض ٠ يشرب نبيذا ابيض ٠ قام بيننا حديث ٠ سألنى عن عملى ٠ فقلت له اننى ، مبدئيا ، طالب ولكننى أمارس هواية الشــعر ٠ فقال لى اننى كنت محظوظا ، لأنه هو نفســه ناشر ٠ وطلب الى أن آتيه بمخطوطاتى ٠ وحال قراءته لهـا قــرر أن ينشرها ٠ وهكذا كان ٠ وجــدت نفسى فى سن السادســة عشرة ومعى مجموعة مطبوعة ٠ الا أن المسألة لم تنتــه عند هذا الحد ٠ كانت هذه هى المناسبة لأن اكتشف أن شعرا كشعرى لا يتمتع فى الجزائر المستعمرة بحق الاقامة فى المدينــة ٠ نحن فى عام ١٩٤٦ ٠ ما أن اطلع الفرنسيون على قصائدى حتى حالوا دون توزيعها فى المكتبات ٠ فراح أصــدقائى والمتضامنون معى من الزملاء يوزعونها جمــاهيريا ٠ تصور (يضــحك) أن المجموعة راحت تباع فى الحوانيت وصالونات الحلاقة ، أدركت حينها اننى ، اذا كنت أريد الاستمرار فى الكتابة ، فيجب أن أعتمد على هؤلاء البسطاء من أبنــاء شعبى ٠ أدركت كذلك أن الشعر والنضال السياسى سيظلان الى أبد ، متلازمين لدى ، متكافئين » ٠

« للخروج من هذا العزل القسرى الموضوع على الكلام الشعرى اتصلت بعناصر المقاومة ورحت ألقى فى الجمهور محــاضرات أدبيــة ـ سياسية ، ولكن سرعان ما اكتشفت أنه لايصال صوتى الى أكبر عــدد

ممكن من الناس ، جزائريين وفرنسيين كان على أن اتجه الى باريس « فم الذئب » كما يقال (١) ٠

ومن خلال السيرة الذاتية التى رواها كاتب ياسين للصحافة ٠٠ نرى أنه كتب روايته ، ودرته « نجمة » Nedjma فى الفترة بين عامى ١٩٤٤ و ١٩٥٠ ٠ ثم نشر مجموعة من المسرحيات التى جلبت له الشهرة ومنها « الجثة المطوقة » Cadrave encerclé و « دائرة القمع » le cercle de repénailles ١٩٥٩ ٠ و « المرأة المتوحشة » la femme sauvage ١٩٦٣ ٠ و « الأسلاف يتميزون غضبا » les ancétres redoublent de ferocité ١٩٦٥ ٠ ثم « الرجل ذو الصندل الكاوتشوك » l'homme au sandales de caoutchouc عام ١٩٧٠ ٠ و « عمل متناثر » l'oeuvre en frogment ١٩٧٧ ٠ وهى كلها أعمال مكتوبة باللغة القرنسية : ونتيجة للصراع الذى يدور بداخله فيما يتعلق بمسألة الكتابة باللغة العربية ٠ وجد أنه من الأسهل أن يكتب باللغة العامية الجزائرية ٠ وهى نفس التجربة التى سبقته اليها آسيا جبار ٠

وقد عاش كاتب ياسين بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦١ هائما بين المدن الأوروبية ٠ وبين باريس وبلجيكا ويوغوسلافيا والمانيا والاتحاد السوفيتى٠ وهذه السنوات تمثل الخصوبة الابداعية للكاتب ٠ قام خلالها بكتابة ثلاثيته المسرحية المعروفة « عدت الى البلاد بعد الاستقلال ، واستأنفت العمل فى جريدة الجمهورية الجزائرية التى عاودت الظهور من جديد ٠ ولكن بعد فترة قامت السلطات بمنعها من الصدور ٠ دفعنى هذا الى القيام بجولات جديدة فى الخارج ٠ وبعد كل عودة كنت أبحث عبثا عن شىء أقوم به » (٢) ٠

فى هذه الفترة ، مارس كاتب ياسين العمل الصحفى ٠ بعد أن التقى بالسفير بن يحيى ، سفير الجزائر فى موسكو ٠ فعمل فى جريدة « المجاهد » : « كان الرئيس بومدين ووفد من الحكومة يتهيأون لزيارة مدينة وريله فى الجنوب ٠ فسبقت الوفد وذهبت الى المدينة فى عشية الزيارة الرسمية لتكوين فكرة عن حياة المواطنين ٠ واستطلاع شكواهم ٠ طلبت الى أحد موظفى وزارة الاعلام أن يرافقنى فى جولة عبر المدينة ٠ ركبت سيارة الوزراء السوداء الضخمة ورحنا نقطع شوارع المدينة الصغيرة ٠ لا نقابل فيها قدم انسان تسعى ٠ وفى مشارف

(١) لم انته بعد من تكوين الجزائر ، حوار كاظم جهاد ، اليوم السابع ١٣ أبريل ١٩٨٧ ٠ ص ٣٦ ٠

(٢) المرجع السابق ٠

المدينة ، فحسب ، لمحنا أربعة جدران · هيكل مبنى لم يكتمل · عندما توقفنا ودخلنا فيه وجدنا بين الجدران الأربعة خيمة · ماذا تفعل خيمة بين جدران أربعة ؟ أليس هذا شكلا سورياليا يحق ؟ » (١) ·

فى هذا الحادث ، اكتشف كاتب ياسين أن الشرطة تبعد فقراء المدينة اذا جاء رئيس الدولة لزيارة المدينة · وطالب باعادة السكان الى مناطقهم الأصلية كى تتمكن الحكومة من مشاهدتهم : « ولما لم يسمعنى أحد · قفلت راجعا · ولقد دفعنى شعورى الى مغادرة البلاد من جديد · جئت الى باريس · وبقيت فيها هذه المرة حتى ١٩٧٠ · ولم أعد الى الجزائر من جديد الا بعدما سمح لى وزير العمل باقامة مسرح عمالى · وقد استطعنا خصوصا فى السنوات الخمس الأولى أن نقدم أعمالا جيدة أغلبها بالعربية المحلية فى الجزائر » ·

وقد تحدث كاتب ياسين أيضا حول هذه المرحلة قائلا : « بدأت الكتابة بالعامية منذ خمس عشرة سنة · وانقطعت عن الكتابة بالفرنسية · هذا ، بالرغم من أن صديقة فرنسية لى ، هى جاكلين أرنو التى قامت بجمع أعمالى مؤخرا ، كانت تحثنى على الكتابة بالفرنسية · كانت تقول أنه يجب على هذا ، الا أننى لم أكن أستطيع ذلك · لذا ، عملت على لملمة النصوص التى أهملتها خلال سنوات » (٢) ·

وجاكلين أرنو هى باحثة فرنسية أو كما يراها كاتب : « امرأة نبيلة · امرأة رائعة فوق العادة ، كانت صاحبة قلب كبير بالرغم من أنها فقدت حظوة الطبيعة وعطفها عليها · كانت مصابة بالقلب ومريضة بالسرطان وتعب الأعصاب · مع ذلك فقد تابعت رسالتها الثقافية والجامعية وقامت بما قامت به تجاه الآداب المغربية وأعمالى · ان امرأة مثلها لأمر خيالى » ·

ومادمنا بصدد الحديث عن كاتب ياسين كروائى عربى يكتب بالفرنسية · فيمكن أن نرصد دأبه فى اللغة العربية ، فهو يتحدث عن هذا الموضوع فى مجلة اليوم السابع ـ العدد السابق الاشارة اليه ـ قائلا : « الجزائر بلد هو بلاشك اسلامى · لقد أسلمنا · نحن الجزائريين الا أننا لم نستعرب جميعا · ثم ما هى هذه العربية التى يقدمونها لنا فى الجزائر ؟ اذهب يا صديقى واستمع الى نشرات الأنباء فى المذياع والتلفاز : عربية عتيقة ، مبالغ فى تعتيقها ·· الى درجة بعيدة · وهى أنأى ما تكون عن الوضوح الملموس فى عربية العراقيين والمصريين

---

(١) المرجع السابق ·

(٢) المغربى المتشرد يعود ـ المجلة ـ ٢٧ مايو ١٩٨٧ ·

واللبنانيين ٠٠ الخ ٠٠ لغة بلاغية بائدة ٠ لا يفهمها حتى المثقفون ٠ عملى المسرحى أنا قدمته بالعربية ٠ ولكنها عربية حية متداولة يفهمها المثقف والعامل ٠ فيها عالجت مشكلة المهاجر ومأساة فلسطين ، ومن قبلهما حرب فيتنام ٠ أليست هذه لغة عربية ؟ من يرفع عنها هذه الصفة ؟ اللغة خصوصا فى المسرح ، تشحذ على مبادرة الواقع ٠٠ الشعب هو من يصنع اللغة ، حتى فى أخطائه » و « هفواته » ٠ حتى عندما يكسر اللغة أو يلويها فهو انما يحييها ٠ أنا ضد الأكاديميات ٠ الأكاديميون هم محفظو اللغات لا محيوها ، لأنهم يدافعون عن لغة لا وجود لها في الحياة ٠ فرنسيتى ، فى الرواية على « فصاحتها » مشتغلة هى الأخرى بكلمات الحياة اليومية وبناها ٠ ولست وحدى فى هذا ٠ بل سبقنى اليه كثيرون ٠ فى مسرحى العمالى ، العمل الجماعى هو القاعدة » (١) ٠

ولسنا هنا بصدد التعقيب على رأى الكاتب ٠ لكن ، كما رأينا ، فهو لم يكن له الخيار حين نقله أبوه من مدرسة تعليم القرآن وهو صغير الى المدرسة الفرنسية ٠ فانه عندما أصبح كبيرا وجد نفسه عاجزا تماما عن ايجاد لغة عربية مناسبة للابداع ٠ فاختار اللغة العامية الجزائرية فى مسرحياته الأخيرة ٠ ولا شك أن موضوع اللغة معقد تماما للكاتب ، كما كتب عنه كامل زهيرى ــ مجلة الهلال ــ اكتوبر ١٩٦٥ ــ « ان اسلوب كاتب ياسين الفرنسى متميز حتى بين الكتاب الفرنسيين ، وهذا ما جعله يصيب شهرة بين القراء وتأثيرا عليهم » ٠

أما اللغة الجزائرية ، التى يقصدها الكاتب ٠ فهى مزيج غريب بين الفصحى والجزائرية والفرنسية والبربرية ٠ وقد بدأ هذا على سبيل المثال فى عنوان مسرحيته « محمد خذ فاليزتك » Mohammed, Prend Ton Valise فمن المعروف أن « فاليزتك » هى اضافة « ك » الملكية الى كلمة Valise الفرنسية التى تعنى حقيبة ٠ وقد حلت الـ « ك » هنا بدلا من الملكية الفرنسية ٠

جاءت أهمية أن نلقى بعض الضوء على السيرة الذاتية لحياة كاتب ياسين من أنها مرتبطة بابداعه ٠ خاصة روايته « نجمة » ٠

فلا شك أن حبه لابنة عمه نجمة قد تأصل وجدانيا فى أعماقه ، وجعله يتفرغ تسع سنوات كاملة لكتابتها ٠ كأنه يجتر الحروف ، يسترجعها ٠ ويستعيدها فخرجت الرواية من قطرات دمه ٠ ووجد أنه : رافقتنى نجمة فى جميع أسفارى ٠ فى الدول الأوروبية التى زرتها ، كنت فى أواخر

---

(١) لم أنته بعد من تكوين الجزائر ، حوار جهاد فاضل ٠ اليوم السابع ، ١٣ أبريل ١٩٨٧ ٠

الأربعينات عاملا مهاجرا فى باريس ٠ وكنت فى نفس الوقت مناضلا فى الثورة الجـزائرية ، عبر رواية « نجمـة » كنت أعمل لأعيش ٠ وكنت أكتب نجمة لاحيا انتفاضة ثوار وطنى » ٠

« لم تكن كتابة « نجمة » Nedjma سهلة أبدا ، أرقتنى طويلا قبل أن تصبح أثرا ناجزا ٠ كنت أمام اختيـار صعب ٠ كيف أضع الجزائر فى كتاب ٠ الجـزائر القوية والحية ٠ الثورة الحالمة ٠ الجزائر التى كان الآخرون لا يعرفون عنها شيئا سوى الاستقلال وسفك دماء ، شبابها ٠ كان على أن أقنع الفرنسيين ٠ بأن الجزائر ، جزائر نجمة ، ليست كما يتوهمون » (١) ٠

ونجمة هى فتاة جزائرية ٠ يدور من حولها أربعة شباب يحبونها ، ومنهم كاتب ياسين ٠ يحاول كل منهم أن يحبها بأسلوبه الخاص ٠ وقد اتبع الكاتب ، مثلما كتب كامل زهيـرى ٠ ايقاعين : ايقـاع الجمـل القصيرة ٠ وصف بهـا المدن والشوارع والجدران ، والحياة ٠ وجعل هذه الجمل القصيرة محكمة أشد الأحكام لاذعة الملاحظة خارقة الذكاء ٠

« وايقاع الجمل الطويلة ، يصف بها الشخصيات ، حتى انك تجد الجملة عنده تتخللها جمل اعتراضية كثيرة يكاد طولها يبتلع صفحة كاملة من الكتـاب » ٠

« واقدر ما فى هذه الجمـل تلك الأوصـاف أو التشـبيهات دون تصـنع » (٢) ٠

« ويرى كامل زهيرى فى نهاية مقاله عن « نجمة » : « فاذا قرأت « نجمة » كاتب ياسين ٠ فلسوف تأخذك هذه الشـاعرية المتدفقة العنيفة التى تتدفق فى أوصالها وعروقها لأن قصة نجمة ليست قصة على ورق ، ولكنها قصة حية ، هى قصة الجزائر والجزائريين والشخصية الجزائرية٠ وقد تأخـذك هذه الواقعية السليطة اللسـان التى تجـرح وتدمى كـل مظاهر الحياة تحت الاحتلال ٠ فهى حالة من انفضاض الجـزائريين عن الفرنسيين ٠ لا يحبونهم ولا يقبلونهم ويرفضونهم رفضا باتا ٠ ولكنهـم اذ يذعنون لهم أحيانا ، فهم يكشفون بعد ذلك عن عواطفهم الحقيقية بهذا الصدام الجسدى العنيف ، وهذه السرقات ٠ وهذا القرار المسـتمر ٠ وهذه

---

(١) نجمة « تجربة لا أستطيع تكرارها » ٠ مجلة الوطن العربى ــ العدد ٣٥٤ ٠

(٢) قراءات فى الأدب الجزائرى ــ كامل زهيرى ــ مجلة الهلال ــ أكتوبر ١٩٦٥ ـ ص ٤٢ ٠

السجون التى لا تفرغ من استقبال وتوديع ضـــيوفها حتى من تلاميذ المدارس وعمال المصانع وشغيلة المدن » (١) ٠

وقد طلت نجمة من جديد فى أعماله المسرحية الأخرى مثل ثلاثيته التى تتكون من « الاسلاف يتميزون غيظا » و « مسحوق الذكاء » و « حلقة الثأر » ، هناك مجموعة من الرجال حول نجمة أيضا ٠ منهـــم الأخضر ومصطفى وحسن وزوج أمه ظهار ٠ ونجمة حزينة تنشد حبها الضائع وهى تبكى ٠ لقد اختفى حبيبها الأخضر ٠ أما ظهار فهو عجوز يقف الى جانب الفرنسيين ويستنكر موقف الأخضر ضدهم ٠ وهناك أم الأخضر التى تنتظر عودة ابنها ٠ فتجف يوما وراء يوم ، حتى تصـبح عـودا يابسا لا حياة فيه ٠ تردد نجمة فى أسى : «كل نداءاتى لا أسمع لها جوابا سوى وقع أقدام الجنود الثقيلة ولا أرى حولى سوى الجثث والدماء » ٠ وعندما تعثر عليه بعد احدى الغارات الفرنسية على الفدائيين لا تلبث أن تفقده مرة أخرى ٠

وتنضم نجمة الى جيش التحرير مع زميلاتها المجاهدات ، ويأخـذ الحب مجراه فى وسط المعركة ٠ وان كان هنا قد غير شـكله ٠ ووسـط المعركة يتطاحن رجلان من أجل الفوز بقلب نجمة ٠ وينتهى الأمر بأن يقتل أحدهما الآخر ٠ وتموت نجمة ٠

ومادمنا بصدد الحديث أيضا عن لغــة الكاتب ٠ فاننا نورد مرة أخرى من أحاديث الكاتب عن لغته ٠ فمن المعـروف ـ كما سـبقت الاشارة ـ ان كاتب ياسين قد حاول فى أواخر حياته ـ مات عام ١٩٨٩ ـ أن يكتب باللغة العربية ٠ وتعثر كثيرا فى التعامل مع الفصحى خاصة فى مسرحياته : « أرغب بتصحيح فكرة عنى حـول اللغــة العـربية وهى تتعلق بكونى افضل مدافع عنها ، أرغب بخدمتها ، لا بقتلها » ٠

ويتحدث الكاتب فى جريدة لوموند أن مسرحية « محمد خذ فاليزتك » قد حققت نجـــاحا كبيرا عند عرضـــها فى فرنســا حيث شـاهدها ٧٠ ألفا من المهاجرين ٠ « كتبت المشهد الأول باللغــة الفرنسية ٠ أمـا الباقى فقد كتبته بلغة العامة ٠ ثمانية عشر شهرا من العمل ليل نهـار ٠ ثم عرضت المسرحية فى الجزائر طوال خمس سنوات تحت رعاية وزير العمل ٠ وجدت نفسى مع تسعة ممثلين فى مسرحيتى ٠ وابتعـــدنا الى مسافة ٥٥٠ كم من مدينة الجـزائر ٠ الى مدينة سيدى بن عباس لم تكن معنا سيارة ، وفشل مشروعنا ٠ كان الصمت يرين حـولنا ٠ فهذه مدن لم تعرف التلفاز ٠ ولم يكن من السهـل علينا أن نستمر » ٠

---

(١) المرجع السابق ٠

« عندما تصنع مسرحا ، خاصة باللهجة العامية ، فيجب أن تضع أصابعك في المكان الأصح ، هناك هجوم يشن عليك بادعاء أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان نبيا فقط ولم يكن عاملا ، لقد منعنا الاخوان المسلمون من التمثيل في الجزائر وهيدويا ، ومنعونا من التمثيل في عام ١٩٧٧ ، ولم نستطع التمثيل ،

« عندما تمنع قوى التقدم من التعبير والعمل ، فان المتعصبين يشغلون هذا الفراغ ويحتلون المكان ، انه خطر يتولد من هؤلاء الذين يمنعون الناس من ممارسة عملهم ، فأولى خطوات للاخوان المسلمين بالمسلمين جاءت من البنات ، من طالبات المدينة الجامعية في «بن إكنز » ، فلم تكن مصادفة أن تفاضل البنات نحو الأفضل » (١) ،

وقد شهدت السنوات الأخيرة من حياة الكاتب تغيرا ملحوظا ، ففيما قبل كان يرى أن عليه أن يكتب الى المهاجرين الذين يعيشون في فرنسا ، أو أن يكتب الى الفرنسيين أنفسهم ، ولكن في السنوات الأخيرة بدأ يفكر في الكتابة الابداعية للجزائريين باللغة الفرنسية « هناك بعض الأمل أن انشر أعمالي في الجزائر لأنني اذا كتبت كتابا فلكي ألمس نقطة ساخنة ، محددة ، كي أضع النقاط فوق الحروف ، فاذا نشرته في فرنسا ، فهو فشل بالنسبة لي وللجزائر ، يجب أن ننظر الى الجزائر اليوم ، فهناك حالة من تفجر المواهب خاصة في الشعر » (٢) .

واذا كنا قد ألقينا بعض الضوء على ياسين كروائي ومسرحي ، فاننا قبل أن نختتم الحديث عنه يهمنا أن نقدم بعضا من شعره الذي كتبه في مطلع حياته ، ففي عام ١٩٨٧ نشرت دار سندباد كتابا أعدته الباحثة جاكلين أرنو تحت عنوان « العمل مجزأ » تضمن مجموعة من أشعاره نقتطف منها قصيدته المشهورة « صباح الخير » :

صباح الخير يا جيناتي
وانت يا بأسي أيضا
هاأنذا في الحفرة
التي ولد فيها شقائي
لك يا نحسي العتيق
أحمل الآن بعض قلب
صباح الخير ، صباح الخير للجميع

---

(١) Kateb Yacine et ses reculese, le monde, 11-8-1985, p. 12.

(٢) المصدر السابق ،

صباح الخير يا أصـــدقائى القــدامى
هأنذا أعود بفنى
واجد نفسى وحيدا
أعرف أنه فى هذا المســاء
سوف نصعد جميعا للمغنى بحماس

مولــود معمـــرى :

يعتبر مولود معمرى أبرز أبنـاء الجيل الأول للحـركة الأدبيـة الجزائرية التى كتبت باللغة الفرنسية • ومن أبناء هذه المرحلة كما سبق الاشارة هنـاك محمد ديب ومولود فرعون ويتسمون بأنهم قد انتمـوا الى المدرسة الواقعية التى تهتم بالقاء الأضواء على مشـاكل المجتمع الحقيقية التى يعانى منهـا البسطاء كالتعليم والفقر والطموح والتطلع الى الأثرياء وكيف يعيشون • ويقول فاروق يوسف اسكندر انه فى « كـل أعمال هذه المدرسة الأدبية نلمس رقة الرواية الشاعرية الممتزجة بالعنف • والوعى القومى العميق بتقديس نضال الشعوب ••• والتنديد بالحروب من الزاوية الانسانية • لقد اضافت هذه المدرسة وخاصة أعمـال مولود معمرى الأدبية التى تقارب فى غنائيتها النثرية وصفاتها ونقائهـا الى الأدب الفرنسى المعـاصر نغمة جديدة ورعشة أدبية جزائرية جـديدة • لقد أغنى أدباء الجـزائر ـ مثل اخوانهم من الروائيين الذين يكتبـون بالانجليزية ـ عن طريق ايقاع لغتهم وموسيقاهم الخاصة ، تلك اللغـة الجديدة التى توسلوا بها للتعبير عن ذواتهم وعن بيئتهم الجزائرية التى انطلقوا منها » (١) •

ومولود ولد فى قرية تعوريت ميمون التى تنتمى الى ما يسـمى بالقبيلة الكبرى فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩١٧ وذلك فى أسرة غنية • فتلقى تعليمه فى مدرسة القـرية • عنـدما بلغ الحـادية عشرة سافر الى مدينة الرباط عند عمه • ودخل مدرسة الليسيه جورو • ثم عاد الى الجزائر بعد أربع سنوات واستكمل دراسته • ثم سافر الى باريس كى يكمل دراسته من جديد فى مدرسة لوى لوجران • وفى عام ١٩٤٠ التحق بكلية الآداب بالجزائر • ثم شـارك فى الفرقة الأجنبيـة التى كانت تضم ايطاليين وفرنسـيين وألمانا ووجـد نفسـه مسـاقا الى الجبهة فى أثنـاء الحرب العالمية الثانية • وبعد الحرب عمل مدرسـا للأدب فى الجزائر • وفى بعض المدن القريبة من العاصمة • ثم سافر

---

(١) مولود معمرى وصراع الجيلين • فاروق يوسف اسكندر ، مجلة الفكر المعاصر • يناير ١٩٦٨ ، ص ٨٦ •

للاقامة فى المغرب حتى عام ١٩٥٧ ٠ وعاد اليهما مرة أخرى ليعمل مدرسا فى جامعة الجزائر ٠ ثم مديرا لمركز الأبحاث الانثروبولوجية حتى عام ١٩٨٠ ٠

نشر مولود روايته الأولى « التل المنسى » la colline oubliée عام ١٩٥٢ ٠ ثم جاءت روايته الثانية « نوم الرجل العادل » le sommeil du juste عام ١٩٥٥ ٠ وبعد عشر سنوات جاءت روايته الثالثة « الأفيون والعصا » l'opium et le baton وفى عام ١٩٧٣ نشر كتابا تحت عنوان « موظف البنك » Le banquier يتضمن مجموعة من المسرحيات والمقالات ٠ كما نشر كتابا عن قواعد اللغة البربرية عام ١٩٧٦ ٠ وفى السبعينات شهد نشاطا متعلقا بالثقافة البربرية ــ كما يسميها ــ مثل كتاب « ماشاهو » Machaho الذى يتضمن مجموعة من القصص البربرية ٠ كما نشر ديوان شعر يحمل اسم « أشعار قبيلة » عام ١٩٨٠ ، ولم يعد مولود معمرى الى الرواية سوى فى عام ١٩٨٢ من خلال « العابرة » ٠

وجميع كتابات مولود معمرى منشورة باللغة الفرنسية ٠ ومطبوعة فى فرنسا ٠ وتدور أغلب حوادث رواياته فى القرى والريف بالجزائر ٠ مثل روايته الأولى « التل المنسى » التى تدور أحداثها فى احدى قبائل البربر ٠ وفى هذه القرية عاش قبل سنوات الحرب العالمية الثانية مجموعة من الجزائريين البربر فى عزلة عن العالم من حولهم ٠ لا يكادون يعرفون شيئا عما يحدث فى العالم ٠ وهذا النوع من الحياة يجعل أبناءه يمشون على وتيرة واحدة ٠ وايقاعهم غالبا ما يكون ساكنا ٠ ولا جديد فيه ٠ لذا ، فان البطالة تنتشر والناس يتسمون بخمول ملحوظ ٠

وعنما تندلع الحرب ، تنكسر العزلة ، ويجد أبناء القبيلة ــ مثلما سيحدث بعد ذلك فى رواية لرشيد ميمونى ــ ان عليهم أن يغيروا من ايقاعهم ، فالمآسى لا تجيء فرادى ، حيث ان الحرب تأتى حاملة معها الكوارث ٠ ونحن نرى هنا جيلين مختلفين يعيشان فى القرية ٠ الجيل الأول عتيق ٠ وتقليدى فى أفكاره ٠ أعتاد على العزلة ٠ وهو راض بما قسمته لهم السماء ٠ لذا فهو مؤمن أشد الايمان بالقضاء والقدر ٠ أما الجيل الجديد فهو الذى ظهر مع الحرب ٠ وكسر العزلة ٠ وهذا الجيل احتك بالوافدين مع الحرب ٠ ويعرف أن هناك نوعا آخر من الحياة ٠ لذا يتولد لديه التمرد ٠ ولكل من أبناء هذا الجيل أفكاره وتطلعاته ٠ فالمعلم « مدور » الذى تخرج من مدرسة المعلمين يتطلع نحو مستقبل آخر ٠ ويواجه الأفكار التقليدية لمجتمعه ويحاول أن يتمرد عليها ٠ وهناك حوار بين شخصين فى الرواية حين يسأل أحدهما الآخر :

– هل أنت في السجن ؟

فيرد الآخر : أنا في الجزائر .. فكلا الحالين سواء !!

ويقول فاروق يوسف اسكندر : « ان قرية تاسكا التى تجرى فيها حوادث الرواية فى جبال البربر – حجرة صغيرة ضمن السجن الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية فى شكلها السافر ووضعها الأليم ، كما تبدو الحقيقة الانسانية فى حالات الكآبة والقلق النفسى والنضال : المال الخضوع لوطأة العادات القبلية والتقاليد • فالقرية مع صغر حجمها الجغرافى وبعدها عن حياة المدينة تعج بالحيوية والمفاجآت ، وتتناحر الشخصيات • وفى طريقة مؤثرة تحمل القارىء على الاستجابة العاطفية السريعة بالمشاركة الوجدانية مع الحوادث • والصداقة العميقة مع أبطال الرواية » •

ولا أحد يعرف أيهما أفضل • هل العزلة حيث يكون السكون والوتيرة الواحدة • الصفاء الدائم أم الحرب وما تأتى به من عذاب ودمار • ففى الحرب تعانى القرية من صنوف الحرمان أضعاف ما كانت تعانيه قبل زمن كسر العزلة • ففى الحرب زادت المجاعات • ويمكن لشخص يحمل بعض الطعام الى أسرته أن يفاجأ بشخص آخر يرفع عليه بندقيته ويستأذنه أن يقتسم معه بعض الطعام الذى معه » •

« فالموضوع الجوهرى فى كل هذه الأعمال هو المواجهة بين المجتمع التقليدى والنظام الاستعمارى • وتتجسد هذه المواجهة فى قصة بضعة مصائر فردية بطبيعة الحال • فى التفاصيل كل التنوع الذى يعزى الى اختلاف طبائع الكتاب وحساسيتهم • أو يعزى الى اللبس والغموض الذى يقوم فى الحياة نفسها ولكننا لا نستطيع القول ان أساس التخطيط الأدبى للقصة ، عند هؤلاء الكتاب جميعا ، أساس واحد • ويمكن أن نرجعه الى تسلسل زمنى » (١) •

وتجىء أهمية روايات مولود معمرى من أنها روايات سياسية فى المقام الأول • ليس فقط لأنها تقف ضد الاستعمار • بل لأنها تهاجم الأفكار الغربية التى يعتقدها أبناء القرية فى روايته « التل المنسى » ازاء الكارثة التى أصابتهم فهم يتصورون أن هذا البلاء ما هو الا غضب من أولياء الله • وبدلا من الخروج من المأساة زادت نسبة التقاليد البالية • ولم يعد أحد يسير على هدى الله الحقيقى • فزاد ضلالهم • ويقول فاروق يوسف اسكندر ان شباب هذه الرواية «يسخر من الشيخ ومن التقاليد

---

(١) المصدر السابق •

وعالم الغيبيات والقضاء والقدر • ولكن أحدا منهم لا يقدم حلا لمشكلات قومه •• انهم يعلنون السخط والثورة تملأ قلوبهم ولكنهم لا يقدمون حلولا « جيل ضائع » وهوة عميقة تفصل بين الجيلين : القديم والجديد •• ولوحات أجيــد صنعها تجمع بين روعة الفن التصــويرى والوثيقــة الاجتماعية •• والوصف البــارع للتنديد بالمكروب من الناحية الانسانية فى أسلوب يمتزج بالعنف والشــاعرية (١) •

وفى رواية « الأفيون والعصا » تدور الأحداث أثناء حرب الاستقلال من خلال احدى القرى البربرية التى شهدت بعض وقائع هذه الحرب • ونمو الوعى لدى طبيب كان من المصابين باللامبالاة • فالدكتــور بشــير الأزرق يترك حياة الترف فى الجــزائر العاصمــة متوجها نحو الجبل حيث توجد قرية « تاله » مسقط رأسه التى تعيش فى حالة حرب • انهــا دائما نفس القرية التى تحاصرها الجبــال ولكن هذه القرية غير سلبيــة • فهى تشترك فى حرب التحرير لدرجة أنها تباد تمــاما فى هذه الحرب •

« مشاعر نفسية مضطربة مؤلمة كانت الحرب تثقل بوطأتهــا على الأشياء فتجعلها أكثر اختصارا وأكثر كآبة • حتى اذا انتهت الحرب • وعاد من الشبان من كتبت لهم السلامة • راحــوا يحملــون سخطهم وقلقهم على مستقبلهم • فعــادوا الى الهجرة الى أوروبا بحثا عن لقمة العيش • ففرغت الأسواق من صخبهم القوى العنيف ، ولم يعودوا يتربصون للفتيات حينما كن يرحن ويجئن فى الماضى يفــرغن جرارهن فى أوعيــة مثقــوبة ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبــة هادئة كمحاكاة الشــيوخ » (٢) •

والجدير بالذكر أن معمرى كان مهتما كثيرا ، كباحث ، بدراسة ظاهرة الأدب المكتوب باللغة الفرنســية • وهو يرى أن هذا الأدب قــد أسهم اسهاما عظيما فى قضية التحــرر الأفريقى ؛ وله وجة نظر غريبة فى هذا المضمار حين قال ان اللغة المستخدمة فى ذلك الأدب كانت لغة المستعمرين « حتى يمكن منازلة النظام الاستعمارى فى ميدانه ؛ وان كانت قد وجدت ، مع ذلك بضع صحف باللغة العربية تتجة الى عدد محدود نسبيا من القراء • ولكن الجمهور الذى كانت تصــلة هذه الصحف ؛ فى الواقع ؛ كان جمهورا أكبر بكثير من جمهور القراء ؛ بل كان يمتد حقيقة الى الشعب المغربى كله • فقد كان أولئك الذين يعــرفون القــراءة

---

(١) مولود معمرى وصراع الجيلين • فاروق يوسف اسكندر • الفكر المعاصر ـ العدد ٣٥ ـ ص ٨٨ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ •

يشرحون الأمور لمن لا يعرفون وعلى أسلوب الارتشاح الغذائى · ان صحت هذه العبارة · كان الناس جميعا ينتهون الى المشاركة فى تلقى الأخبار · بل فى تلقى المذاهب الفكرية والسياسية » (١) ·

وقد تعامل معمرى مع الأدب على أنه موجه أساسا الى جمهور مختلف عن الجمهور الذى يعبر عنه وموجه اليه · وكأن الأدب بمثابة سلاح دعائى لمناهضة الاستعمار · أو منشور كى يعرض على ابناء الوطن الاستعمارى ما يرتكبه الأبناء من بشائع فى المستعمرات ·

ويرى مولود معمرى فى مقاله عن الأدب الأفريقى باللغة الفرنسية ان أعمال المبدعين من الجيل الأول فى الجزائر قد تركزت أساسا حول حركات التحرر ·

محمد ديب :

لا يكاد يمر عام ، الا ويفوز احد الأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية بجائزة ادبية كبرى فى فرنسا · ومنذ عام ١٩٨٦ وحتى الآن القيت الأضواء حول أدباء عرب ينتمون الى جيلين فازوا بجائزة الأكاديمية الفرنسية للناطقين باللغة الفرنسية ، أو الى ادباء شباب تجاوزوا الأربعين بسنوات قليلة مثل الطاهر بن جلون وأمين معلوف ·

أما جائزة الاكاديمية فهى بمثابة تقدير لأدباء من طراز كاتب ياسين ، وألبير قصيرى ، ومحمد ديب الذى كان آخر الفائزين بها عام ١٩٩٤ ، وهى جائزة عالية ، تبلغ قيمتها نصف القيمة التى تمنح للفائز بجائزة نوبل ·

ومحمد ديب المولود فى ٢١ يوليو عام ١٩٢٠ فى مدينة تلمسان ، هو روائى ، وشاعر ، وكاتب مقال ، وله مسرحية واحدة ، ومجموعة من كتب الأطفال · وقد درس ديب فى مدينته ، وقرض الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره · ورغم أن اباه كان موسيقيا بارعا ، فان الصغير لم يتلق منه أى تعليم ، حيث توفى الأب فى سن مبكرة · وتولت أمه مسئولية ابنائها الأربعة · وهذه الأم ستكون الشخصية الرئيسية فى ثلاثيته الشهيرة التى بدأ نشرها فى عام ١٩٥٢ ·

---

(١) الادب الافريقى باللغة الفرنسية مولود معمرى ــ الأدب الافريقى الاسبوعى ــ مارس ١٩٦٨ ، ص ٧١ ·

وقد حمل ديب المسئولية الأسرية وهو صغير السن • فمارس العديد من المهن ، كعامل نسيج ، ومدرس ، ثم عمل صحفيا بجريدة « الجـزائر جمهورية» • بين عامى ١٩٤٩ و١٩٥١ ، ومارس العمل النقابى ، وفى عام ١٩٤٦ بدأ ينشر قصائده ، ومقالاته • وقد اثرت مهنتـه كعامل نسيج • فى ابداعه الشعرى والروائى ، فهو يتعامل مع الكلمة باعتبارها خيطا يمكن غزله مع كلمات أخرى ليصنع جملة أدبية ، أو عملا ابداعيا متميزا ، ولذا فقد راح يعايش شخصيته المتخيلة « عمر » قرابة اربعة عشر عاما . حتى انتهى من تأليف الثلاثية وربما لسنوات طويلة بعد ذلك •

فى عام ١٩٤٨ ، زار محمد ديب فرنسا لأول مرة من خلال وفد أدباء جزائريين • وبعد ثلاث سنوات تزوج من زوجته الفرنسية • وســافر الى فرنسا عام ١٩٥٢ كى يحضر صدور روايته الأولى « المنزل الكبير » • وأقام هناك حتى عام ١٩٥٤ حيث نشر الجـزء الثانى تحت عنوان «الحـــريق» وفى عام ١٩٥٧ نشر مجموعته القصصية « فى المقهى » • ثم نشر الجـزء الثالث والأخير من الثـلاثية عام ١٩٥٧ تحت عنوان « النول » • وفى عــام ١٩٥٩ تم طرده من الجزائر لمواقفه المناهضة للاحتلال الفـرنسى فاختار أن يقيم فى منطقة جبال الألب • وفى نفس السنة نشر أول كتـاب للأطفــال تحت عنوان « بابا فكران » ، وروايته « صيف أفريقى » •

وبداية من عقد الستينات ، عــرف محمد ديب الرحيـل بلا توقف • فسافر أولا الى دول المعسكر الشرقى ثم استقر فى المغــرب بضــع سنوات، وفى السبعينات اقام بالولايات المتحدة من أجل القاء محاضرات فى جامعة كاليفورنيا • وفى عام ١٩٧٥ سافر الى فنلندا ، ثم عاد ثانية الى الولايات المتحدة ، وعاد من جديد الى فنلندا •

ومع بداية الستينات أيضا تحـول ديب الى الشعر فنشر ديوانه الأول « الظل الحــارس » ، أما ديوانه التالى فقد نشره عام ١٩٧٥ تحت عنوان « تشكيلات » • ثم جاء ديوانه الثالث « أومنيروس » عام ١٩٧٥ • و « نيران جميلة» عام ١٩٧٩ و « ايتها الحياة » ١٩٨٧ • اما رواياته فكان يكتبهــا بشكل منتظم ، ولم يتوقف أبدا عن كتابة الجـديد منها • ولم يقف عند نجاح ثلاثيته التى ترجمها الدكتور سامى الدروبى الى اللغة العربية ، ونشرت فى روايات الهــلال عام ١٩٧٠ • ففى عام ١٩٦٢ نشر ديب روايته « من يذكر البحر » ، وبعد سنتين جاءت روايته «الجرى فوق الشاطىء البرى»، وفى عام ١٩٦٨ جاءت « رقصة الملك » ، وبعد عامين آخرين صدرت روايته « الله عند البربر » • ثم نشر « سيد الصيد » عام ١٩٧٣ • و «هابيــل» عام ١٩٧٧ • وفى عام ١٩٨٥ نشر « شرفات اورسول » •

ومن اشهر المجموعات القصصية لمحمد ديب « الطلسم » عام ١٩٦٦ أما مسرحيته الوحيدة ، « الف صرخة لامرأة محاربة » فقد نشرت عام ١٩٨٠ ·

ورغم كل هذا الابداع الغزير فى حياة كاتب لم يتوقف عن الرحيل ، فانه عندما يذكر اسم محمد ديب نتذكر على التو ثلاثيته الشهيرة ، ولا يمكن الوقوف عند هذا العمل الابداعى دون أن نتذكر المصادر التى تأثر بها الكاتب ، فلا شك اننا أمام سيرة أقرب الى تجربة الروائى ، حياته التى عاشتها اسرته ، فهناك الكثير من التشابه بين تجربة الكاتب ، وبين عمر الشخصية الرئيسية فى الرواية ·

ويقول الكاتب حول تجربة تأليف الجزء الأول من هذه الثلاثية : « رحت أنظر حولى · وبدأت أكتب قصصا درامية منمنمة · وشيئا فشيئا بدأت استجمع كتابى الأول « المنزل الكبير » الذى كتبته على الأقل فى خمس او ست سنوات قبل نشره فى عام ١٩٥٢ · وقد وضعته جانبا لأن الأدباء الجزائريين الشباب فى تلك الآونة كانوا يرون استحالة نشر الكتب » ·

وهذا الجزء الأول من الثلاثية مكتوب قبل أن تندلع ثورة الجزائر وتدور احداثه عام ١٩٣٩ · من خلال أسرة بسيطة · وعمر ابن هذه الأسرة يلتقى بأطفال أشقى منه · أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم · ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقا مجمعة ، أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء · وربما ركضوا حفاة بغير شىء فى الأقدام أكثر الأحيان · ان أعينهم الكبيرة التى يمتزج فى حدقتها الأشهب والأخضر تحلق بحلقة غريبة فى هذه الأراضى المجدبة التى تركت لهم · أما ما يلوح فيهم من جد وصرامة فقد بدا لعمر شيئا غريباً عجيباً · ألعابهم ليست هى الألعاب المألوفة عند أطفال تلمسان · الحيوانات هى رفاقهم · لا رفاق لهم سواها · وهم مغلقون ، يحسنون الصمت ، ويحتقرون كل ما ليس من الريف » (١) ·

وهؤلاء الأطفال الذين يمثلهم عمر ، يبدون مبكرين فى نموهم كما يرى محمد ديب ، واحساسهم بالشقاء يلمع فى أعينهم · ولذا فان عمر يشعر بينهم أنه طفل صغير ، وهم يسببون له الرعب باندفاعهم العارم الذى يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الأهداف ، مثل قتل الطيور ، أو قيادة القطعان ، أو تحدى الفرنسيين ·

---

(١) محمد ديب ، الحريق ، ترجمة سامى الدروبى ، روايات الهلال ، نوفمبر ١٩٧٠ · ص ٨ ·

وعمر لديه من المعلومات ما يفوق هؤلاء الرفاق ، فهو يؤكد لهم ان الأرض كروية • وان الشمس ثابتة ، وانهم هم الأطفال ، يدورون حولهـا مع الأرض • كما انه يتكلم اللغة الفرنسية ، ويجيد العمليات الحسابية • لذا فانه يبدو طفلا غير مألوف أمام الآخرين ، حتى الكبـار •

ورغم تميز عمر ، فانه طفل يتيم ، يعرف معنى الجوع الحقيقى • والدار بالنسبة له دار جوع ، وحاجة الى الطعام ، ولذا فان حجارة هذا البيت افضل لأنها لا تجوع مثل ساكنيها • وهنا يتساءل عمر :

ـ لماذا نحن فقراء ؟ هل صحيح أن هذه قسمتنا وأن لا احد يعلم ؟ لكن هنـــاك اغنيـــاء •

وهو يلتقى هؤلاء الأغنياء ممثلين فى بعض زملائه بالمفصـل • ولذا فهو يرفض أن يسرق ، أو يتسول، ووسط هذا الفقر الشديد، والحاجة فان عمر يحس بالاعجاب الشديد بالمناضل حميد سراج ، فهو يريد أن على المستعمر أن ينتهى •ولذا فان عمر يثق به • ولا يتردد أن يبـوح لـه بكافة مكنوناته • كما أن هناك شخصا آخر يثق عمـر في كلماته ، هـو العجـوز « بن سارى » •

وعندما يكبر عمر فى رواية « الحريق » يكتشف الأسباب التى تدفـع مجتمعة للشعور بالخزى ، وهى الاســتعمار والأوروبيون • « انه يعـرف الآن أين تبدأ الأشياء وعلى وجه الدقة ، يعرف الآن أين يقع ذلك الخـط الذى بعده لا يجـوع الانسان ، والذى قبله يشعر بحرقة فى دمه وبشبدة لا تفارقه • ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه فى آن واحد أمواج المزارع ، وأوراق الشـجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط المراعى » •

وتدور وقائع الثلاثية بين صيف عام ١٩٣٩ ، وشهر نوفمبر ١٩٤٢• وهى فترة ساخنة من حياة الشعب الجزائرى ، فهى الفترة التى بدأ فيها حزب الشعب الجـزائرى يمارس انشطته السياسية ، بعد أن تأسس عـام ١٩٣٧ • كما أنها فترة الحرب العالمية الثانية التي اوقعت بفرنسا تحت الاحتلال النازى • وتبقى الدار الكبيرة شاهدة على عصره ووصله • انهـا دار عتيقة ، وكبيرة • انها تبدو احيانا اقرب الى سجن كبير • ويطـــلق عليها الكاتب اسم « دار مسبيطار » أو المستشفى حسب ترجمتها من اللغة البربرية •

« هذه الحياة ، هذه الأرض ، كان لا يعرفهما عمر الا قليلا ، وذلك منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذى يسمي كومندار ، والى هذا الرجـــل انصرف ذهن الصبى حين وصـل هـذه المرة ، متسائلا عما حل به ، ولولا ان الغسق قد شمل الأرض لهرع الى حيث يقوم كوخه » •

وأم عمر المسماة « عينى » هى أرملة لنجار • وهى تتولى مسئوليات معقدة لأسرة ، فهى امرأة ، وأم ، وعاملة ، وربة أسرة ، فهى مضطرة الى العمل كى توفر الخبز لأبنائها الأربعة : عيوشة ومريم ، وجيلالى ، وعمر ، وقد مات جيلالى من المرض مثل أبيه ، وبعد عامين من رحيله ، يبدو الحمل ثقيلا عليها ، فرغم الآلام ، فان عليها أن ترعى امها • ولذا ، فان الشيخوخة تبدو على ملامحها قبل الأوان • كما أنها تبدو حازمة ، بل وقاسية مع ابنائها •

وتعيش « عينى » وسط جو اجتماعى مشابه ، فكم من الجارات أرامل مثلها ، مثل « يمنة » و « زينة » وهناك فتاة على وشك الزواج هى «زهر» ، و «عتيقة» التى تصاب بحالات من الجنون • كما أن هناك العجائز، وبنات العم اللاتى يجئن من وقت لآخر للزيارة •

ويروى ديب فى الجزء الثانى من الثلاثية كيف وصل رجال المستعمر الى القرية ، ووضعوا قوانينهم لانتزاع بعض الأراضى من الفلاحين ، وتحويلهم الى أجراء لديهم • ويشتعل فى القرية حريق كان وراءه «كارا على» أحد اتباع السلطة ، ويكون هذا الحدث فرصة للاحتجاج من اجل القبض على العناصر النشطة من الفلاحين « لقد شب حريق ، ولن ينطفىء أبدا • سيظل هذا الحريق يزحف فى عماية • خفيا مستترا • ولن ينقطع لهيبه الدامى الا بعد أن يغرق البلاد بلالائه » •

وكان هذا الحادث سببا فى أن يتنبه عمر أن الجزائر أرض غنية بثرواتها • ويجد نفسه يسرق لأول مرة من أصحاب الثروة • وتتغير الحياة بعد أن تفشل الأم فى اجتياز الحدود نحو المغرب ، وذلك بسبب الحرب • ويتم القبض على الفلاحين المناضلين •

ويدور الجزء الثالث من الرواية فى يناير عام ١٩٤٢ • فقد أصاب القرية كساد اقتصادى بسبب الحرب ، مما يدفع بعمر أن يعمل فى ورشة نسيج • انها ورشة ترجع الى القرون الوسطى ، والناس فيها يمارسون اعمالا قديمة منذ سنوات • وصاحب العمل ماحى بوعنان يحتقر عماله ، وهو يعرف انهم لا يحبونه • ويعيش عمر فى حالة من الملل • ويسمع زميله عباس يردد فى حالة جنون استبدت به : « وجودنا ضيق فى هذا العالم » بما يثير الصخب من حول الأثرياء • فيرد شخص : هؤلاء الناس ليسوا حشرات • انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال • وهم يعيشون على اجسامنا » •

وفى « النول » نرى عددا أكبر من الشخصيات الجديدة التى لم يسبق لعمر أن قابل مثلها فى حياته الضيقة فى داره الكبيرة • فهناك سكالى ،

ولامين ، وشول ، وحمرا ، وعكاشة ، وحمروش ولكل منهم حكايته ، وعالمه ويسعون لكسب أرزاقهم •

وتنتهى الرواية نهاية مفتوحة ، كأنما اراد الكاتب أن يقدم جزءا رابعا لها ، فها هو عمر يشاهد أحد الجنود الفرنسيين فى الظلام ، عندما كان يستحم فى النهر الصغير ، فيحييه ، ويتناول منه قطعة شيكولاته «كانت نظراته تنتقل من شىء الى شىء آخر ، وكان فى وجهه تعبير عن جديد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا » • وبالفعل فقد كان فى ذهن الكاتب أن يفعل ذلك لكنه آثر أن يبدأ ثلاثية جديدة بدأت مع روايته « الله عند البرير » •• واستكملها فى « سيد الصيد » لكنه لم يستطع استكمال هذه الثلاثية ، ففى عام ١٩٧٧ ، كتب رواية جديدة هى « هابيل » حول موضوع الهجرة • فهابيل رجل يجر عربة فى مدينة غربية ، يعيش حالة من التوهان •

وفى هذه المدينة يكتشف بطل الرواية الخبائث ، فقد طرده أخوه من بلاده • وكان عليه أن يبحث لنفسه عن اسم ، وان يفكر فيما فعله قابيل مع أخيه ، وطوال سبعة أيام كان على هابيل أن ينتظر الموت وينتظر سيارة كى تدهسه ، أو شخصا كى يقتله • حتى يتعرف على سابين وهى ابنة كاتب مشهور يلقب باسم « العجوز » ، لكن انتحار الفتاة المفاجىء يثير دهشته ، ويحاول أن ينساها بأن يتعرف على فتاة مخبولة تدعى ليلى • فقرر أن يتبعها الى المصحة العقلية •

والاسم الحقيقى لهابيل فى هذه الرواية هو اسماعيل • ويقول الكاتب جان ديجو فى كتابه عن « الأدب المغاربى » الناطق بالفرنسية » أن محمد ديب قد كتب رواية سياسية وهو يعطى لأسماء أبطاله معنى • فبطله مهاجر مثل بطل رواية « الغريب » لكامى • ولقد هاجر هابيل بسبب أخيه « ذلك الأخ الذى يحكم بلاده • انه اخ حقيقى ما لبث أن اصبح شقيقا روحانيا • انه اشبه بأية حكومة فى أى مكان » •

أما آخر رواية نشرها محمد ديب فتحمل عنوان «شرفات أورسول» وذلك فى عام ١٩٨٥ وهناك تشابه ما بين بطل الرواية عيد وبين هابيل ، فهو محكوم عليه أن يغادر بلاده فى مهمة رسمية الى بلد فى الشمال أطلق عليه اسم أورسول • وعاصمة هذه الدولة هى ياربر • انها بلاد الشمس التى تسطع فى منتصف الليل ، ومن الواضح أن محمد ديب قد حاول ان يكتب رواية عن فنلندا التى عاش فيها سنوات طويلة • ويقوم البطل بارسال تقارير الى حكومته ، ولكن احدا لا يقرأ تلك التقارير • وكثيرا ما يتجاهل الدبلوماسيون انجازاته • وذات يوم ، وبينما هو يقوم بنزهة عند الشاطىء ، يكتشف حفرة مليئة بمخلوقات خيالية تطلق

صرخات حادة ٠ ولا يعرف ماذا حدث بالضبط له منذ تلك اللحظة ، فهو مدفوع نحو الشمال أكثر فأكثر ، يخترق الجزر ، والليل المليء ببياض الثلوج ، ويتعرف على امرأة تدعى أيل ٠ ولكنه ما يلبث أن يفقدها ٠ ومع ذلك لا يتوقف عن الرحيل ٠

ويقول الكاتب جان ديجو ان هذه الرواية الجميلة ، تبدو غريبة ، ومزعجة فى اضواء الكاتب المريرة ، وفى اجوائه المعبقة بالموت والجنون، وتعطى الاحساس أن محمد ديب قد وصل الى نقطة من المنفى الأبدى ٠ اكثر من اقرانه من الكتاب المغاربة ٠ ويبدو ذلك فى الطريقة التى ينطق بها بطل الرواية لفظ « الجلالة » ٠٠ فالكاتب يعطى البلد اسما خياليا يعنى الشمس باللغة الفنلندية ٠ وهناك علاقة خاصة بين الراوية وبين بلاده ٠ انها علاقة روحية تعكس عالم ديب ٠٠

والتشابه واضح بين عيد وبين هابيل ، فكلاهما فى حالة هجرة ، والنساء اللاتى تقابل كلا منهما مصيرهن الموت فى حوادث غامضة ، فـ « آبل » ٠ ٠تموت بعد أن تصدمها دراجة بخارية ٠ وتترك حبيبها بعد تعارف قصير فى حالة من الحزن ، والتساؤل : لماذا ؟

كان آخر كتاب نشره محمد ديب هو ديوان شعر فى عام ١٩٨٧ ٠٠ يحمل عنوان « أيتها الحياة » وقد ضمنه مجموعة من قصائده الجديدة وقد توقف الكاتب بعد ذلك عن الكتابة دون سبب واضح ٠٠ ومن المهم أن نشير الى ان لغة الكاتب الشعرية قد تغيرت ، فبعد قصائده الطويلة ، فان قصائده الجديدة قصيرة للغاية ، ومن هذه الأمثلة :

وقال البحر

الوجه
لاهث
والتباعد كبير
بين الشاطئين
وآخر الأجنحة
البيضاء

★★★

ويتكلم محمد ديب عن تجربة قصائده المنشورة فى ديوان « تكوينات » انه أحس بأن كتابة النثر قد سدت عليه الطريق ، فأصابه الارهاق ولم يحس بأية قوة كى يعاود الكتابة مرة اخرى ‥ لذا ، كان الشعر هو ملجأه ومرفأه الذى يرسو عنده • وقد جاء هذا الديوان مزيجا بين الشعر المنثور والنثر • وحاول فيه محمد ديب ان يتخلى عن كل قيود الكتابة •

وتنتمى قصيدته « صيف » المنشورة فى ديوانه « الظلال الحارسة » الى هذا النوع من الابداع الذى سعى فيه الكاتب للتخلص من كافة القيود التى تقيده كشاعر • وقد اخترنا هذه القصيدة كنموذج واضح من ابداع محمد ديب الشعرى حيث يقول :

جسده حالم تحت ضياء

الصيف كسفينة آدمية بين رايات الحرب

وهذا الشاب :

ينتهك عطشه الابدى فى الرغبة

وصمت الموت الذى يتوجه

★★★

أما قصيدته « أوجه الليل » المنشورة فى نفس الديوان ، فهى تنتمى أيضا الى نفس اللون من الشعر الذى يكتبه محمد ديب • وفيها يقول :

(١)

تعود الجموع دائما الى شكلها الأولى

ودائما فى الليل •

وجوه ضامرة

تكشفها اضواء القطارات الطويلة المتقابلة •

هناك دوما السيارات ، ونداءات باعة الصحف
كأنها تعيد ضبط العـالم الغريب بالندم
وهكذا ترتطم الجـــدران عند اعتاب الموت •
وفنادق الحب تروى مشاعلها

★★★

انشــــد الراحـة
وتفتح المدينة دائما ابوابها كى تقـــودنى
الى الدروب التى يهرب فيها الظل الذى خلقنا منه
اناجى نظرة النجوم الساكنة
واطير فوق الشـــارع واضواء النيـــون
آه •• لا شىء يتبعنى ، فالمدينة غير موجودة •

★★★

(٢)

امشى فى المدينة احفـر المرايا العاكســة
حيث تتتابع الرصفان ، والمفترقات ، والدروب ،
والعواميد والجدران الملطخة بالاعلانات ، وكأنها عارية ،
واشجار سامقة تخـرج من اقفاصها الحـديدية

★★★

ضــائع وكأننى فى عالم ليست فيه معاناه
واتطلع للحظة الى اقواس المصابيح

حيث يحلق الضوء الأخضر الغامض فوق الحدائق
ثم يرحل من جديد ·· حتى يتقشع الفجر فنسمع وقع اقدامنا

★★★

فى كل ركن ·· المكان شديد الظلمة ، تملؤه الأضواء المبهرة
والعيون المغلقة ، تتجول أمامها دون أن نعـرف
انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب بهـدوء ·

★★★

وتنســال نافورة فى أعمــاق الميدان المظلم
ايها الليل ، ايهـا الليل الطيب ، استقبل الظلام المسكين
فالسهران قد غمرته السكرة والدوران ·

هذه القصيدة « أوجه الليل » كتبها الشاعر محمد ديب فى أوائل الستينات ، ثم نشرها فى ديوانه الأول « الظلال الحارسة » عــام ١٩٦١ · وهو نفس الديوان الذى أعاد نشره مضافا اليه قصائد جديدة فى عــام ١٩٨٤ · وفى هذه القصائد بدا الشاعر على علاقة توحد كامل مع الطبيعة ·· خاصة فصولها ، وأيامها ، ولياليها ، فعناوين قصائده هى عن الربيع ، والشتاء ، والليل ، والظلام ، والضياء ، والظلال · ولذا ، فليس من الغريب أن نرى هذه المفردات تتكرر داخل القصـــــيدة الواحدة فى أى من هذه القصائد ، وبذلك فان للشاعر مفرداته اللغــوية الخاصة به ، وهـــو لا يجددها ، بل يكررها · والشاعر موجود فى هذه القصائد يتجــول فى الشوارع ، ويرقب أضواء النيون ، ويمشى الى جوار السيارات ، وهــو وحيد ، يتحدث الى نفسه يقرض الجديد من الشعر · ويحس بتوحد خاص ، رغم شعور الغربة الواضح ، مع كل ما حوله من بشر ، وأشياء · بل ان هذه الأشياء تبدو أكثر التصاقا به فى قصائده من البشر ·

وفى قصيدة « صيف » يمكن أن نلحظ عالم محمد ديب الشــعرى · فهى تعد نموذجا واضحا لكافة ابداعاته الشعرية · ان لم نقل ان أغلب هذه القصائد تكاد تكون نســـخا كربونية ، أو سلسلة متكررة من نفس المشاعر · الاحساس بالغربة ، والعزلة ، ولعل كثرة ترحال الشـــاعر ، « وسفرياته » التى لا تنتهى كانت سببا أساسيا لاحساسه بهذا العالم ·

واذا بدأنا بمفردات الشاعر فسوف نرى أن محمد ديب ينظـــر الى المدينة من الخارج باعتباره ضيفا عليها ، رغم أنه لم يشر هنا بشكل واضح الى المدينة وأبعادها ، وهويتها ، فان مفرداته هنـا تؤكد على غربتــه ٠ فالآخرون بالنسبة له مجرد « وجوه ضامرة » ، يعــود أصـــحابها الى أشكالهم البدائية التى كانت عليها فى بداية التاريخ ٠ وهى أيضـا وجوه لا تظهر المرائى الا من خـلال ما تعكسه أضواء القطـارات التى تندفع فى أروقتهـــا ٠

وما يؤكد من مفردات الشاعر أنه غريب عن هذه المدينة حديثه عنها من خلال « فنادق الحب » و « أبواب المدينة » ٠ ثم تلك الأشـياء الموجودة فى كل المدن الأخرى ٠ ولا تميز واحدة منها عن الأخرى مثل الرصفان ، ومفترقات الطرق ، والدروب ، وأعمدة النور ، والجدران التى لطختهـــا الاعلانات والأشـجار السامقة ٠ والحـدائق التى تحلق فوقهـا أضــواء النيـون الخضراء ٠

هذه الأشياء كلها تساعد الشاعر على زيادة الاحساس بالضياع ٠ لذا فان محمد ديب يكرر اسـتخدام نفس المفردات ، ليس بين القصـــائد وبعضها البعض ، بل أيضا فى داخل نفس القصيدة ٠ مثل كلمة «الليل» ، و «الظل» ، و «الدروب» ، و «الأضواء» ٠٠٠٠ بل وكلمة المدينة نفسها ، كأنما الشاعر يؤكد انه سجين لها ٠

والمدينة كما يصفها الشاعر هنا نائمة ينبض قلبها بهدوء شديد ٠ وهى تخلو من حركة الا من قطارات عابرة ، ورجل يمشى وحده بين دروبها يحفر داخل المرايا العاكسة ، فلا يكاد يرى وجهه ، والحركة الأولى فى هذه المدينة هى حركة هذا الشاعر السهران حتى لحظات الفجر ٠ فهــو الساهر الوحيد بينما « المدينة نائمة » ٠

ولم يتوقف عند أصحاب الوجوه الضامرة الذين يظهرون فى مثـل هذه الساعات من الليل ، وهو يصفهم فى مكان آخر بانهم مغلقو الأعين ٠ ولكنه ينبهنا الى أن الأشياء من حوله متيقظة ، مفتوحة العيون ، مثــل المرايا العاكسة ٠ فهى تبدو شاهدة على مروره بين أروقة المدينة ، ومثل القطارات التى تسقط أشعتها على وجوه المارة فتضيئها ، ومثل السيارات ٠ والظل الهارب ، وأضواء النيون ٠ بل ان الأشياء الجامدة تتحرك فى عالم محمد ديب ، فالرصفان ، ومفترقات الطرق والدروب ، وأعمدة الاضاءة بل والجدران الملطخة بالاعلانات ، والأشجار السامقة ٠ كل هذه الأشياء ليست ثابتة مثلما فى أى مكان ، بل هى « تتتابع » وراء بعضها البعض ، فتتحرك بينما المدينة نائمة ٠

ولعل الصوت البشرى الوحيد الذى يسـمعه الشاعر فى هـذه القصيدة ، هو صوت نداءات باعة الصحف ، وعلى كل فهو نداء غيـر حميمى · اشبه بالعيون المغلقة ، والوجوه الضامرة ، يكاد يكون «ديكور» لنفس المدينة ، فكأن الليل فى مثل هذه المدن لا تكتمل صفته ، الا اذا كان به باعة صحف · وبالفعل فان الشاعر يرى أن السيارات ، وأيضا نداءات باعة الصحف ، تقوم باعادة ضبط هـذا العـالم غير المألوف ، وتجعـله مصابا بالنــدم ·

والقصيدة هى لحظـة معايشة قصيرة ، واذا قارناها برؤى محمد ديب ، فسوف نرى أنها مجرد نبض عابر من الذى يحياه أبطال رواياته ، فنحن أمام رجل تائه يعيش لحظة تيه ، أو فلنقل ان حياته كلها هى هــذه اللحظة ، هى لحظة من السكرة الخاصة ، والدوران عن المألوف · ورغـم أننا لا نستطيع أن نحدد زمن الدراما فى القصيدة ، بين بداية القصـيدة ونهايتها ، فان هناك لحظتين مؤكدتين ، الأولى ان هناك ليلا · ثم هنـاك بعد ذلك انقشاع الفجر ، وبين هاتين اللحظتين قام الشاعر بالتجـوال فوق الأرصفة ، ورأى آلاف الأشـياء ، ابتداء من الجموع التى تعود الى شكلها البدائى ، والمقصود به هنا هو الموت ، أو النوم ، باعتبار ان النـوم حالة من الموت ، مرورا بتضاريس الشـوارع · الى أن ينقشـع الليـل ويأتى الفجــر ·

وليس هناك توحد بين الشاعر ، وبين تلك الأشياء التى يراها ، لذا فانها تجعله يشعر بالمزيد من الغربة ، ولم يحدث أى تآلف بين الشــاعر وبين هذه الأشياء · فرغم ان المدينة تبدو حانيـــة للشــاعر ، تفتح له ذراعيها ، وأبوابها كى تقوده الى دروبها ، فان هذا ليس كافيا كى يتآلف معها ، فالقصيدة تنتهى ، وقد أصاب الدوران الشاعر · ورغم أن سكينة ما قد حلت به حين نبض قلبه بهـدوء ، فان ما رآه محمد ديب فى هـذه المدينة اشبه بما يراه كل غريب فى أية مدينة بها نفس المعـالم ، وفى نفس اللحظـــات ·

والشاعر حبيس للمدينة ، ولليلها المظلم ، فجدرانها ترتطم عنـد أعتاب الموت · وفى دروبها تهرب الظـلال · ولذا ، فان التعبير الموجـز والصحيح الذى وصفه الكاتب عن نفسه هو انه « ضائع » ولكنه ضـياع غريب ، فكأنه فى عالم خـال تماما من أية معـاناة · لذا فهــو يحس بالســكينة :

انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب بهدوء ·

وفى هذه السكينة يصبح الضـوء أخضر ، تمتلىء الميادين بالأضواء المبهرة ، ثم تنسال نافورة المدينة فى أعمـاق الميدان المظـلم فتجعـله مضـيئا ..

والغريب أن الشاعر فى منتصف قصـيدته قد أعلن أن المدينة التى سار بها ، وتجول بين أروقتها ، غير موجودة ، ولم يكشف عن عـدم وجودها بالنسبة له ، فهل هى مدينة أحـلام ، أم أن لحظة التجوال كانت لحظة رؤية خاصة له ، أم أن كل ما رآه كان بمثابة حلم يقظة ؟

آه .. لا شىء يتبعنى ، فالمدينـة غير موجودة .

وهكذا ، فان الكاتب يحاول أن يقتل مدينته . أو أن يعتبرها غيـر موجودة طالما انهـا خالية من الحميمية ، رغم أنه لم يشر قط الى رغبتـه الشـديدة فى أن يتواصل مع آخرين . وفى المقطع الثانى من القصيدة ، فان الشاعر يضع الموت فى مقابل الحب .

★★★

رشيد بوجدرة :

جاء شكل الأدب العربى المكتوب بالفرنسية عند رشيد بوجدرة جديدا · فالكاتب الذى نشر روايته الأولى « الطلاق » la réjudiation باللغة الفرنسية عام ١٩٦٩ كان عليه أن يتعامل مع اللغتين بنفس القدر · فهو اذا كتب رواية باحدى اللغتين · كان عليه أن يترجمها بنفسه وبلغته الابداعية الى اللغة الثانية · حدث ذلك فى كل اعماله ، تقريبا ، ابتداء من روايته الأولى « الطلاق » وحتى آخر اعماله · وهو فى كل تجربة منها عليه أن يختار العنوان الذى يناسبه · والتعبيرات اللغوية الأقرب الى قارئه سواء العربى ام الفرنسى ، فروايته « معركة الزقاق » تمت ترجمتها الى الفرنسية تحت عنوان « فتح جبل طارق » ·· وهناك روايات ترجمها آخرون مثل « الارث » · التى ترجمت بواسطة انطوان موسالى الى اللغة الفرنسية عام ١٩٨٦ ·

وبوجدرة روائى فى المقام الأول · فهو معروف كمبدع فى مجال الرواية ، وحول تعليمه اللغة العربية تحدث الى خميس خياطى · قائلا : « البلد الوحيد الذى استعمرته فرنسا ومنعت فيه تعليم لغته الأم هو الجزائر · كانت اللغة العربية ممنوعة وكان ذلك سببا فى مجيئى الى تونس (معهد الصادقية) ، كان قانون « بيلا وان » يمنع تعليم وتدريس اللغة العربية فى الجزائر ماعدا اللغة المحلية · كان « بيلا وان » يعتبر أن اللغة العربية لغة ميتة واللغة المحكية تفتقد الى القوانين · فنجد الجزائرى يتعلم فى المدرسة اللغة التى يتكلمها فى المنزل والشارع ·· وهذا الشيء هو السبب فى شروعى فى الكتابة باللغة الفرنسية · وبعد ذلك عدت الى لغتى العربية » ·

« لقد كتبت باللغة الفرنسية للضرورة · لم يكن من الممكن نشر كتاب « الطلاق » فى اية دولة عربية · مسالة الهوية واللغة والذاتية هى من المسائل الأساسية بالنسبة للروائى المغربى · لقد قتل الفرنسيون فينا الذاتية والهوية والعشق والحب والجسد · فالادب العربى لم يهتم الا بالجسد · الذاتية تؤدى الى الهوية التى هى بالتالى تطل على اللغة · فاللغة هى الأساس للذاتية والذاكرة ·· افصاحى عن هويتى العربية ورجوعى الى اللغة كان من الضرورى · اما أن اعود الى اللغة العربية او اصمت أو انتحر · اما ان انتقل الى العربية واتابع الكتابة فيها أو أكف عن الكتابة وانتحر · كاتب ياسين انتحر بشرب الخمور وكذلك مالك حداد · ليس من الصحيح ان كاتب ياسين يكتب باللغة المحلية ، فهو لا يعرفها ، كاتب ياسين انسان رجعى ·· ر·ج·ع·ى· رجعى وغير حديث · مواقفه غير محدثة · لماذا ؟ لأن اللغة العربية

اليوم هى الحداثة سواء بالنسبة للغة المحكية او اللغة البربرية · ما هى اللغة البربرية ؟ انا بربرى شاوى · خمسون فى المائة من لغتى البربرية هى من اللغة العربيـــة · أين هو الابداع فى اللغة البربرية ؟ · الأدب الشفوى اقل قيمة من الأدب المكتوب » (١) ·

وقد آثرنا ان نستعين بهذه الفقرة الطويلة من حديث بوجدرة كى نرى كيفية تغير المفاهيم الخـــاصة باللغة فى الجيل الذى ينتمى اليــه بوجدرة وهو الذى ظهر مع نهاية الستينات ولمع فى سنوات السبعينات · فالكاتب هنا مزدوج اللغة الابداعية · وهو يكرس اللغة التى يريدها حسب الظروف التى تحكمه ، او حسب الجمهور الذى يوجه اليه كتابته ·

وحتى فى لغته العربية ، فان الكاتب يستخدم الفقرات الطويلة على طريقة ويليام فوكنر وكلود سيمون · وفى روايته « الارث » على ســبيل المثال نرى علاقة حب تربط بين رجل مسلم وفتاة يهـــودية · وهنـــاك وسط هذه العلاقة عودة دائمة الى الوراء · فالراوية هنا يعود الى ماضيه بلا توقف · انه يروى قصة هذا الماضى وهو مقيم فى نفس المكان الذى عاش فيه سنوات المراهقة · وهو يسترجع بطاقات البريد · والصور القديمة · ويتصفح مجلات قديمة · ويكتب بلا توقف قصــص أفراد أسرته · عن أبيه الذى مات فى حجرة مجاورة · وعن ســفره الى اماكن بعيدة · لقد أرسل الى أسرته الكثير من البطاقات البريدية من كل بلد زاره · ها هى هذه البطاقات تصلح خامة جيدة لروايته الغارقة فى الماضى· ففى كل منها مدون تاريخ ارسالها · وعليها بعض العبارات · وها هو ابنه يسأله عن بعض التفصيلات · كما أن المرأة التى يحبها لا تكف عن ملاحقته · انها مثله مشغوفة بماضى حبيبها · وهو يحكى لها دوما عن هذا الماضى · ويبدو الأمر الآن وكأن كل شىء قد اصبح ارثا ·

اما روايتـــه « الف وعـــام من الحنـين les 1001 années de la nostalgie التى نشرت بالفرنسية عام ١٩٧٩ ، فهى رواية موغلة فى القدم · باللغة الضخامة · ومزخرفة بالشخصيات والأحداث · لقد اراد الكاتب ان يصنع ملحمته العــربية المعــاصرة · فمن الواضح ان بوجدرة قد توغل الى الأعماق فى عالم « ألف ليلة وليلة » · ووراح الحنين يدفعــه ان يتوغل فى عالم الاسلام وتاريخ المسلمين لأكثر من الف عــام مليئـة كلها بالحنين ·

---

(١) الروائى العربى مهووس بالسياسة · حوار خميس خياطى · اليوم السـابع ٩ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ·

وتدور الأحداث فى قرية معاصرة تسمى المنامة ٠ تقع فى أطراف الصحراء ٠ ولكن بعض الأحداث التى تعيشها فيها قد دارت يوما ما فى الماضى ٠ ويقول الكاتب انه فى هذه المدينة الخيالية عاش ذات يوم العلامة ابن خلدون ٠ ثم هنـاك رجل اسمه الكاتب محمد بلا اسم ٠ يعيش فى وحدته وحنينه للماضى ٠ وهذا الرجل يعيش فى أسرة لديهـا أكثـر من ثمانية عشر زوجا من الأطفال التوءم ، وهو الآن أكبر أبنـاء هذه الأسرة ٠ وهو الوحيد الذى ليس له توءم ٠

لقد رزقت الأسرة ثمانية عشر من التـوائم ٠٠ لذا ، فان بطـل هذه الرواية يعتبر شخصا معجزة ٠ لأنه ولد فريدا بين اخوته ٠ وهو قادر أن ينتقل بين الماضى والحـاضر ، بسهولة شديدة ٠

يقول لنا فوجان فروستى ان « كتاب بوجدرة يعلمنا ، اذا كنـا نجهل ، أن الرق ، الذى حرمه الاسلام ، كان موجودا فى العصر الذى كانت فيه « ألف ليلة وليلة » تحدث سحرها ٠ وكان يتم جلب الرقيـق السود من القرن الأفريقى واثيوبيا وزنزيار من أجـل تجفيف البـرك ومن أجل تخزين القمح فى العـالم المسلم الذى كان يصـل حتى الاتحـاد السوفيتى الحـالى ٠ هذه الخصوبة كانت حقيقية ٠ وقد تعلمنـا أن هناك ثورتين مؤثرتين ٠ وبالغتى الأهميـة ٠ هما ثورة السود ٠ والزند التى خلقت دولة حقيقية لمدة خمسة عشر عاما ٠ انها دولة القرامطة التى ولدت على مقربة من العراق ٠ كانت حركة شمولية استمرت طوال قرنين وكانت أقرب الى جمهورية افلاطون ٠ وها هو بوجدرة يؤكد على السمات الرومانسية ، وليست التاريخية لعمله ٠ وهو يؤكد على نماذج منها ٠ ويضع الرسوم التوضيحية » (١) ٠

اختار رشيد بوجدرة أن يصنع فى هذه الرواية عالما فنتازيا عربيا ، مليئا بالخيال والسحر ٠ ومليئا بكل ما يمكن أن تمنعـه السـلطات فى البلاد العربية ٠ وخاصة العبارات المكشوفة التى اشتهر بها الكثير من الأدباء المغاربة ، وأيضا الناطقون بالفرنسـية فى الوطن العربى ، ولكنه بشكل عام لا يصـل الى اية درجة من درجات الاباحية ٠

وليس كل أدب رشيد بوجدرة غارقا فى الفنتازيا ٠ فروايته « قاهر الغربة » التى نشرت فى فرنسا عام ١٩٨١ تتحدث عن واقعة تاريخيـة حقيقية دارت فى شهر مايو عام ١٩٥٧ ، حول الغارة الأخيرة التى ارتكبها الفرنسيون ضد رئيس المجلس الجـزائرى ٠ بعد أن تم القبض عليه وحوكم

---

(١) Les mensonges de schehrazade, le nouvel observateur 9-10-1979.

بتهمة الخيانة · وتم أعدامه من قبل منظمة المقاومة · ويقول بوجدرة ان « كل أدبى هو ذاتيات · انى لا أستعمل الذاتيات كقناع أخفى به شيئا ما ولكن كأرضية كأساس ، لأنه من خلال الذاتية بامكانك خلق الكيان الروائى وبدون ذلك يكون الروائى شيئا متحجرا بدون عروق ودم وشحم · كل الأدب الروائى العربى يفتقد الى هذا العنصر · أما الشعر · وتلك حقيقة تناقشنا فيها مع بعضنا البعض عدة مرات · الشعر الغربى هو أفضل شعر فى العالم من ناحية الجودة · فمثلا لا يوجد فى العالم من يتحمل المقارنة بأدونيس على مستوى اللغة والابداع ·· الانسان العربى لا يتكلم عن أشياء حميمة · عن الأشياء الخاصة · الجوانية · فهذا الشكل هو شكل اجتماعى نفسانى مطروح · وهذا المجتمع يرفض الحديث عن أشياء معينة تستسلم الى نوع من الرقابة الذاتية تعتمد على المثل القائل « أعوذ بالله من كلمة أنا » ، والكاتب العربى الذى لا يطرح الذاتيات ، عليه ألا يكتب روايات ليتوجه الى التاريخ والبحوث والشهادات · الرواية المعاصرة والاكتشافات النفسانية قائمة على الذاتية » (١) ·

وفى أعمال أخرى للكاتب ينتقل بين الواقع المعاصر والتاريخ العربى، ففى روايته « معركة الزقاق » التى ترجمت الى الفرنسية ، تحت عنوان « فتح جبل طارق » ، ينتقل بين كل من الماضى الى الحاضر · الماضى هنا هو زمن فتح الأندلس حين عبر طارق بن زياد البحر · أما الحاضر فنراه من خلال طبيب يدعى أيضا طارق · وهذا الطبيب يحب أباه كثيرا · وهو رجل موغل فى التاريخ · يعشقه ويقرؤه بكل شغف · وبين الحاضر الذى يمثله طارق الذى ينضم الى المقاومة · وبين التاريخ الذى فتح فيه العرب الأندلس يحدث المزج · وهذه الرواية هى « جملة واحدة متقطعة مستعادة ، تنغرس فى ذكريات الطبيب فتأخذ منه أحلى وقائع شبابه · وينتهى الأمر بسؤال مطروح ليس له جواب : « أين المنقذ ؟ » · أين المنقذ من تقلبات الدهر والذاكرة ؟ أين المنقذ من تقلبات سلطة الأب وليونة الأم ؟ أين المنقذ من القمع اليومى الذى يواجهه ومن خيبته عند اكتشافه لحقيقة « جبل طارق » المعاصرة : بعض البيوت والصبيان والشيوخ واقفين تجاه الريح العتيدة ·· لا أكثر » (٢) ·

---

(١) الروائى العربى مهووس بالسياسة · حوار خميس خياطى · اليوم السابع ٩ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ·

(٢) المرجع السابق ·

آســـيا جبـــار :

تنتمى الكاتبة الجزائرية آسيا جبـار الى مرحلة وسط بين كاتب ياسين ورشيد بوجدرة • وقد اخترناها لأنها تمثل حالة خاصة وفريدة فى مسألة الابداع ليس فقط لأنها امرأة ، كنموذج للمرأة الكاتبة التى تبدع باللغة الفرنسية ، بل ، أيضا لأنها جربت أسلوبا مختلفا • فاذا كان ياسين قد حاول أن يكتب للمسرح بلغـة عاميـة جزائرية بعد ان عجز عن فعـل ذلك باللغة الفصحى • فان آسيا جبار قد جـربت السينما • حيث تختلف لغة التعبير هنا كثيرا •• فيمكن للفيلم ان يتكلم بلغة الصورة •

وقد جربت آسيا جبار الكتابة باللغة العربية فى مرحـلة ما من حياتها ، الا أنها عجزت تماما عن التعبير عما يجيش به صدرها • فالابداع غالبا له لغة واحدة • وعاشت الكاتبة فى حيرة • فلا رواياتها قرئت فى الجزائر بنفس الكيفية التى تريدها •• ولا هى صنعت افلاما كما تشاء • فعادت مرة أخرى الى الأدب بعد طول انقطاع •

تقول لالا خفاجة : « اذا عاش المرء فى قلب العملية الحضارية وعلى تخومها • فانه ليس موقفا محايدا بين التلوث واللاتطور • لكنه ممارسة للحالتين معا • حاولت الكاتبة الجـزائرية أن تفعل هـذا • عندما تكون امرأة من العـالم الثالث على رصيف باريس • فان الرصيف لا يعطيها جنسية أخرى • سوف يظل انتماؤها للأيدى الخشنة ، لأناس يريدون أن يصنعوا شـــكلا مختلفا للحياة » (١) •

وآسيا جبار المولودة فى الجزائر عام ١٩٣٦ هى نموذج لنســاء عديدات تائهــات بين حضارتين • وقــد قيـل انهـا حاربت الفرنســيين بالفرنسية • وذلك حسبما يقول الكاتب المعروف الان بوكيه • ان الكتابات التى وضعها كتاب شمال افريقيا العرب قد أحدثت الزلزال • مؤكدا انه كان من المفروض أن تترهل الثقافة الفرنسية من السياسة الفرنسية » (٢) •

نشرت آسيا روايتها الأولى « العطش » la soif عام ١٩٥٦ • أى وهى فى العشرين من عمرها • وكما يرى مراد بوربون أنهـا رواية شباب أكدت أن آسيا تمتلك ناصية الموهبة • والسحر والذكاء • وقد مكنها ذلك من الاسترخاء على مخدع الأدب ، وقد قيـل ان آسيا جبار فى تلك السنوات هى فرانسواز ساجان الجـزائر • تمتلك قلمـا خاصا فى سرد الوقائع الباريسية » (٣) •

---

(١) الكلمة للمرأة ـ لالا خفاجة ـ مجلة أوراق ـ العدد ٣٠ ، ص ٢٧ •

(٢) Asia Djabar, jeune afrique, Dec. 1094.

(٣) المصدر الســابق •

وعلى مدى اكثر من اربعين عاما لم تنشر آسيا جبار سوى مجموعة قليلة من الروايات فتشت فيها جميعا عن جذور شعبها التاريخية والاجتماعية • فعندما حصلت بلادها على استقلالها عام ١٩٦٢ • عادت الى الجزائر تهنئها وهى تحمل بين يديها مسودة روايتها الثانية : « أطفال العالم الجديد » وقد فتحت لها جامعة الجزائر ذراعيها • حيث قامت هناك بتدريس التاريخ ولكن الابداع كان يطارد الكاتبة فلم تستغرق طويلا فى التدريس • وفى عام ١٩٦٧ عادت الى فرنسا وهناك نشرت روايتها الثالثة « القبرات الساذجة » Les alouettes naives حول وضعية المرأة المسلمة فى الوطن وفى المهجر • ومنذ ذلك الحين تصدرت آسيا جبار الحركة النسائية العربية فى شمال افريقيا • ففى عام ١٩٦٨ حضرت مهرجان الثقافة الأفريقية فى الجزائر وقدمت مسرحية مكتوبة بالفرنسية تحمل عنوان « الفجر الدامى » Rouge l'aube حول مرارة الاحتلال الفرنسى للجزائر • وعندما ترجمت بنفسها هذا النص المسرحى الى اللغة العربية بدا اكاديميا خاليا من الحياة • وعبثا حاولت اعطاء النص روحه العربية ولكن بلا جدوى • وكأنه من الصعب عليها أن تعود من منفاها داخل لغة أوربية الى لغتها التى من المفروض ان تكتب بها •

أما صدمتها مع السينما الجزائرية فقد كانت ـ حسبما يقول مراد بوربون ـ من أن السينما القومية قد بدت لها باللغة الأكاديمية • وعندما عهد اليها التلفاز الفرنسى ان تخرج فيلما فى عام ١٩٧٧ ركبت سيارة مع كاميرا وذهبت لتصور البسطاء من الناس وجاء فيلمها « نوبة النساء بجبل شنودة » تعبيرا عن دور المرأة الريفية فى حرب التحرير • وقد حصل هذا الفيلم على جائزة مهرجان فينيسيا عام ١٩٧٩ • ثم فيما بعد اخرجت فيلمها الثانى « زردة » •

فى عام ١٩٨٥ حاولت أن تستفيد من تجربتها السينمائية فقامت بتحويل فيلمها الأول الى رواية تحمل عنوان « الحب والفنتازيا » • ومثلما فعلت فى الفيلم فعلت فى الرواية • فكلمة « نوبة » ـ فى الفيلم ـ تعنى مجموعة من العازفين يعزفون الواحد تلو الآخر أو هى تناوب لقطع موسيقية من خمسة فصول ـ وجاءت الرواية كأنها هذه النوبة • مقسمة الى خمسة اقسام لها تأثير الألحان المتعاقبة • وفى الرواية تعطى آسيا جبار الكلمة للنساء • وتجعلهن يتكلمن الواحدة بعد الأخرى • فيصفن الاضرار التى تركتها حرب التحرير الجزائرية على انفسهن وعلى عائلاتهن •

تدور أحداث الرواية حول مصير مجموعة من النساء والفتيات المرتبطات بحضارتهن ارتباطا قويا . واللواتي يصرن فى مرحلة من حيواتهن حائرات فى أمورهن : فهن تارة خاضعات للرجل . وفى تارة اخرى ثائرات على التقاليد والعائلة .

تفتتح الكاتبة روايتها بسير امرأة جزائرية . بدأت تتحرر من القيود التقليدية وقد تأثرت فى صباها كثيرا بالحرب الجزائرية الأولى التى استمرت بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٧١ ، ترى هذه المرأة فى ابيها المعلم الصادق فى عمله . الذى يسعى الى رفع الجهل والتخلف عن الناس بالوسائل التربوية المتاحة فى تلك السنوات . ورغم انه كان يتقبل الكثير من المفاهيم الغربية التى اتى بها المستعمر الى الجزائر . فانه كان يتصرف احيانا طبقا لأساليب التربية التقليدية كما كانت فى الريف الجزائرى . وعلى هذا النحو كانت علاقته بابنته . مع انه أتاح لها أن تتعلم . ومكنها من ان تتصرف بحرية حتى تزال عنها كآبة العيش فى الأوساط المغلقة .

وفى الرواية هناك نماذج لنساء اخريات منهن ارامل . وفلاحات عشن ايضا حرب التحرير : « هؤلاء النسوة لم يمارسن الأدب فى حياتهن . اكثر مما عانين فى الحرب . كانت كلماتهن خناجر . لقد سمعت حكاياتهن تردد . واردت أن اترجمها كى أنقل القرن التاسع عشر داخل صوت من خلالهن (١) .

هؤلاء النساء خرجن من بيوتهن أو مارسن نشاطا غير النشاط المنزلى . لكن بناتهن قد ساهمن مساهمة واسعة فى حروب التحرير الطويلة . قدمن للمجاهدين شتى أنواع الدعم والمساندة الى أن حصلت البلاد على استقلالها . وقد دفعت هؤلاء النسوة الكثير من دمائهن ، فقد كان الجنود الفرنسيون يبطشون بهن أبشع البطش . وصفت الكاتبة بعضا منه وصفا دقيقا مؤثرا . مثل المذبحة التى حدثت فى قرية « القنطرة » القريبة من وهران ، أو فى مذبحة جبل بقمارية فى يوليو ١٨٤٥ . أو تعذيب المجاهدين من نساء ورجال فى قرى أخرى حيث حول الفرنسيون خزانات المياه الرومانية الى سجون حشروا فيها المناضلين والمجاهدين .

لقد اكتشفت الكاتبة وهى تبحث فى التاريخ أن اللغة الفرنسية التى تكتب بها ملطخة بالدم . وحين دققت فى تاريخ العلاقة بين الضباط

---

(١) Dans la crue de la douleur. T. Ben jelloun, le monde 10-5-1985, p. 21.

الفرنسيين واثرياء الجزائر ، رأت أن العنف هو الشاهد الذى تكتب به التاريخ . أو كما تقول : « أنا وريثة هؤلاء القتلى . لقد حاولت من خلال هذا الكتاب أن اثبت أن هناك دما فى ميراث اللغة » (١) . فى احدى الحوادث الدامية التى كانت تهتم بها تتحدث عن وقائع احراق خمسمائة جزائرى فى ١٩ يونيه ١٨٤٥ على ايدى الفرنسيين فى الخزانات السابق الاشارة اليها .

ويقول الطاهر بن جلون ان هذه الرواية هى عن الحب الذى تكنه آسيا نحو لغتها العربية ، لكن لذة الحب لم تعل بعد . فى المجتمع المغاربى التقليدى . فالرجل لا يسمى زوجته أبدا . فهو يطلق دائما على زوجته وأولاده تعبير « البيت » . ووالد الراوية كسر هذه القاعدة . فأرسل بناته الى المدرسة الفرنسية متمنيا ان يكن فى طليعة المجتمع . وقد كان ينادى امرأته دائما بـ « سيدتى » (٢) .

وتقول آسيا فى نفس الحديث عن علاقتها باللغة : « درست اللغة الفرنسية . وأصبح جسدى منسقا على النمط الغربى » . وعندما كان الآخرون يسألون الأب عن السبب فى أن بناته لا يرتدين الحجاب يرد : لانهن يذاكرن . وبفضل المدرسة الفرنسية استطاعت البنات الهروب من الحبس كى يعبرن عن طموحهن . وتعلمت الكاتبة الفرنسية كلغة كتابة وليس سوى ذلك . وهى تقول انها تعلمت الفرنسية كى تسرق شيئا من عدو الأمس .

هذا العدو كم سرق ونهب مدنا بأكملها ! ، وكم أعدم من بشر ! . ولم يكن الفرنسيون فى حملاتهم الانتقامية المزعومة يبقون على الاطفال ولا على النساء ، ويرى الناقد الألمانى بيتر هوفمان بستر أن « الكتاب من أوله الى آخره عرض لشجاعة المرأة الجزائرية واستعدادها للتضحية . ولكن ، ماذا جنت من شجاعتها فى حرب التحرير وتضحيتها ؟ ما نراها اجتنت من شىء ذى شأن . بل على العكس . لقد ازدادت وطأة التقاليد التى تجعل للمرأة دورا فى العائلة لا تتخطاه » (٣) .

وحول هذه الرواية كتب المستشرق جاك بيرك قائلا : « انه يا لسعادة المؤمن أن يجد فى ضيقه سعادة نقية خالصة . وذكرى معبقة بالمستقبل . لذا ، راحت الروائية تستجمع الفرنسية التى ملكت زمامها وجربت موهبتها فى تخيل صورة الحرب . والانغلاق والرغبة . وهى تحلل بلغتها

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) مجلة « فكر وفن » العدد ٥٢ ، ص ٩٤ .

وتتحدث عن مغامرة شعب له حياته • وحيويته • حيث ترى آسيا جبار ذلك الصباح من صيف عام ١٩٣٠ حين حطت جحافل الفرنسيين على حفلات العرس الجزائرى وراحت تقود الرجال الى سجون فرنسا » (١) •

أما رواية « ظل السلطانة » L'ombre du Sultana المنشورة عام ١٩٨٧ فهى بمثابة تكملة لروايتها السابقة • وحسبما تقول الكاتبة « هى قسم من أقسام نوبة العزف • تمثل الرواية الأولى آلة الكمان لأن نغماتها جهورية ولها علاقة بالتاريخ والمأساة • أما « ظل السلطانة » فهى تمثل آلة تصدر أصواتا رقيقة • وبطلة الرواية تدعى حجيلة • امرأة عربية تعيش فى أحد الأحياء الشعبية بمدينة الجزائر • تزوجت من رجل طموح لكنه نموذج للرجل الشرقى الذى يؤمن بالعزلة والانغلاق • لايبتسم قط • وكأن العبوس هو لغة التخاطب بينه وبين زوجته • يأمر وينهى • يطلب منها ان تأتى له بأشياء مثل منفضة السجائر • انه انسان بلا اسم • أما هى — كما كتب خميس خياطى — فامرأة طيبة رقيقة تتأثر بسهولة وبدون عنف • من هنا يأتى اختيار اسم حجيلة لها • على اسم طائر رقيق • فهى فى بداية الطريق • بعيدة عن التمرد والثورة • عاشت مع أمها واختها كنزة فى احدى الضواحى الفقيرة » •

وحجيلة ودت ، ذات مرة ، أن تتمرد على هـذا الزوج الطـاغية فخرجت من الدار ، مثلما فعلت نورا بطلة ابسن فى بيت الدمية « — دون اذنه ودون حجاب • فتشعر لأول مرة وكأنها فقـدت جسـدها وكيانهـا وحريتها « فتصبح مجـرد عيـون ترى ولا ترى ، تنمـو لديها رغبة الرؤية خلسة » •

ومحاولة لتقليل قيمة الرجل • فان الكاتبة تتحدث عنـه بضمير الغائب ، فهو شخص بلا اسم محدد • شبح كبير يأتى ويذهب • وعندما يعرف الرجل أن امرأته خرجت من الدار بدون اذن ينهـال عليها ضربا امام ابنها •

وقد تحدثت آسيا جبار فى نفس العدد من « اليوم السابع » قائلة : « تمثل الحب والفنتازيا » علاقتى بأبى • أما « ظـل السلطانة » فهى تصور علاقتى بأمى • القسم الثانى من الرواية الأولى هو تعبير عن علاقة فتاة بأبيها وبالتالى باللغة • فعوض أن تكون اللغة الفرنسـية لغـة الغير ولغة المستعمر • كانت بالنسبة لى لغة الأب • وهـذه اللغـة فتحت لى أبواب العالم • وأصبحت علاوة عن كونها لغة الآخر ، لغة الحرية •

(١) La langue de l'envahisseur le nouvel observateur 9-5-1985. p. 84.

حين احاول تحليل ذاتى اجد ان اللغة الفرنسية مكنتنى من الهروب من سجن المنزل • لقد حاولت فى هذه الرواية التقرب من اللغة المحلية الجزائرية • ان استعمل لغة النساء اللاتى حافظن على هويتهن » (١)•

وفى تعليقه على هذه الرواية عند ترجمتها الى اللغة الألمانية كتب بيتر هوفمان بستر أن آسيا جبار تروى « بدقة الضغط النفسى الذى تعانيه نساء شابات من جراء الصاح امهاتهن عليهن فى ان يطعن أزواجهن ويقمن بما يطلبونه منهن من الواجبات • فهؤلاء الشابات هنا يكن ضحية لتربية امهاتهن اللاتى يتصرفن ازاءهن بموجب رد الفعل الناتج عن الاحباط والخيبة • لاتشير آسيا جبار فى كتابها الى ما قد تكون غاية هذا النزاع بين الرجل والمراة المستهلك لطاقات كبيرة • كان اولى ان تصرف فى مجالات أخرى • وعلى كل حال سينقضى زمن طويل حتى تصبح المراة مساوية للرجل فى الحقوق ، شريكة له وكفء امام القانون وفى المجتمع وفى العائلة (٢) •

وما دمنا بصدد الحديث عن ازدواجية اللغة عند الكاتب ، فان آسيا جبار قد عانت الكثير من هذا الاغتراب بين لغتين وهويتين ثقافيتين • وقد تحدثت فى مجلة اليوم السابع انه « لاننا لم نكن قادرين على الكتابة مباشرة بالعربية ، فقد بذلنا جهدنا لكى يصار الى ترجمة اعمالنا سريعا الى هذه اللغة • واسفر الأمر عن ظاهرة غريبة • اذ أن ادبنا ، ان تحول الى العربية ، لم يحقق النجاح المرتجى • والذنب هو ذنب عملية العبور هذه اكثر مما هو ذنب نوعية الترجمة • فالجمهور لا يحب هذا النوع من التاقلم • الجمهور الذى يقرأ ابدى الكثير من الحذر • لأنه يفضل أن يكشف الكتاب المغاربية عن نصوصهم مباشرة » (٣) •

رشيد ميموني :

برزت مجموعة من الأسماء المهمة فى الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية فى الثمانينات مثل طاهر جاعوت وعز الدين بونمور الذى مات برصاص المتشددين فى مايو ١٩٩٣ • الا أن أبرز هذه الأسماء واكثرها نشاطا وشهرة وتواجدا هو رشيد ميمونى المولود فى مدينة بودو القريبة من الجزائر العاصمة عام ١٩٤٥ • والذى درس الاقتصاد فى بداية حياته • وقد نشر رشيد روايته الأولى « لن يكون الربيع اكثر جمالا » ،

---

(١) امراة حلمت بشارع مستحيل ، خميس خياطى ، اليوم السابع ٣٠/٣/٨٧ ص ٤٢ •

(٢) مجلة فكر وفن ، العدد ٥٢ سنة ١٩٩٢ ، ص ٩٤ •

(٣) مجلة اليوم السابع ، ١٢ يناير ١٩٨٧ •

فى الجزائر فى عام ١٩٧٨ · وما لبث أن توجه الى فرنسا مع أوائل الثمانينات لينشر فيها أعماله التالية · ففى عام ١٩٨٢ نشر روايته « النهر المحول » التى تدور حول مناضل من الجيش الجزائرى الوطنى فى معركة التحرير · تصور البعض انه قد مات ، فيفاجأون بعودته الى القرية · ولم يكن عليهم سوى أن ينكروه لأن البطل دائما يجب أن يكون ميتا ·

أما روايته « طمبيزه » Tombeza المنشورة عام ١٩٨٤ فانها تدور حول شخص مولود لأم اغتصبها رجل · وانكرتها عائلتها بعد فعلتها الشنعاء التى ليس لها يد فيها · انه يحاول ان يجد لنفسه ظلا فى هذا العالم بأن يكون ثريا · أو شخصا مرموقا ··

وفى عام ١٩٨٩ نشر ميمونى روايته الفرنسية الثالثة والتى لفتت اليه الانظار وهى تحت عنوان « شرف القبيلة » · وقد اكدت هذه الرواية اننا امام كاتب يسير على نهج كافكا ويصنع لنفسه ولابطاله اجواء خاصة · فالى جانب المكان الذى يبدو سعيدا فى رواياته ، وهو غالبا قرية صغيرة ، فهناك مجموعة من الأشخاص مرتبطون بهذا المكان يحاولون الدفاع عنه · والالتصاق باديمه ·

والمكان فى رواية « شرف القبيلة » l'honneur de la tribu هو قرية بعيدة عن الذاكرة تسمى « الزيتونة » · هذه القرية غير موجودة تقريبا على خريطة البلاد · لقد نسيها جنود الاستعمار الفرنسى · وبالتالى فان الثوار لم يفكروا فيها · لأنه حيث يوجد المحتل توجد الثورة ورجالها · ولذا فان القرية معزولة عما يحدث فى البلاد ·

وتبدا احداث الرواية حين يستلم موظف البريد رسالة تفيد بأن رجال المستعمر قد اعلنوا ان « الزيتونة » اصبحت برتبة « قائم مقام » ولا شك أن مثل هذا التركيز المفاجىء على المدينة سيجعلها فى دائرة الضوء · ويرى البعض ان الوضع الاقتصادى سوف يتحسن ·

والرواية تدور على لسان راوية يسمع من أحد شيوخ القرية ما حدث للقرية · فقد جاء ابناء القرية الى هنا بعد فترة قصيرة من الغزو الفرنسى للبلاد ، جاءوا كى يبتعدوا عن هذه النكبة التى أصابت الجزائر · وكان عليهم أن يصنعوا مجتمعا معزولا · ليس فقط عن فرنسا · بل وأيضا عن الجزائر ·

لقد جاء على القرية ذات يوم حاكم عينه رئيس الحكومة الثورية الجديدة · هذا الرجل معروف لدى البعض من القرويين · فهو ابن لأحد الرجال الذين لهم نشاط فى القرية · وهذا الرجل لا يعرف ما هى

مهمته بالضبط ، لذا فليس من الغريب أن يسخر من البعض أو يمزح من الآخرين • ثم لا يلبث أن يتحول الى طاغية • وهنا تتغير ايقاعات الحياة فى القرية التى لم تعرف الطغاة من قبل • فعلى شيوخ القرية أن يقاوموا هذا الطاغية •

ومن الواضح أن الكاتب يعطى اشارة باللون الأحمر حول ما يمكن أن يأتى به أية طاغية للبلاد • ولا شك أن هذا الرأى سيكون هم الكاتب فى أعماله القادمة • وفى أحاديثه الصحفية • بل وفى مواقفه من المتشددين الاسلاميين فى الجزائر (١) •

وفى عام ١٩٩٠ نشر ميمونى مجموعة من القصص القصيرة فى كتاب يحمل عنوان « حزام الغولة » La ceinture de l'orgene حاول فيه من جديد التصدى لظاهرة الطاغية • والطاغية هنا قد لا يكون الشخص • ولكنه قد يكون نظاما اجتماعيا • والكاتب يرى أن الشعب الجزائرى على اختلاف مشاربه السياسية بيروقراطى التفكير • وقد جاء ذلك نتيجة للخمول والتخلف والضغط النفسى والفساد • وتجاوز القوانين والحكومات •

أما روايته فى عام ١٩٩١ فتحمل عنوان « الحياة على الكفاف » Une peine à vivre وتطارد الطاغية بمنظور مختلف أقرب الى روايات الكاتب الأولى التى بدا فيها مدى تأثره بعوالم كافكا • فالرواية تدور أحداثها فى بلد غير مسمى من بلاد العالم الثالث • وفى هذا البلد ، كما فى أغلب هذا العالم ، هناك طاغية ينتظر دائما المزيد من العبيد • وهذا الطاغية يقع فى الحب • وتمتلك امرأة بلا اسم مثله كل مشاعره بشكل يؤدى الى الجنون • وأيضا الى سقوطه من فوق عرشه • وهذا الطاغية اشبه بحكام عرفهم العالم الثالث بجنونهم الملحوظ • من بوكاسا الى موبوتو ونورييجا وماركوس ودوفالييه وربما هو مزيج منهم جميعا •• لقد احتفظ الطاغية بحبيبته فى القصر كأنها رهينة لحبه وراح يحبها حتى الموت •

ويرى الكاتب أن « فعل » أى طاغية هو أن يكون له ضحاياه وأنه فى الغالب شخص يفتقد أهلية العقل • كما تحدث الى مجلة « الشروق » قائلا : « مضمون رواياتى لا يمس عمق فكرة حقا ، فأنا لا احرض الناس ضد التقدم العصرى • وذلك لاننى اؤمن بأنه لا مفر من الحداثة والمعاصرة » •

---

(١) حذار فقدان الذاكرة ـ حوار حسين قبيسى ، مجلة الشروق ١٤ مارس ١٩٩٢، ص ٥٩ •

هذا هو بعض من عالم رشيد ميمونى · آخر الأجيال الأدبية الشابة فى الجزائر ·· والذى وضعته جبهة الانقاذ قبل وفاته فى يناير ١٩٩٥ ، مع أدباء آخرين ضمن المطلوب اغتيالهم واسكاتهم ·· وقد كتب ميمونى العديد من المقالات فى الصحف والمجلات الفرنسية فى الآونة الأخيرة ، هاجم فيها الجبهة · وليس موضوعنا بالطبع التركيز على مواقف الكاتب السياسية فى حياته · قدر اهتمامنا بمسألة لجوء هذا الكاتب الى الابداع باللغة الفرنسية · فلا شك انه بعد الرواية الأولى وجد ميمونى فرصته لدى دور النشر الباريسية · ومثل هذه الفرص لاتتاح لكل من يكتب بالفرنسية · وقد دفع هذا الكاتب الى ان يقدم خمس روايات فى عشر سنوات تقريبا مؤكدا انه أبرز الأسماء الجزائرية ، التى تكتب بالفرنسية بعد رحيل كاتب ياسين ، الذى توقف بدوره طويلا · ووسط حالة من الجفاف الابداعى عند كتاب آخرين موهوبين » ·

الطاهر جاعوت :

وأصبح على الأدباء أن يموتوا من أجل ابداعهم ، من أجل كلمات جميلة كتبوها يوما ما · فكان لزاما عليهم أن يخرج عليهم قوم ملثمون، بغتة ، فى ساعات النهار ، ويطلقون النيران ، فتتناثر دماء فنان ، حاول أن ينثر من حوله الزهور ، وأن يجسد من حوله المشاعر الجميلة ، والنبيلة ·

كان هذا هو حال الشاعر والروائى الجزائرى الطاهر جاعوت الذى لقى مصرعه فى مايو عام ١٩٩٤ فى مدينة الجزائر ، وجاعوت شاعر لم يفعل شيئا سوى أن قرض القصيدة وحاول أن يزرع أملا بكلماته ·

يمثل الطاهر جاعوت واحدا من أبناء الجيل الثالث من الأدباء الجزائريين الذين يكتبون مباشرة باللغة الفرنسية ، فحين ولد فى عام ١٩٥٤ ، كانت الجزائر كلها تستعد للثورة وكان الثوار يقرءون روايات كاتب ياسين ، ومولود معمرى ، ومولود فرعون · وحين كان فى الثامنة، حصلت بلاده على استقلالها ، فالطاهر من مواليد ١١ يناير عام ١٩٥٤ بمدينة أصفهان الجزائرية · وقد درس فى هذه المدينة حتى المرحلة الثانوية ، حيث اتجه الى العاصمة · وهناك حصل على الليسانس فى علوم الرياضة ثم درس العلوم والصحافة ·

وقد تولدت موهبة الطاهر الشعرية فى سن مبكرة ، أى وهو فى الحادية عشرة من العمر ، ورغم لغته الفرنسية ، فانه قد اهتم فى شعره بالواقع الجزائرى المعاصر · وفى عام ١٩٧٥ نشر ديوانه الأول « المدار

الشائك » ثم جاء ديوانه الثانى عام ١٩٧٨ تحت عنوان « القوس حامل الماء » وفى عام ١٩٨٠ صدر ديوانه الثالث « قاطن الجزيرة وشركاه » ٠ أما آخر دواوينه فهو « العصفور المعدنى » ٠

ويمكن تقسيم ابداع الطاهر جاعوت الى مرحلتين منفصلتين تماما ٠٠

كان فى الأولى شاعرا مليئا بالغموض ، ويهتم باللغة ، وتراكيبها المعقدة، انتهت هذه المرحلة تماما عند بداية الثمانينات فتوقف عن القرض٠ واتجه الى الرواية ، حيث نشر أولى رواياته عام ١٩٨١ تحت عنوان «امرأة منزوعة الملكية» ٠ وفى عام ١٩٨٤ نشر روايته الثانوية « الباحثون عن العظام » ومجموعة قصصية باسم « فخاخ الطيور » ٠ وفى عام ١٩٨٧ نشر رواية « اختراع الصحراء » أما روايته « العسس » فقد فازت عقب صدورها عام ١٩٩١ بجائزة البحر المتوسط ٠

وقد تباينت دور النشر التى اصدرت هذه المؤلفات بين دار نشر فى باريس وبين دار نشر جزائرية ٠ وفىعام ١٩٨٤ كلفته احدى دور النشر الجزائرية باعداد مجموعة من مختارات الشعر المعاصر المكتوب باللغة الفرنسية ، بالتعاون مع احدى الصحفيات تحت عنوان «الكلمات المهاجرة»٠

وطوال الفترة بين عام ١٩٧٥ ، وحتى اغتياله فى الثانى من يونيه ١٩٩٣ عمل مشرفا على الصفحة الثقافية فى مجلة « الجزائر الأحداث » التى تصدر باللغة الفرنسية فى الجزائر ، كما كان يراسل مجلة « أحداث الهجرة » التى تصدر فى باريس ٠ وفى بداية عام ١٩٩٣ شارك فى تأسيس مجلة « القطيعة » الأسبوعية وعمل مديرا لتحريرها ، والتى كان هدفها الأساسى عمل قطيعة مع كل فكر ظلامى وضد شد الجزائر نحو الغد ، حيث اهتم بتحديث اللغة والفكر وقد شارك معه فى تحرير المجلة أدباء من طراز « رشيد بوجدرة ورشيد ميمونى » الذى قرر الهجرة الى المملكة المغربية عقب اغتيال جاعوت بعد أن أصبحت حياته فى خطر ٠

وابداع الطاهر جاعوت يميل الى الغموض وليس من السهل قراءته حيث يدور النص كما جاء فى موسوعة الأدباء الجزائريين حول مفاهيم خاصة مثل اللغة والهوية والمنفى ٠ ومن بين قصائده المنشورة فى ديوان « القوس حامل الماء » ، يقول : (كما ترجمه الى العربية الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى) تحت عنوان « أمل » :

الشعراء

وهيكل الأنوار

المشيد من فقار ظهوركم
هل تجد فيه أخيرا ··
هذا الخبز الذى نبحث عنه ؟
أسمعها تصعد من فوقكم ··
ضجة الأنهار ··
ومن أحضان هياكلكم المتصلبة ··
ينبجس رفضكم أن تتسلقوا ··
جدار الصمت !

★★★

أشتهى أن أعيد (····) كل شىء
فى جسد ـ عاصفة
لقد فقدت الى الأبد
نجم الرحلة الهادىء
وعلى أن أواصل تشردى
آه ·· كم هو ثقيل جلد الشاعر !

★★★

سأغنى حتى اللحظة
التى تصبح فيها المتعة
انفجارا فى الرأس ··

★★★

هل أتحمل قدرى الغاشم ؟
داخل جلدى المؤقت ··
هل لى مكان بين النجوم ؟ ··

ليس هناك الا الخوف من أن ينتزعوا حلمى » ..

★★★

فى حديث للكاتب الطاهر جاعوت الى مجلة « شئون عربية » التى تصدر باللغة الفرنسية (عدد نوفمبر ١٩٩٢) يقول عن مرحلة تحـــوله فى بداية الثمانينات من قرض الشعر الى الرواية : « الأنواع الأدبية التى مارستها قريبة جدا من بعضها البعض · وخاصة فى هذه الأيام ، حيث لدينا كتابة متفجرة · فمنذ عام ١٩٨١ ورغم أننى نشرت روايات فقط فاننى استمررت فى كتابة القصائد · فمازلت أكن للشـعر وقارا كبيـرا · والشعر بالنسبة لى هو الشكل الأكثر قبولا · والأكثر ســـعة حتى من الرواية نفســها التى لا يمكنهــا أن تسبح فوق سلم ملىء بالمرونة · ولهذا فاننى لم أعتبر نفسى روائيا · وأعتقد أننى كاتب أكثر منى روائيا · وأهم شىء فى أى كتــاب هو أننا نمارس فيــه الكتابة · والعمل على مســتوى اللغة التحول فالحكايات لا تهمنى كثيرا · وانا لا أجيـد قص الحـكايات سوى تلك القصص الخـرافية التى رويتها فى « الباحثين عن العظام » ·

والغريب أنه رغم هذا الرأى الذى ذكره الطاهر جاعوت فانه لم ينشر أية قصائد منذ اتجه الى كتابة الرواية ، وبدت هذه الكلمـات أشـبه برجل يشعر بأنه خان حبيبته السابقة ، فراح يعدد فى مآثرها دون أن يعود اليها أو أن يترك حبيبته الجديدة ، لأنه بكل بساطة غير قادر على اتخاذ القرار أو لم تعد لديه القدرة على ذلك · خاصة أن تلك الحبيبة لديها من وســائل الجــاذبية ما يجعله سابحا فى نهرها المتــدفق ·

فاذا كان الشعر قد عبر فيه الطــاهر جاعوت عن لحظة آنية ، مليئة بالغموض ، اهتم فيها بتجريب حاد مع اللغة ، فانه فى رواياته قد عاد الى طفولته الى تلك السن المليئــة بحكايات جــذابة ســاحرة ، فالكاتب هنــا لا يستهويه ما يحدث على الساحة الاجتماعية والسياسية فى بلاده ، لذا فانه يهرب الى زمن الطفولة · حيث تتملك المرء شهوة الحياة فى مجتمــع مثالى · والرغبة فى الرحيل الى الفضاء الرحب · وفى نفس الحــديث المشار اليــه عبر الطاهر جاعوت عن هذه الحالة التى انتابته قائلا : «اعتقد أن الطفولة تلعب دورا بالغ الأهمية فيما أكتبه · فروايتى الأخيرة « اختراع الصحراء » ، تنتهى بالطفولة · انها نوع من السيرة الذاتية للعــديد من الشخصيات تبدأ بسن البلوغ وتنتهى بالطفولة مظللة بكل المشاعر التى يحسون بها وهذا هو حــال كل أبطال الرواية » ·

« بالنسبة لى فان الشيء الوحيد الحقيقى هو الطفولة · ولا شــك أن تعلقى ببلاد هى فى المقام الأول وطنى وكان سببه ما تلقيته فى طفولتى وجعلنى أنتمى الى هذا البلد · ولهذا فان رواياتى الأربع لا تحتفى بالنزعة القومية بنفس الشكل الموجود فى الأدب الجـزائرى بشكل عام » ·

« علاقتى بالتاريخ الوطنى والقومى هى علاقة انتقــادية ، قائمــة على أساس تناقض التاريخ القومى وعلى الذاكرة التجميعية والتــاريخ الشخصى وانا أحس دوما أن هذا التــاريخ الشخصى يساهم فى خنــق المشاعر القومية الحقيقية · ويضع ذلك كله فى اطار ضيق وبالغ الحدة· اما أنا فاننى انتمى لتاريخ آخر يتمثل فى حق كل شخص فى تاريخـــه وفى ذاته المتســـعة » ·

وكما أثار الطــاهر جاعوت نقاده فى فهم عالمه الصعب والغـامض وكما أثار قائليه الذين اغتالوه لمجرد أنه كتب دون متــابعة أعماله ، فان الطاهر جاعوت قد نفى عن نفسه أنه كاتب ملتزم ، حيث قال فى حديثــه الى مجلة « شئون عربية » السابق الاشارة اليهــا : « لم أكن ابدا كاتبا ملتزما ، فذلك نوع من الفخاخ ، كان يمكننى أن أسقط فيه عندما بدأت فى الكتابة ، ففى تلك المرحلة من الشباب المبكر كان المنــاخ العـــام فى الجزائر ثوريا للغاية ومع ذلك لم أسقط فى ذلك الفخ ؛ لأننى فهمت الثورة الجــزائرية بمفهومى الخــاص » ··

ويكمل الطاهر جاعوت فى حديثه الى الكاتب عبد القادر زغـلول قائلا : « انا كاتب يدافع عن القيم الأخرى ·· فلديها معان أخرى فى بلد مثل بلادنا ، وانا أحاول أن أعبر عن مواقفى فى الصحافة ، وليس هنــاك موقف نضالى فى كتاباتى ليس هنا موقف نضالى قوى · وقد رفضت دوما أن أضـــع نفسى فى أطــر أيديولوجية · ومرجعى فى ذلك هو عاطفتى الخاصة · واذا كنت أؤمن كثيرا بالأدب ؛ فانى أؤمن بشكل أقل فى بعض المفاهيم والقيم السياسية فالكتابة بالنسبة لى مسألة خاصة · محاولة لتجديد العالم من حولنا »

★★★

قائمة بأهم الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية

آبا ، نور الدين (١٩٢١) :

ولد فى مدينة سطيف · درس القانون فى الجزائر · ثم سافر الى فرنسا وايطاليا · عمل صحفيا وناضل من اجل القضية الفلسطينية · ثم عاد بعد طول اغتراب الى الجزائر عام ١٩٧٧ · شاعر · من أهم دواوينه : « فجر الحب » عام ١٩٤١ ، و « وراء الطلال » عام ١٩٤٢ و « أبواب الغروب » ١٩٤٣ ، و « اغنية ضائعة لبلاد عائدة » ١٩٧٨ ومن مسرحياته « آخر يوم للنازى » عام ١٩٨٢ ·

حمروش ، تاوس (١٩١٣ ـ ١٩٧٦) :

ولدت فى تونس · شقيقة جان حمروش · تنقلت بين باريس وتونس · بدأت نشاطها بكتابة الاغنية · تزوجت من فنان تشكيلى · وعملت فى الراديو التونسى · روائية وشاعرة من أهم اعمالها : « البذرة السحرية » ، ١٩٦٦ ، ورواية « العاشق الخيالى » عام ١٩٧٥ · ومجموعة كبيرة من الاغنيات ·

حمروش ، جان (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) :

اسمه الحقيقى جان المحب · ولد فى قبيلة صغيرة · وهاجر مع أسرته الى تونس · ودرس هناك ، عمل مدرسا · ثم سافر الى أوروبا · وعندما عاد الى الجزائر عمل فى الاذاعة الفرنسية كما عمل فى الاذاعة الجزائرية · مارس السياسة · توفى فى باريس · شاعر · من أهم دواوينه المنشورة فى تونس « رماد » ١٩٣٤ و « النجمة المقدسة » ١٩٣٧ · كما نشر مجموعة من اللقاءات مع بول كلوديل · واندريه جيد وفرانسوا موریاك ·

بلغانم ، ويبر (١٩٢٥) :

ولد فى باريس · عمل بناء · واقام فى الجزائر · ثم رحل الى باريس ، شاعر من اعماله « نزهة مع ظلك » عام ١٩٥٤ ، « ليلة اتالى »

١٩٢٥ · و « القفزة المستعادة » عام ١٩٧٤ ، ومسرحية عن «سبارتاكوس» عام ١٩٧٠ ·

بوجدرة ـ رشيد (١٩٤١ ـ) :

(انظر الفصل الخامس) ·

الحمراوى ، على (١٩٠٢ ـ ١٩٥٠) :

ولد فى أسرة من عين الحمام · سافرت أسرته الى مكة · ثم استقرت فى الاسكندرية عام ١٩٢٢ · سافر الى بلاد عديدة · واستقر فى القاهرة · مات فى حادث عام ١٩٥٠ · روائى · نشرت روايته « ادريس » عام ١٩٤٨ · ثم أعيدت طباعتها باللغة العربية عدة مرات ·

جبار ، آسيا (١٩٣٦) :

(انظر الفصل الخامس) ·

حاجى ، بشير على (١٩٢٠) :

ولد فى أسرة بسيطة · ودرس فى المدرسة القرآنية · ثم فى مدرسة فرنسية · عمل فى مجال النشر · دخل السجن عام ١٩٥٤ · اقام فى باريس والجزائر · شاعر · وكاتب مقال · من أهم رواياته « أغنية من أجل ١١ ديسمبر » ١٩٦١ ، و « لتستمر البهجة » ١٩٧٠ ·

جاعوت ، الطاهر (١٩٥٤ ـ ١٩٩٤) :

(انظر الفصل الخامس) ·

محمد ديب (١٩٢٠ ـ) :

(انظر الفصل الخامس) ·

عمرانى ، جمال (١٩٣٥) :

ولد فى سور الغزلان · ودخل السجن عقب اشتراكه فى مظاهرات ، هاجر الى سويسرا واشترك فى اصدار العديد من الصحف الجزائرية مثل جريدة « الشعب » · وعمل فى الاذاعة · شاعر · من أهم دواوينه : « اغنية للأول من نوفمبر » ١٩٦٤ ، « شمس ليلنا » ١٩٦٤ · و « أيام

بلون الشمس » ١٩٧٩ · له مجمـوعات قصصية منها «الغـروب الأخير» ١٩٧٨ ، ومن مسرحياته « بين الأسنان » و « الذاكرة » ١٩٧٩ ·

فارس ، نبيل (١٩٤٠) :

ولد فى القبيلة الصغيرة · التحق بالجيش · درس الفلسفة · رحل الى أماكن عديدة فى العـالم · روائى وشاعر · من رواياته : « يحيى قليل الحظ » ١٩٧٠ · و « عابر الغرب » ١٩٧١ · و « حقـل الزيتـون » ١٩٧٢ و « ذكريات الغائب » ١٩٧٤ · و « موت صلاح بيه » عام ١٩٨٠ · اما دواوينه فمنها أغنية عقـالى » ١٩٧١ ·

فرعـون ، مولود (١٩١٣ ـ ١٩٦٣) :

ولد فى القبيلة الكبيرة · ابن اسرة ريفية · عمل فى الزراعة · ثم ذهب الى المدرسة · ثم عمل فى التدريس · اغتيل فى عام ١٩٦٢ · روائى وشاعر من أعماله الروائية : « ابن الفقير » ١٩٥٠ · و « الأرض والدم » ١٩٥٣ · و « أيام القبيلة » ١٩٥٤ · و « طرق صاعدة » ١٩٥٧ · ومن أعماله الأخـرى : « أشعار سى مهنـد » ١٩٦٠ · و يوميات ١٩٦٢ · ١٩٦٢ · و « نصوص جـزائرية » ١٩٦٢ ·

معمرى ، مولود (١٩١٧) :

(انظـر الفصـل الخـامس) ·

ميمونى ، رشيد (١٩٤٥ ـ ١٩٩٥)

(انظـر الفصـل الخـامس) ·

ياسـين ، كاتب (١٩٢٨ ـ ١٩٨٩) :

(انظـر الفصـل الخـامس) ·

الفصل السادس :

الأدب المغربى المكتوب باللغة الفرنسية

استطاع الكاتبان المغربيان أحمد سفريوى وادريس شرايبى ان يفتتحا الابداع المغربى المعاصر فى عام ١٩٥٤ بروايتين شهيرتين هما « علبة العجائب » la boite au merveille و « الماضى البسيط » le passé simple المكتوبتين باللغة الفرنسية . وكما جاء فى كتاب la litterature francophonie depus 1954 فان هذا التاريخ يعتبر بمثابة مولد للأدب المغربى المكتوب باللغة الفرنسية . وقد صنع هذا الأدب جيلا موازيا للجيل الجزائرى الذى ظهر فى عام ١٩٥٢ مثل محمد ديب ومولود فرعون وغيرهما وليس من المنصف أن نقارن بين عطاء نفس الجيل فى البلدين ، وذلك لاختلاف العديد من الظروف التى عاش فيها الكاتب فى كل من البلدين . فلا شك أن الحضور الثقافى الفرنسى فى الجزائر كان أشد واقوى . وقبل هذا العام ، على سبيل المثال لم يكن يوجد فى المغرب أدب فرنسى مثلما حدث فى الجزائر . كما أن اللغة العربية لم تكن تائهة فى المغرب مثلما حدث فى الجزائر . وعليه فان أديبين مثل شرايبى وسفريوى كانا يجيدان اللغة العربية الفصحى مثلما يجيدان اللغة الفرنسية . وسوف نرى أن الكثير من هؤلاء الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد درسوا علوم القرآن فى طفولتهم وحفظوا سوره الكريمة . فى نفس الوقت الذى لم يبتعد فيه البربر عن الثقافة العربية .

وقد عرفت المغرب أدباءها الذين يكتبون بالفرنسية ، كما عرفت الذين يكتبون بالعربية . ولا شك أن الحركة الأدبية المغربية قد أفرزت عددا أقل من الأسماء البارزة من مثيلتها فى الجزائر ، ليس فقط من حيث العدد بل أيضا من حيث الأهمية . ومن ابرز هذه الأسماء التى ظهرت فى نهاية الخمسينات محمد خير الدين . وعبد الكبير الخطيبى . ومصطفى نيسابورى . وأيضا عبد اللطيف لعبى .

والغريب ان أول مجلة ادبية ظهرت فى المغــرب كانت ، كما جــاء فى الكتاب المذكور ، تحمل اسم « انفاس » وقد صدرت عام ١٩٦٦ . وفى العدد الأول من المجلة · بدت الشكوك حول الأدب العربى المكتــوب باللغة الفرنسية · وتساءلت المجلة : « هل يجب أن نصرح أن هــذا الأدب لا يخصنا أكثر من أنه جزء بسيط منا ؟· ليست لدينا اجابة حول حاجتنا لأدب يحمل ثقل واقعنا الحالى ، فى مواجهة ثورة متوحشة تلطمنا » .

وقد اهتمت المجلة دوما بالدفاع عن الأدب المكتــوب بالفرنسية ، باعتباره عربيا · ولا شك أن غير هـــذا قد دفع بالأدباء المغــاربة الى الاحساس بأنهم غــرباء فى وطنهم فترك أكثرهم بلاده ورحــل ادريس شرايبى الى بقاع الأرض كلهـــا على سـبيل المثال ، قبل أن يســتقر فى فرنسا · وفعل مثله عبد اللطيف لعبى · ثم الطاهر بن جلون ·· وزادت أهمية التعامل مع هذا الأدب · فاذا انتقد المجتمع المغربى تصوره البعض يهاجمه ، وأن كاتبه مدفوع من الاستعمار لتشــويه صورة العــرب · وقد حدث ذلك بشكل واضح مع ادريس شرايبى عنــدما نشر روايته الأولى « الماضى البسيط » Le passé simple فى عام ١٩٥٤ حيث اثارت الرواية فضيحة فى الأوساط المغربية · وراحت الصحف تكيل له السباب والشتائم وطولب باعدام الكاتب · فلم يكن احد من الشعب المغربى يتصور أنه فى اللحظة التى يشحذ فيها الجميع الهمم من اجل النضــال للاستقلال · فان كاتبا ينشر رواية مليئة بالعنف حول تمرد شاب ضد أبيه · هــذا الأب كما تصوره الرواية اقطاعى و « سيد » زمانه · وهو جلاد الأسرة · ورغم الأدب الطاغية ، فان التقاليد لا تحبذ قط أن يتمرد ابن ضــد أبيه · فلا شك أن هذا يسقط كافة القوانين الاجتمــاعية · وفى فصل من الفصول يتحدث الابن عن أبيه وهو يمسك السكين ويفكر فى أن يقتله · يبتســم الابن وهــو يمسك السكين التى استعملها فى فتح كتبـــه · كما استعملت فى ذبح الدواجن فى عيد الفطر · وحز رقبة الخروف فى عيد الأضحى ·

وقد دفعت الظروف بشرايبى أن ينكر أية صلة له بالرواية · ثــم سافر الى بلاد عديدة لسـنوات طويلة منها ايطــاليا وألمانيــا والنمســا ويوغسلافيا وبريطانيا · وتقول موسوعة ادباء المغرب باللغة الفرنسية ان شرايبى قد عاش فى اسرائيل عامين (أو بالأحرى شــهرين) باســم مستعار (١) · وقد نشر شرايبى رواياته كلها فيما بعد باللغة الفرنسية · منها رواية « التيوس » les boucs عام ١٩٥٥ · و « الحمار » l'ane

---

(١) Dictionaire des auteurs maghrebiens. jean Dejeux , Karthala, Paris, 1984, p. 231.

١٩٥٦ · ثم « الحشد » la foule ١٩٦١ و « الحضارة أمى » la civilisation, ma mére ١٩٧٢ ، وفى هذه الروايات كان ـ شرايبى يتحدث بأسلوب انتقادى واضح للمجتمع المغربى · فهو يرى ان العالم يتغير بينما بلاده لاتزال شابة صغيرة ·

أما الجيل التالى الذى جاء بعد شرايبى وسفريوى فهناك محمد عزيز الحبابى الذى عرف كفيلسوف وأستاذ جامعى · وهو يكتب باللغة العربية · كما كتب أيضا بالفرنسية · ثم هناك فيلسوف آخر يدعى عمانويل منير ·

ويعتبر عبد اللطيف لعبى واحدا من الأدباء المرموقين فى جيل الستينات · حيث اصدر مجلة « انفاس » باللغتين العربية والفرنسية · ولكن نشاطه الغالب هو قرض الشعر باللغة الفرنسية · أما مصطفى نيسابورى فهو شاعر آخر جمع قصائده المكتوبة بالفرنسية فى ديوانين الأول فى عام ١٩٦٨ تحت عنوان « ذاكرة عالية جدا » · ثم « ألف ليلة وليلتين » عام ١٩٧٥ ، وبينما ازدهرت الرواية المكتوبة بالفرنسية فى الجزائر · فان الشعر المكتوب بالفرنسية قد ازدهر فى المغرب · على أيدى محمد خير الدين وزغلول مرسى ·

لذا ، فليس من الغريب أن يبدأ الطاهر بن جلون ، عند ظهوره فى اوائل السبعينات ، ابداعه كشاعر · وقد التصق بالشعر فترة قبل أن يتجه كلية الى الرواية · ونتيجة لأهمية بن جلون كاديب يكتب باللغة الفرنسية ، ويعتبر الآن واجهة هذا النوع من الأدب المغربى فاننا سوف نخصص الجزء الغالب من حديثنا عن ابداعه ·· خاصة ان هذا الابداع قد توج فى عام ١٩٨٧ حين فازت روايته « ليلة القدر » بجائزة جونكور وهو بذلك أول عربى يحصل على مثل هذه الجائزة المهمة ·

والطاهر مولود فى مدينة فاس فى عام ١٩٤٤ · وقد كان الولد الوحيد فى اسرة لم تنجب سوى البنات · وسوف نرى ان هذه التجربة قد أرقت الكاتب كثيرا وعبر عنها فى روايتيه « ابن الرمل » و « ليلة القدر » · وقد هاجرت الاسرة بينما الطاهر فى العاشرة من عمره الى مدينة طنجة · وظلت هناك ثمانى سنوات · وعندما بلغ الثامنة عشرة سافر الى مدينة الرباط لدراسة الفلسفة فى الجامعة · ثم توجه الى مدينة تطوان عقب تخرجه فى عام ١٩٦٨ من اجل العمل كمدرس للفلسفة · وانتقل بعد ذلك الى الدار البيضاء · نشر أولى قصائده فى عام ١٩٦٥ ثم قرر ان يدرس علم النفس فى باريس · والتى اختارها للاقامة منذ عام ١٩٧١ · حيث وجد وظيفة مناسبة فى جريدة لوموند التى لايزال يعمل بها حتى الآن ·

نشر الطاهر بن جلون ديوانه الأول « رجال تحت كفن الصمت » hommes sous linceul de silence عام ١٩٧١ فى الدار البيضاء · أما بقية أعماله فنشرت جميعها فى باريس وهى على النحو التالى : « ندوب الشمس » ci catrice du soleil – ديوان شعر – عام ١٩٧٢ · و «حرودة» Harrouda رواية عام ١٩٧٣ · ثم « احاديث الجمل » le discours du chameau شعر عام ١٩٧٤ وديوانه « بذور الجلد ·· أصيلة ·· ذكريات الطفولة » Grains de peau .. Asilah وهو كتاب نشر فيه محمد بن عيسى – وزير الثقافة المغربى – مجموعة من الصور · وفى عام ١٩٧٦ نشر بن جلون كتابه « ماتت اشجار اللوز متاثرة بجراحها » وهو عبارة عن مقالات قصيرة وقصائد شعر ·· وفى نفس العام نشر مختارات من الشعر المغربى الحديث باللغة الفرنسية تحت عنوان « ذاكرة المستقبل » · وفى روايته الثانية « انزواء العزلة » la réclusion solitaire وفى عام ١٩٧٧ نشر مجموعة مقالات فى علم النفس حول رسالة الدكتوراه التى كان يعدها تحت عنوان « منتهى العزلة » la plus haute de solitude ثم جاءت روايته « موحا المجنون · موحا العاقل » عام ١٩٧٨ · وفى عام ١٩٨٠ عاد مرة اخرى الى الشعر ليقدم ديوانه « خبايا الذاكرة » · A l'insu de souvenir ، وفى نفس العام ترجم الى الفرنسية رواية « الخبز الحافى » le pain nu لصديقه محمد شكرى وكتب لها مقدمة بالغة التميز ·· ثم نشر روايته « صلاة الغائب » عام ١٩٨١ · وقام فى عام ١٩٨٢ بنشر مجموعة من النصوص تحت عنوان « منفى الحجارة » l'exil de pierres وفى عام ١٩٨٥ نشر روايته « ابن الرمل » وجاءت روايته « ليلة القدر » عام ١٩٨٧ لتحصل على جائزة جونكور · وفى عام ١٩٨٩ نشر روايته « يوم الصمت فى طنجة » ثم نشر روايته « غض البصر » عام ١٩٩١ ، و « تصاعد الرماد » ، و « الملاك الأعمى » ١٩٩٣ ، و « الرجل المحطم » ١٩٤٤ ·

ورغم أن الكاتب يعيش فى باريس وينشر باللغة الفرنسية ، الا ان كل أعماله تدور أحداثها فى المغرب ·· بين مدنها وفوق اديمها · وأبطال هذه الروايات هم مغاربة وعرب فى المقام الأول · ولعل هذا هو سر مذاق الكاتب · وكما جاء فى جريدة الوطن الكويتية انه « كلما كنا قريبين من مسقط رؤوسنا امتلكنا أكثر الفرصة فى أن نخاطب العالم كله · وفى أن نكون مفهومين من الجميع · واذا كتب احدنا رواية عن الانسان عموما فانه لا يؤثر فى اى قارىء بشكل خاص » ·

« اذن ، هويتى واضحة · هى عربية ومغربية · وبالتالى فان كتبى تشهد على هذا الانتماء » (١) ·

ويقول بن جلون فى نفس الحديث انه « لا مشكلة هوية لدى · أقـول ان لغتى هى الأدب · ولا اشك فى عروبة ما أكتب · ومن البـدهى أن يكون هذا الأدب الذى أكتبـه عـــربيا فى الجـوهر والروح وليس فى الكتابة » ·

« لم نعد كتابا هامشيين فثمة جمهور كبير يتابعنا الآن · وهو الذى يمنحنا الشرعية والاعتبار ، وليست الأوساط الأدبية الفرنسية » ·

ولو نظرنا الى ابداع بن جلون ، فسنراه مرتبطا فى المقـام الأول بالمكان العربى · قضاياه · ومشاكله · ومعاناته · وقد بدا هذا بشكل واضح فى كتابه « ماتت اشجار اللوز متاثرة بجراحها » فهو على سبيل المثال يدافع عن القضية الفلسطينية والفلسطينيين · ويقول فى خطاب له وجهه الى ابنه : « لقد توقف اليوم داخل تجعيداتى منذ أن مرت آلاتهـم الدامية فوق منـزلنا · كم هى مرعبـــة تلك السـيارة الضـخمة التى تنتهش الشىء القليل الذى بقى لنا : قطعـة من الأرض · سقف وثـلاث أشجار · انها آلة تصنع الضوضاء ، تلمع الشمس وتنفجـر فى الضحك المتواصل عندما تخرج من الزهور البرية الصغيرة الهشة التى تسعى الى النمو · رأيت أسنانه المصفرة من دماء الأرض التى تحطمت فوق حفنـة رمال · رياح خفيفة تحز جـذور الشجرة · تهبط الشمس وتجمعها · اعتقد انها تسكن سحـابة صغيرة جامـدة لا تتركنا منذ ان كنـا بلا سـقف · بلا مأوى · اخوك الصغير يجـرى كى يقفـز · كتب المدرسـة يعلـوها التراب · لقد خفنا · وحاولت الآلن أن تلتهمها » ·

« مجروحون من أرضـنا · خجـولون فى أشـجارنا · كنـا هنـاك ثلاثتنا · يصيبنا موت مفاجىء وجزء منا أعتقد انه قد مات · لقـد انتزعوها بالطبيعة فى الفجر ، ظللنا هادئين · فتحوا جراحنا واحتسينـا موتنا · كان له طعم المر · قالت أمك ان لها ــ جراحنا ــ عطر الياسمين · فتحت السماء على نداء العصفور اليتيم · ولاحظنا جسد الضوء مغطى بالدماء الجديدة · ترنحت السماء فى هذا اليوم لأن الظلم العارى قـد سطر خطوطه فوق أرضنا وأجسادنا » (٢) ·

---

(١) لسنا هامشيين · عقل العويط · جريدة الوطن (الكويت) ١٩٨٩/٤/٢٥ ·

(٢) Les amandiers, sont mort de leurs blessures. T. Ben jelloun, maspero, Paris, 1976.

وبهذه اللغة الشاعرية الراقصة يكتب الطاهر مقالاته السياسية . في مقال له ، أو لعله نداء باطني ، الى الشاعر الفلسطيني محمود درويش بعنوان « أرض يتيمة » يقول : « محمود درويش . هو هذا الصوت الذى يشدو بالحب . صوت مشدوه بالشعور المضفرة من البساتين التى تركها عند الفجر . فى سن السابعة . عاش فى دير السد . الأرض محتلة . فوق أرضى « بوطنية لا حدود لها » . غير محددة المصير . والكرباج الذى يسقط من الضحك عندما يحوم الطائر بين السحب وزبد البحر . عاش محمود فى حيفا حتى عام ١٩٧٠ . وفى كل يوم يقدم شعرا وحجرا . يصنع من كل جملة حقلا من الوحدة المليئة بالصور وفروع أشجار الزيتون . انه منفى خارجى . فى موسكو والقاهرة ثم بيروت حيث اثار ضجة عابرة » (١) .

وفى مقال آخر بعنوان « العربية . العربية » حول زيارته للمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة ومدى شعوره بالرهبة والخشوع الذى أحس به كتب : « ليست الصحراء قصيدة . ولكنها أيضا افكار مسبقة . وصورة ملونة مرسومة بالنيون أعلى العمارة التى لا تنتهى فى أركان الشوارع التى لا سقف لها . انها ذكرى شاحبة . تنتقل فوق جبين السحب التى تبدو فى وجه السماء حيث تكمن النجوم » .

وتؤلم الوحدة الكاتب دوما . ويقول : « انا صغير فى وحدتى . لكننى أضحك . لم أقص لحيتى هذا الصباح . وليس هذا أمرا جسيما . فلا احد ينظر الى . انهم يقرءون فى الدهاليز . يقرءون فى المترو . لا يضيعون أوقاتهم . بينما اقف فى الممرات أسمع الشباب يغنون . فاضحك وأفرح . سوف اتكلم مع أى شخص . لا ، سوف يعاملنى كشحاذ . من هو الشحاذ . من هو الشحاذ فى هذه البلاد ؟ لم اره قط . اناس ينزلون متكاتفى الأيدى . وآخرون يصعدون . أشعر أنهم متشابهون . سوف أتكلم مع هذا الثنائى ، سأجلس امامهما طالما أن المكان شاغر . وسوف اخبرهما بشىء لطيف أشبه بمواء القط أو عواء الذئب » (١) .

وما يكتبه الشاعر هنا فى صورة مقالات ليس سوى نوع من التعبير الشعرى المنثور عن اشياء يحسها . ولذلك فان هذه الانطباعات قد بدت مجسمة كثيرا فى هذا الكتاب عن القصائد . لكن موضوع الوحدة الذى يعانى منه الكاتب يطارده فى قصائده وانطباعاته .. فهو يكتب عن « طبوغرافية » الوحدة . وهناك مجموعة قصائد قصيرة متناثرة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

جمعها تحت عنوان « أصيلة · فصل الزيدة » وهى قصائد لا تزيد كل منها بأية حال عن خمسة أو ستة أبيات · قليلة الكلمات مثل :

أدير رأسى للمدينـة

وأهازج البحــر

واستعيد صوتى

كأنه المـرج

الأطـلال تحتفظ بندوبهـا

ويسكب الزبد ملحا فوق الهلب

ملح كثير يثير مشاعر الأطفـال

وفى آخر مجموعة من هذه القصائد هناك قصيدة رائعة يقدمها قائلا: « أنا فى الحكمة والحقيقـة · امتلك مفـاتيح المدينة · سـيد البحـار والصيادين · أنا اليوم مقبرة فى الأرض الرطبة · أجمـل المقابر التى أصابها الجنون · حيث ينـام فيها المجـانين ومرضى الحب · المرضى الحقيقيـون » ·

·· أما القصيدة فيقول فيها :

أنا مجنون بعائشـة

الأكثر حسـنا من القمر

النقيـة كجنونى

ليس من الصـدى

أن أبكى وأصيح وأسكت

أرقص فى اللهب

وأتكلم مع المـوتى

بينما يرتجف المفتـاح

كتاب مفتوح للأطفال الخـائفين

أنا مقبرة الفقراء

أما كتابه « ندوب الشمس » فهو يضم كذلك مجمـوعة من القصائد الطويلة استوحاها من جو المغرب وأطلق عليها اسم « مراكش » كما يضم قصصا قصيرة بلا عنوان · ثم ثلاث قصص أقرب الى الانطباعات منهـا

الى فن القص حيث مزج الشعر بالسرد لدرجة يمكن تصورها قصائد قصصية قصيرة · مثل « الجمال » و « الشجرة » وهى كلها تعبر عن الحياة فى شمال افريقيا : « من وقت لآخر تمد الشجرة نبضاتها · وتتمدد جذورها · سرعان ما يستفيد منها الأطفال كى يخرجوا ويلفوا فى الغابة العارية وهم سعداء · تدور الشمس بين أصابعهم · ويفتحون أذرع السماء · ويهرب الصباح بين أشواكها · كى يشهد على ابصار المهاجرين » ·

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب يقدم بن جلون انطباعه حول الكتابة قائلا : « اكتب لأنه ليس لى وجه · أكتب لأعبر عن التناقضات · التناقض الذى يقربنى من كل هؤلاء الذين ليسوا انا · من كل الذين يصنعون الجنود الذى يسيطر على ويخوننى · لا اكتب « من أجل » أو « فى » او « مع » اى منهم · القى نفسى فى موكب · وأهرول الى عزلتى حيث الكلمة لامئة ويصبح الفراغ اكثر اتساعا » (١) ·

ويضم ديوان « أحاديث الجمل » مجموعة من القصائد المغربية المجنونة التى تعكس شعور الكاتب بفراغ الوحدة والحنين الى الألفة · وبين بعض فقرات وقصائد الديوان ، يقدم الطاهر بن جلون كالعادة مقتطفات نثرية اختارها هنا من كتاب « هكذا تكلم زرادشت » لنيتشه · وقد أهدى احدى هذه القصائد الى الشاعر محمود الهمشرى التى يقول فيها :

لا تبكوا الموتى
لقد تعلمت من الرمال
وتعلمت من الشجر
وتعلمت من الشمس
أن الموتى ليسوا فى حاجة الى دموعنا

ويبدو بن جلون مهموما دائما بقضية فلسطين · فى ديوانه عن « خبايا الذاكرة » يكتب أشعاره عن قضية فلسطين وعن الحرب الأهلية فى لبنان · ويبدو مدى تغلغل مشاكل بلاده العربية فى وجدانه وهو فى مهجره الذى اختاره · فهو يفكر فيها وهو يركب المترو · وأيضا حين يجوب شوارع المدينة التى يعيش فيها · وقد عبر عن هذه الأحاسيس فى ديوانه « منتهى العزلة » قائلا : « اذا حدث وتركت باريس الى المغرب أو الى أى مكان · فاننى افتقد هذا النفور · مثلما أفتقد وجوه ومشاعر هؤلاء الأصدقاء الذين ارتبطت بهم فى هذه المدينة · لقد تربيت أول الأمر

---

(١) Cicatrice du soleil. T. Ben Jelloun. Paris, Maspero, 1982.

فى فاس ثم فى « طنجة » • وسط حضارة عربية داخل منزل • فرنسية عربية فى المدرسة • لذا لم يبد لى الطرف الآخر من البحر المتوسط غريبا تماما • فباريس مثل المغرب • بها أسواق كبيرة • وألوان وروائح • يحدث أن تنتابنى الرغبة فيها • فى سوق باريس ليس لك الحق أن تلمس او تتذوق بل عليك أن تختار بعينيك وتدفع بعد النظرات بالعيون • ربما لهذا السبب ففى باريس وحدها ثلاثمائة وخمسون قاعة عرض سينمائى • لذا فان مخرجى أفلام ما قبل الحرب ـ مثل كارنيه ورينوار ورينيه كلير ـ دائما ما يظلون فى الذاكرة حتى الآن •• الآن هناك سينمائيون جيدون لكنهم ليسوا فنانين كبارا » (١) •

ويقول فى نفس الكتاب ان الأديب فى العالم الثالث فى حاجة أن يتعرف الى كتاب آخرين وأنه قد تعرف على جان جينيه الذى علمه حياء الأدباء • أما صديقه الناشر ماسبيرو فقد ساعده على نشر كتبه فى داره الخاصة التى طبعت أغلب دواوينه الشعرية •

هذا هو العالم الشعرى للطاهر بن جلون •• ولكن ماذا عن رواياته ؟

لا شك أن هناك أشياء عديدة من ذاكرة الكاتب قد تجسدت فى هذه الروايات • مثلما تجسدت فى أشعاره • والذاكرة خصبة بالأماكن والأشخاص الذى يعيشون عليها • وفى أغلب روايات بن جلون هناك جزء من سيرته الذاتية • هذه السيرة متناثرة فى هذه الروايات بشكل يمكن الامساك بها بسهولة وايضا يمكن أن تفلت منك بسهولة • فالكاتب يصوغ هذه السيرة ببراعته الفنية التى لا تجعله يقع فى شراك السيرة الذاتية التى قد تنحى بالكاتب عن القص الروائى •• وقد تؤثر كثيرا فى فنية العمل : وفى رواياته يبدو المكان ، والأسرة • عماد كل أعماله الفنية • ولا شك أن الطرفين قد تفاعلا معا فصنعا مزيجا خاصا لكل منهما الآخر •• فلا يمكن أن تذكر الأب والأم دون أن تذكر البيت الذى عاشا فيه مع ابنائهما • ولا المدينة التى انتقلا اليها • والمدينة هنا ، كما عاش بن جلون هى فاس • او طنجة • انهما دائما نفس المدينتين ، كأن العالم لم يتحرك خارج حدودهما •• ورغم العالم الرحب الواسع الذى ذهب اليه بن جلون فيما بعد ، فانه آثر أن يحبس نفسه فى هذه المدينة ، كما أن الكاتب يذكر مدنا أخرى مغربية مثل الدار البيضاء التى يراها فى رواية « حرودة » مدينة المستقبل • أما طنجة فانه يداعبها فى نفس الرواية ويطلق عليها اسم «الخيانة • وهذه

---

(١) A l'insu du souvenir T. Ben jeloun, Maspero. Paris, 1980.

المدن بالنسبة للكاتب هى مدن الطفولة · وفى هذه المدن تتباين اشكال الناس خاصة النساء · فهناك المرأة الفاضلة الطينة ، وهى غالبا أمه كما أن هناك بنات الهوى ·

ويمكن أن نجد كل هذا العالم والسمات فى روايته الأولى « حرودة » والذى تكرر بعد ذلك فى كل رواياته ، فهو يهدى الرواية الى أمه · تلك المرأة التى عليها أن تتعامل مع الأب كأنه البطريرك · أو « الاله » ـ مثلما حدث فى رواية شرايبى الأولى ـ والمرأة هى التى تصنع تمثال هذا الرجل الذى هو أبوه ·

وفى رواية « حرودة » لا ينسى بن جلون أنه شاعر · فيتغنى لها ويصفها شعرا قائلا :

حرودة
طير
نهد
امرأة
عروس بحر
مجسدة فى الكتاب (١) ·

وحرودة امرأة هوى تختلف كثيرا عن أمه ، كما سبقت الاشارة ، وجسدها يتعرى بسهولة أمام الكلمات المكتوبة · وهو ليس جسدا عاريا ·· بل هو جسد مقدس يناسب هذه المهنة · وهى فى منظور الكاتب نموذج للمرأة كما جاء فى قصيدته · وحرودة تعيش فى فاس · وهى مكان متسع لامرأة مثلها · وفى شهر رمضان تبدو المرأة مختلفة تماما حيث يحل الورع على المدينة · وهناك مزج بين المدينة التى يعيش فيها الكاتب وبين المرأتين اللتين هما أمه وحرودة · فهو معجب بكلا النقيضين · واذا كانت فاس مدينة حرودة · فان طنجة مدينة واسعة بها الأطلال والمؤسسات وهى مدينة البلور · والجبل الذى يحوطها حاملا ذكرى من أيام الحرب · كما أن « طنجة » تخفى وجهها · وتبدو شاحبة وهى تكذب عليك » (٢) ·

وقد بدت نفس ملامح الأشخاص والأشياء فى روايته الرابعة « صلاة الغائب » التى يروى فيها أيضا جزءا آخر من سيرته الذاتية · ومع ذلك فان كل شىء يبدو أشبه بالخيال · عدا تلك الأسئلة التى تتعلق بالهوية والجذور والكتابة فهى أشبه بيوميات خاصة لشخص يبحث عن

---

(١) Harrouda, T. Ben Jelloun, Denöel, Paris, 1974, p. 7.

(٢) المرجع السابق ·

هوية ويريد أن يعطى لجذوره معنى · فكل شخص يقدمه الكاتب يكافح فى مجاله · و « يمنى » المرأة التى سوف تقود الآخرين وهى تعبر الغرب ليست صورة حقيقية من امرأة كانت تحمل نفس الاسم ، عملت فى الهوى وعاشت فى مدينة فاس · انها بالطبع صورة متكررة من حرودة · ولعلها نفس المرأة · أما سندباد فهو رجل فقد الذاكرة بعد أن صدم فى علاقة عاطفية وكأنه يتخلى بالمجتمع من حوله عن هوية ارتبط بها كى يعيش فى عالم جديد · انه يعيش فى المقابر قريبا من شخص أكثر منه فقرا · والفقر هنا هو فقر الروح · انه يحمل اسم كلبه « يوبى » · وهناك الطفل الذى عليه أن يذهب مع الثلاثة الى مقبرة الشيخ « أبو العينين » لقد ولد فى المقبرة تحت شجرة زيتون · ليس له اسم · وهو كما يصوره الكاتب انسان بكر يبدو واضح الوجه ·

تتحرك هذه المجموعة بقيادة « يمنى » من الشمال نحو الجنوب · فى داخل البلاد · يرون مغرب الأمس واليوم · ينتقلون بين المدن والقرية · من أماكن حقيقية الى أخرى يتخيلونها · انهم يتمتعون حين ينسبون أن الزمن يدور من حولهم · ويروح واحد منهم يتذكر زمن المقاومة ضد الاستعمار التى كان يقودها الشيخ أبو العينين ·

ويقول الكاتب حول ظروف تأليفه هذه الرواية : « كتبت هذا الكتاب ابان اضطراب فى مشاعرى ، عشته يوما مع الضياع · وطاردت أبطالى · وسافرت بنفسى معهم وعندما حانت لحظة فراقهم · طاردونى فى أحلامى ونومى وحياتى · لقد تسلطوا على · كانت تلزمنى بضعة أشهر كى أخلص نفسى منهم · فهى ليست سيرة ذاتية الا من خلال خيال بالغ النقاء · وهذا هو السبب الذى جعلنى أكف عن النوم » (١) ·

واذا كانت هذه الروايات قد بدا فيها المكان بطلا من خلال المدينة والأشخاص الذين يعيشون فيها · فان الأسرة هى البطل الأساسى فى روايتيه ، أو فلنقل ثنائيتيه ، « ابن الرمل » و « ليلة القدر » فنحن هنا أمام بن جلون بشكل آخر · ذلك الصبى الذى وجد نفسه فى أسرة أنجبت عددا كبيرا من الاناث ولم تنجب سواه ·· فاستحق كل الرعاية والاهتمام باعتباره الذكر الوحيد فى المنزل · وقد قام الكاتب بتغيير هويته ليتخيل أحمد الطفل الذى جاء فى أسرة لم تنجب سوى البنات · وأحمد هذا ليس سوى بنت · لكن رب الأسرة أقسم على امرأته ذات يوم أن تلد ولدا · حتى لو كان بنتا ·· فسوف يكون ولدا ·· لذا فعندما ولدت الأم أنثى ، كان على الأب أن يعلن على الملأ أنه رزق « أخيرا بمولود ذكر · بعد أن أعطاه الله سبع بنات » ·

---

(١) نشرة Le seuil سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٢ ·

والثنائية الروائية تدور أحداثها على لســان هذه الأنثى ــ الذكر ، أو الأنثى التى عليها أن تتصرف كأنها ولد · فهى عندما كبرت صارت رجلا يحمل فى جسده صدر امرأة · والأب هنا مثل الأب فى كل الروايات التى كتبها بن جلون · فهو بين «سيد» و «رب» المنزل · ويحس أن رجولته مفقودة طالما أن امرأته لم تنجب له صبيا واحدا · يصرخ : « بطنك يا امرأة ، تعجز عن حمل صبى » · صرخ الحاج : « لذلك قررت أن تكــون الولادة الثامنة عيدا · احتفــالا عظيما يستمر سبعة أيام وسبع ليال · ستصبحين أما حقيقية ، ستصبحين اميرة لأنك ستكونين قد انجبت صبيــا ·· الطفل الذى ستضعينه سيكون ذكرا · سيكون رجلا · سيدعى أحمد حتى ولو كان أنثى ! لقــد أعددت العدة لكل شىء وهيأت لكل شىء · ســنأتى بالقابلة العجوز ، لالا راضية · فهى لن تعيش بعد ذلك أكثر من عام أو عامين · وسأعطيها بالتالى ما يلزمها من نقود ، كى تحتفظ بالسر ·· »·

ويقول الكاتب فى فقرة أخرى من نفس الفصل من الرواية المعنون « باب يوم الخميس » : « عليك أن تبكى من الفرحة · انظرى · انظرى · انه طفل · لا حاجة لاخفاء وجهك · يجب أن تكونى فخــورة · لقــد أعطيتنى طفلا بعد خمسة عشر عاما · غلام · انه طفلى الأول · انظرى كم هو جميل ! · المسى أنامله · وشــعره · انه رجــل · ثم استدار ناحية القابلة وطلب منها أن تسهر على الطفل وألا تترك أحــدا يقترب منــه · وخرج من الغرفة تعلوه ابتسامة عريضة · يحمل كل رجــولة الدنيــا فوق كتفيه · أحس وهو فى الخمسين من عمره أنه شاب · لقد نسى ، أو لعله تناسى ، كل ما دبره · لقد رأى فتــاة · ولكنه تصور بكل ثقة أنها غلام » (١) ·

وعندما كبر أحمد بدأ يدرك الحقيقة · وراحت الكوابيس تنهشه · انه فتاة لم يكن أمامها سوى أن تسجل معاناتها يوما بعد يوم · فراحت تراسل صديقا مجهولا اكتشف سرها وحرص على مقاسمتها أحــزانها وهمومها · وربما من موقع المحب العاشق «تنتقم الوجوه منحديتى بالعبوس الدائم لذلك أبعدها برفق ، وأضعها جانبا · أكدسها فوق بعضها البعض · تنسحق ، تتألم · بعضها يتمكن من الصراخ · صراخ اليــوم · نعــاء · اصطكاك الأســنان · وجوه بدون ملامح · ليست لرجــل ولا لامـــرأة · لكنهــا اشــكال لجمــال مطلق ·· الأيدى تخوننى أيضــا خاصة حين احاول تزويجها مع الوجــوه · المهم هو تحــاشى الفــرق · احتفالية الفرق

(١) باب يوم الخميس ــ مجلة الأديب المعاصر ــ ترجمة محمود قاسم · حزيران ١٩٨٨ ، ص ٤٦ ·

تأخذني • انني مهدد بخسارة كل شيء • وليست لدى الرغبة فى أن أجد نفسى فى الخـارج مع الآخرين » (١) •

وتبدأ أحداث الجـزء الثانى من الثلاثية ـ ليلة القـدر ـ حين يموت الأب • ويكون هذا الحادث بمثابة انطلاقة الشرارة لكل مشاعر الأنثى المتفجرة فى الفتاة التى عليها أن تنتبذ اسمها الرجولى • وتعطى لنفسها اسم زهرة • وتقرر أن تنطلق فى المدن والبلاد • وبن جلون يطلق على بطلته اسم « زهرة الزهور » التى تحس كم ينهد صدرها فى جسدها • وترغب أن تعيش حياتها • لكن هل يمكنها أن تهرب من المصـير الذى سجله لها أبوها • عليها أن تترك النسـاء المخنوقات وتذهب الى حيث يقودها جمالها • ورغم أنهـا فتـاة ثائرة متمردة القلب • حيـوان غريب شارد • الا أنها تشعر بأنها قريبة دائما من الله • وتحمل معهـا المصحف الشريف : « انظر كم أنا طفلة ذات هوية مزدوجة وملقحة • أنا طفلة مقنعة ـ حسب رغبة أبى الذى أحس بالخزى والعار لأنه لم يرزق بولد • وكما تعرفون ، فأنا هذا الولد الذى كان يحلم به • أما الباقى فان البعض منكم يعرفه • وسمع الآخرون أطراف كلام من هنا أو هنـاك • هؤلاء الذين يغامرون بقص حياة ابن الرمل والذين يعانون بعض المضايقات • بعضها حقيقى والبعض الآخـر فشل فى أن يفقدهم روحهم • لنحـكى لكم قصصا • انها ليست قصتى بالفعل • رغم انني حبست نفسى فيها • فقـد جاءتنى الأخبار • ولست مندهشـة وغير متضايقة • كنت أعـرف أننى سوف أترك خلفى الحكايات المثيرة للدهشـة • ولكن لأن حياتى ليست خزانة • فقد بدأت فى ترتيب الأحداث • وأكشف لكم السر الذى ظل محفورا خلف الجدران السوداء لبيت له سبعة أبواب » (٢) •

وحول ثنائية الحدث فى الروايتين تكلم بن جلون فى مجلة اليوم السابع : « أما موضوع طبيعة رواية « ليلة القدر » فهى ليست تتمة لرواية « ابن الرمل » وانما هى نظرة مكملة لهـا •• قد تكون تتمة للرواية الأولى بمعنى اننى أخذت نفس الشخصية ولكنى لم اعالجها كما تركتها فى ختام رواية « ابن الرمل » « بل وضعتها هنا وسط الأحداث وأعطيتها امكانية قص وقائع حياتها ومعايشتها • ستعيش الشخصية حالات صـعبة ومؤرقة لكنها ستخترق هذه الصعوبات لفرض هويتهـا وحتى يعترف بوجودها • والذى سيتعرف بها فى أول الأمر هو انسان ضرير • لماذا ؟ لأن شخصيته

---

(١) ابن شرعى لواقع معقد • كمال طوبية • مجلة « جديد » العدد ١١ ، ١٩٨٦ . ص ٢١ •

(٢) La nuit sacrée. T. Ben Jelloun. seuil. 1987, Paris.

« ليلة القدر » المحورية هى شخصية حجبت لفترة طويلة وعاشت فى الخفاء · فليس فى امكانها اذن أن تظهر دفعة واحدة تحت الكشافات وأمام أنظار ستتصفح مفاصلها لتخلع عنها الحجاب الذى كان يغلف هويتها · فمن المنطقى الا تهدى كيانها الجسدى الا الى انسان لا يبصر · هذه هى النقطة الأولى · ثم ثانيا ، فالعلاقة التى ستتوطد عراها بين الأعمى وهو القنصل وشخصية الراوية هى علاقة روحية وفكرية وشعرية (١) ·

والطاهر بن جلون يتعامل مع روايته وكأنها « حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة · فنحن لو نقبنا فيها سنعثر بكل سهولة على العناصر التى طبعت الليالى العربية : الجنس فى المقام الأول ، ثم الغرابة ووصف العلم وكأنه جزء من الحقيقة · ثم تحول الشخصيات والأقنعة والأسرار التى يحل بعضها صراحة وبعضها تلميحا ·· ثم هناك الأمكنة : الروض والعطار ، والحمام ، والبيوت الحافلة بالغوامض وزوايا الأسوار ، والشخصيات التى تخرج من المألوف سواء أكانت شخصيات الحلم أم شخصيات الواقع : الجلاسة بمظهرها الذى تطنب الرواية فى وصفه ، والعم وزوجته ، وشيخ الروض المعطار ، ثم هناك الجن (فى الحمام) والأشباح · وهناك الوقوف خارج الأزمنة : فالليل يختلط بالنهار ويضيع الزمن من حيث ان مرور الوقت لا يعكس أى تأثير على الأحداث كم أمضت زهرة فى الروض المعطار ؟ كم أمضت فى بيت الجلاسة والقنصل ؟ كم أمضت فى السجن ؟ لسنا ندرى · والطاهر بن جلون يستعير هنا من الحكايات الشعبية العربية هذا الوقوف الملح خارج الزمن · وهناك ذلك المزج المر بين الجنس والعاطفة وبعض الأمور الأساسية الأخرى · ولعل هذا العنصر يتخذ قوته الاستثنائية من كون الرواية تحكى لنا بصوت البطلة نفسها · وهناك أخيرا عنصر الايهام · فتماما كما ان ابن جلون يختتم « ابن الرمل » على حيرة القراء أمام أحمد · كذلك نراه يستمرىء اللعبة هنا فيوقعها فى الابهار ازاء العديد من الأمور · مثلا : ازاء علاقة الجلاسة بالقنصل » (٢) ·

يعود المكان واضحا من جديد فى رواية « يوم من الصمت فى طنجة » المنشورة عام ١٩٨٩ والتى يتحدث فيها عن رجل عجوز مريض قابع فى حجرة · وذات ليلة باردة وبينما هو فى وحدته · والجدران

---

(١) الشاعر يشاغب ، حوار خميس خياطى · اليوم السابع · ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧ ص ٣٨ ·

(٢) رحلة العمر ، ابراهيم العريس · اليوم السابع · ١٩٨٧/١١/٣٠ ، ص ٤٢ ·

تسرب الصقيع . تنتاب الرجل رغبة أن يخابر أصدقاءه . ولكنــه يكتشف أن كل الأصدقاء قد ماتوا . فتنتابه الرغبة فى المرآة . ويكتشــف أن الخادمة ليست سوى امرأة دميمة . تنتابه الرغبــة فى أن يقص الأنسجة والأقمشة مثلما كان يفعل فى شبابه فى محله ، ولكنه عندما يحاول أن يفعل هذا يكتشف أن أصابعه ترتعد . ورغم هذا فهو يصر أن يفعل ذلك ، حتى لو ألقى بكل الأدوية من النافذة .

ورجل مثل هذا ليس له حاضر . لابد أن يعيش فى المــاضى وأن يسترجع فى ذاكرته كل ما حدث وما لم يحدث فى الســنوات الخوالى . وعليه أن يعيد تجسيد الوجوه والأصوات مرة أخرى . وأن يرى من جديد ، كيف كان الجيران القدامى كأنه بهــذا يصنع حيــاة داخلية من الصعب الامســاك بها الا فى الذاكرة فى يوم ملىء بالصمت . لا يجىء أحد كى يتحدث اليه . وعليه الآن أن يقبل فكرة انه رجــل عجوز . بل وأن يموت وقداتسع صدره لنهايته الهــادئة .

وهذا الرجل اقرب فى صفاته الى صورة الأب فى كل روايات بن جلون . لكنه هنا يعيش فى وحدته ويومه الأخير . فهو أيضا عاش بين فاس وطنجة .. وفتح حانوتا للحياكة فى المدينة . وفى طنجة كان هناك الكثير من الجيران الطيبين . وكانت زوجته تعــانى من انها قصيرة القامة والرجل العجوز رغم انه يستسلم للحظة موته ، الا أن هذا لا يحدث بسهولة . فلا شك أن كل هذا الماضى الذى يقبع فى ذاكرته يجعله يقــاوم كى يعيش لحظات أخرى . ويقول بن جلون ردا على أوجه المقارنة بين أبيه وبين هذا العجوز : « لقــد فكــرت دوما فى أبى الــذى عاش دائمــا فى طنجة وأنا أكتب هذا النص . بالنسبة لى فأنــا لم أكن أتصنــل به الا بصعوبة . وهذا الكتاب ليس سوى وسيلة لتحديد مشاكله . وليس من أجل حلها » (١) .

وفى روايته المنشورة عام ١٩٩١ تحت عنوان « غض البصر » ينتقل بن جلون الى احدى المدن البربرية فى جنــوب المغــرب ويجــعل الرواية ، مثلما حدث فى ثنائيته ــ تدور على لسان راوية تواجه عمتها القوية الشكيمة . وتحلم بأبيها الذى رحل الى فرنسا من أجل العمل والذى يمثل بالنسبة لها شيئا مهما . تتصور الفتاة أن أسلافها القدامى قد تركوا لها كنزا فى مكان بجبال طنجة . وأنهــا الوحيدة التى تعرف اسم المــكان الذى به الكنز . وذات يوم يعود الأب من سفره ، بعد أن يموت أخوها القزم كى ينتزع كل أبناء أسرته من جذورهم ويذهب بهم الى باريس .

---

(١) Un livre a Tanger, Gilles Pudlouski, le point, 8-1-1990, p. 12.

حيث سيقيم الجميع فى حى « جوت دور » ـ نقطة الذهب ـ الذى يعتبر تجمعا للعرب المهاجرين من شمال افريقيا ٠

وما أن تصل الراوية الى باريس حتى تكتشف عالما آخر لم تكن تتصور قط انه موجود ٠ فهى ترى السيارات الفخمة لأول مرة ٠ وتطالع الكتب ٠ وتصطدم بالعنصرية الأنانية والحب ٠ وتحس كأنها ولدت من جديد ولكن هل تنخلع من جذورها القديمة ؟٠

والفتاة فى هذه الرواية تتسم أن لها عينين جميلتين وواسعتين وجبهة عالية مليئة بالغموض ٠ وفى الكتب التى تبدأ فى قراءتها ، وهى القروية البريئة ، تبدأ فى التعلم أن هناك أشياء جميلة جمال الخيال الذى كانت تتمتع به وهى فى القرية ٠ ولذا فانها تصنع لنفسها ما يسمى بالبعد الثالث ، انه يمزج بين حلمها وخيالاتها وبين ما تراه من واقع ٠

ولا شك أن بن جلون فى هذه الرواية « يؤكد توهانه بين منفيين وثقافتين يحاول أن يبحث عن مكانه بين حياتين وحضارتين » (٢) ٠

ومثلما فعل فى « ليلة القدر » فان الكاتب يمزج بين الواقع المعاش والأسطورة المتمثلة فى المخيلة ٠ ويقول فردريك فيتو أن بن جلون قد استفاد من تجربة زلزال اغادير الذى حدث فى أوائل الستينات ٠ فقد مات الكثيرون ، لكن من بقوا على قيد الحياة قد فقدوا الذاكرة ٠ وظهر هناك ما يمكن تسميته ببائعى الذاكرة ، ومع ذلك فان البطلة هنا قد عاشت كوابيس بدت كأنها تتبدد ٠ فقد بذلت الراوية هنا الكثير من أجل أن تتعلم القراءة وأن تصنع مصيرها ٠ وهى التى لم يكن عليها سوى الامتثال وهى طفلة صغيرة فى المدرسة ، أصبحت لها الآن شخصيتها الواضحة (٢) ٠

هذا هو عالم أشهر كاتب الآن من المغاربة الذين يبدعون باللغة الفرنسية ٠ وقد اخترنا أن نلقى عليه اضواء عريضة لأنه بالفعل النموذج الأكثر وضوحا فى هذا الأدب ٠ الأكثر اخلاصا لبيئته العربية ٠ وصحيح أن هناك أسماء أخرى مثل التى ذكرناها فى بداية حديثنا ٠٠ لكنها ليست بنفس الخصوبة والجودة ٠٠ ويبقى بن جلون الاسم الأكثر معاناة فى الأدب المغربى المكتوب بالفرنسية ٠

---

(١) l'eternelle étrangere, Michele Gazier. Telerama 2-1-1991, p. 12.

(٢) La chasse au Tresor, F. Vitaux, le nouvel observateur 10-1-1991, p. 93.

ادريس شرايبى :

ولد ادريس شرايبى فى مدينة الجديدة فى ١٥ يوليو ١٩٢٦ · ويقول قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية ان تاريخ الميلاد غير معروف بالضبط · وانه قد أخذ بالتقريب (١) ، كان له خمسة أشقاء · وقد جاء ذلك من أن أباه كان يتيما من الأب والأم فمال الى انجاب الأطفال· أما أمه فكانت امرأة من طبقة الذوات كما يقول الكاتب · وقد درس ادريس فى مدرسة القرآن الكريم · ثم انتقل الى المدرسة الفرنسية · وكتب الشعر وهو فى العاشرة من العمر وحصل على جائزة أدبية كشاعر · وفى سبتمبر ١٩٤٥ ترك المغرب كى يدرس علوم الكيمياء فى باريس · وحصل على شهادة فى الهندسة الكيماوية عام ١٩٥٠ · ثم وجه دراسته بعد ذلك الى طب الأعصاب · ولكنه لم يستكمل دراسته العليا فى هذا المضمار · فراح ينتقل مسافرا بين ايطاليا وسويسرا وبلجيكا وألمانيا والنمسا ويوغسلافيا وانجلترا وأسبانيا ودول أخرى مارس فيها العديد من المهن كالصحافة والهندسة والتصوير · وكبائع متجول وحارس ليل · ومدرس للغة العربية · ويقال انه عاش عامين فى اسرائيل ، حسبما جاء فى القاموس السابق الذكر باسم مستعار · ثم مارس الكتابة · وعمل منتجا فى الاذاعة الفرنسية · وقد ظلت برامجه تبث لفترة طويلة · وقدم برامج للتعريف بالدين الاسلامى للقارىء الغربى مع الكاتب أندريه روسو · وفى عام ١٩٦٦ اهتم بالمسرح الزنجى · ومسرح الشرق الأوسط · وتزوج من امرأة فرنسية أنجبت له خمسة أوفال · وعمل فى عام ١٩٧٠ مدرسا للغة العربية فى مقاطعة كويبك الكندية ·

نشر ادريس شرايبى روايته الأولى « الماضى البسيط » عام ١٩٥٤· والتى أثارت ضجة كبرى فى تلك الفترة حيث كان الكتاب جريئا وحاول أن يمس من هيبة الأسرة · وخاصة الأب · هذا الأب الذى يسميه الراوية بالسيد · انه يمثل نموذجا حياً للطاغية · وهذه هى المرة الأولى فى بلد يقدس الأسرة والآباء يرى فيها القراء كيف يتمرد الابن على أبيه · هذا الاقطاعى الكبير · لقد كانت هذه الحالة الجديدة من التمرد بمثابة تحطيم لأشياء كثيرة مقدسة خاصة أن ادريس شرايبى قد كتب الرواية كأنها أقرب الى السيرة الذاتية مما أكسبها واقعية وصدقا صدم الناس · وقد تعرض شرايبى للكثير من الضغوط النفسية بسبب الرفض الشديد لما جاء فى هذه الرواية · ورغم أنه أنكر نسبها اليه · الا أنه راح يكتب·

---

(١) Dictionnaire des auteurs maghrébiens, Jean Dejeux Karthala, Paris, 1984.

وجاءت كتبه الأخرى ومنها « التيوس » les boucs عام ١٩٥٥ ·
(رواية) ومجمـــوعة قصص تحمل عنوان « من كل الأفق » de tous les horizons عـــام ١٩٥٦ · ثـم « الزحـــام » la foule عام ١٩٦١
(رواية) و « متابعـات مفتوحة » succession ouverte (رواية)
عام ١٩٦٢ · ثم « سيأتى صديق لرؤيتك » un ami viendra vous voir
(رواية) ١٩٦٧ · ومجموعة مقـالات تحمل عنوان « الحضارة أمى »
la civilisation, ma mére و « الذاكـــرة الموشـــــومة » عام ١٩٧٠
la memoire totouée ورواية تحمـل عنـوان « المـوت فى كندا »
la mort au canda و « مهمـــة فى البـــلاد » une enquiète au jays
١٩٨١ و « أم الربيع » la mère du printemps عام ١٩٨٢ · و « مولد فى الفجر » naissance a l'aube عام ١٩٨٦ و « المفتش على »
inspecteur Ali عام ١٩٩١ ·

وادريس شرايبى يقيم فى باريس بصـفة دائمة منذ عام ١٩٦٥ ·
ومثل كل اقرانه · لم يشأ أن يخرج عن جلده · فهو يكتب عن البيئـة العـربية التى عاش فيهـا ولكن فى أعماله الأخيرة امتزجت بشـخصيات عربيـة وأخرى فرنسية · فعلى سبيل المثـال فان روايتـه « الذاكرة الموشومة » تدور أحداثها فى قرية بشمال افريقيا فى ليلة الاسـتقلال فهناك شاب يدعى « بول ريفير » ــ انه ابن الاستعمار · يرفض فكرة أن ينفصل عن الأرض التى ولد فيها · وكى يهرب من هذا الواقع المرير الذى عليه أن يواجهه ، فانه يفكر فى انشاء تمثال تذكارى على هيئة ساعة ·

وفى أحد البارات بمدينة طنجة يلتقى بامرأة بريطانية تدعى بيتى ·
وهى امرأة نفعية تحاول أن تتعرف عليه وتغويه فيقع فى هواها · وتتلاحق الأحداث بسرعة ويصبح على « بول » أن يرحل ولكن هناك شيئا يمزقه · تمر عدة سنوات · رحلت زوجته مريم الى المدينة على أمل أن تحصل على عمـل · وذهب معها زيجـو صديقه الحميم · والرواية مزدحمة بالشـخصيات فهناك ولدا العم عثمان ، ونيس الذين يعملون فى اصلاح السيارات · أما زيجو فيصبح حارسا على مقبرة للسـيارات بينما ونيس الشغوف بالميكانيكا يروح يبحث عن شبح «بيتى» فى كل سيارة تمر أمامه ويحس كأنه يتشمم عطرها · ويفاجأ ذات يوم أن زيجو قد اشـترى له سيارة قديمة أشبه بالتى كانت تقودها بيتى · ويذهب ونيس ذات ليلة الى أحد البارات ويكتشف أن المرأة التى تغنى كل ليلة وتصنع المتعة للزبائن ليست سـوى «بيتى» ·

ترى «بيتى» حبيبها القديم فى صورة ونيس فتحتفى به · ويعـرف انها كانت تحب أباه بول ريفيير الذى يشبهه كثيرا · وينتبه ونيس الى خطيئته التى سيرتكبها فيشترك فى سباق السيارات ويحس أن السيارة وهى تنطلق لتكسب السباق كأنها تخلصه من آلامه الجسدية ·

وفى روايته « مولد فى الفجر » يبدو الكاتب مهموما بمسألة اتصال الشرق بالمغرب · والسياسة التى يرى أنها فى حالتى صعود وهبوط ·· وبطل الرواية سيدى قاسم رجل يبحث عن جذوره · وعن أجداده لذا فهو يتوجه الى الجبل كى يبحث عن بقايا وآثار هؤلاء الأجداد · فهناك قبل اثنى عشر قرنا وفى عام ٧١٢ ، حضر الأجـــداد لفتح الأندلس من خلال جيوش طارق بن زياد · « كانت قوات الاسلام جميلة · وجديدة · كان الدين مفتوحا · واستقبل فى احضانه كل المقهورين وساوى بينهم · وحولهم الى منتصرين كبار · هذه هى العشيرة الكبرى » (١) ·

والعرب فى رواية شرايبى قوم مليئون بالحيوية والنشاط · استطاعوا ان يجتازوا الزمن فوق دوابهم · ويتحدث الكاتب عن شخصية قادرة على صنع المعجزات · ونحاول أن نعثر على عصر جديد افضل مما يحدث الآن· وهناك أيضا شخصية عزاوايت الذى جاء من أعماق التاريخ كى يولد من جديد ويحمل كل شىء على يديه · وتقول الناقدة آن براجانس : « يجب أن نقول ان شرايبى يقـــدم هنا أحد أجمـل مشاهده الطفولية التى يمكن قراءتها · فعند لحظة الموت نعرف أن أباه هناك ·

« لا فرق بين الموت والحياة فلا أحد يمكنه أن يميز بينهما · ولا أحد يفصلهما سوى هذه المسافة وهى الحياة نفسها » (٢) ·

أما روايته « المفتش على » فتدور على لسان الراوية ابراهيم عرورق الذى أصبح مشهورا على المستوى العالمى بكتابة الروايات البوليســية التى بطلها شخص يدعى المفتش على · والكتب التى تحكى عن هذا المفتش تحقق كسبا عاليا · كما انها تحصل على جوائز أدبية · لقد قضى ابراهيم سنوات عديدة فى فرنسا · وها هو يعود الى بلاده المغـــرب مع زوجته فيونا ، وهى امرأة اسكتلندية جميلة أشبه بعـرائس البحر · الآن عـلى فيونا أن تنتظر قدوم ابنها الثالث ، كما أنها تنتظر قدوم والديهـا من

---

(١) Naissance a l'aube, Driss charaibi, le seuil Paris, 1986.

(٢) Driss Charaibis, le monde 14-5-1986, p. 18.

ادنبره ، ولا شك أن مثل هذه الزيارة ستكون ساحة خصبة للصراع والمواجهة بين مجتمعين مختلفين تماما · فالزوجان ـ والدا فيونا ـ يقومان بجولة فى المدينة ويعلق أحدهما قائلا : « اننا فى بلاد لا تمشى فيها الأشياء ، فالناس هنا فى بطالة » ·

أما الكاتب على لسان الزوج المؤلف فهو يرى أن أوروبا ليست سوى قصص مرسومة · أو سلاسل من الحكايات الساذجة · ورغم أن شهرته جاءت من كتاباته التى يؤلفها لهم · وان الناس يسمونه « ملك أكشاك بيع الكتب » الا أنه لم يلتحم تماما مع هذه الحضارة ·

قائمة بأهم أدباء المغرب الذين يكتبون بالفرنسية

بارودى ، عبد الله :

سياسى وشاعر وجامعى · عاش فى المنفى فى فرنسا لسنوات عديدة من اعماله النثرية « المغرب تبحث عن ثورة » عام ١٩٧٢ · ومن اشعاره دواوين « المغرب أو ذاكرة المنفى » عام ١٩٧٩ · و « اشعار فوق الأرواح الميتة » عام ١٩٨٢ ·

بلزميتى علوى ، محمد (١٩٥١) :

ولد فى الدار البيضاء · درس الأدب فى جامعة باريس ، ثم درس ١٩٧٧ · ثم « اشعار Poemes » و « اتساع الموت المعطر » ١٩٨٥ ·

بلهاشى ، احمد (١٩٢٧) :

ولد فى الدار البيضاء · درس الأدب فى جامعة باريس · ثم درس فى كمبردج · ثم عمل بعد الاستقلال ملحقا فى مجلس الوزراء للسلطان محمد الخامس · قام بتدريس الانجليزية فى بريطانيا وفرنسا · عمل مديرا للمركز السينمائى بالرباط · له مسرحيتان « الآذان ذات الوشاح » عام ١٩٥٦ · و « حصن الرمل » عام ١٩٦٢ ·

بلهاشى ، عبد القادر (١٩٢٧) :

ولد فى الدار البيضاء · ودرس فى جامعة كمبردج · عمل مديرا للمركز الثقافى المغربى بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ · قام بتدريس اللغة الفرنسية فى بريطانيا وعمل سكرتيرا لسفارة المغرب فى واشنطن · نشر مسرحيته الأولى « المتبرجة » ١٩٥٢ ، ورواية « ثريا » · أو « الرواية التى لم تنته » عام ١٩٦٠ ·

بن جلون ، الطاهر (١٩٤٤) :

(انظر الفصل السادس) ·

بن حمزة ، عبد الرحمن (١٩٥٢) :

ولد فى مراكش · يعمل مدرسا للغـة الفرنسية وناقدا · شـاعر · من اعماله « المسافر » عام ١٩٧٥ · و « اضواء هشة وصحراء شاسعة » ١٩٧٧ · ثم كتاب نثرى بعنوان « من يوم لآخـر » عام ١٩٨٠ ·

خطيبى ، عبد الكبير (١٩٣٨) :

ولد فى الجديدة · درس علم الاجتماع فى السربون · ثم حصـل على الدكتوراه عام ١٩٦٥ · يعمل مدرسا فى كليـة الآداب بالرباط · روائى وشاعر وباحث وناقد من رواياته « الذاكرة الموشومة » عـام ١٩٧١ · و « كتاب الدم » ١٩٧٩ · ومن مسرحياته « النبى المحجب » عام ١٩٧٩ · ومن اهم دراساته « فن النسخ الغربى » عام ١٩٧٦ ·

خير الدين ، محمد (١٩٤١) :

ولد فى طفروت من أبوين نجارين · اكتشف الشاعر «رامبو» وأحبه· ويكتب بالعربية والفرنسية ، صادق شعراء فرنسيين · وتزوج بفرنسية · اسس مجلة «انفاس» عام ١٩١٦ مع عبد اللطيف لعبى ثم مجلة «المياه الحية» ثم رحل الى فرنسا عام ١٩٥٦ ، شاعر من أهم دواوينه « غثيان اشور » ١٩٦٤ ، و « شمس العناكب » عام ١٩٦٩ ، و « هذه مراكش » ١٩٧٥ ، و « بعث الزهور البرية » عام ١٩٨١ · ومن رواياته « اجسام سلبية » ١٩٦٨ و « الخـارج من الأرض » ١٩٧٣ · و « حيـاة وحلم وشعب » عام ١٩٧٨ ·

سفريوى ، أحمد (١٩١٥) :

ولد فى فارس فى أسرة بربرية · درس فى مدرسـة قرآنية · ثـم مدرسة فرنسية · ومارس العديد من المهن · ثم بدأ فى نشر اعماله عام ١٩٤٣ فى الصحف ثم عمـل فى وزارة الثقـافة · يقيم فى المغـرب · روائى · من اهم اعماله : « كنيسة عنبر » ١٩٦٤ · و « علبة العجائب » ١٩٥٤ · و « مراكش » عـام ١٩٥٦ ، و « الحلم بمـراكش » ١٩٧٠ ، و « منزل العبودية » ١٩٧٣ ·

سليم ، جاى (١٩٥١) :

ولد مع اخيـه فريد لأب مغربى وأم رومانيـة ، رحلت الأسرة الى باريس عام ١٩٧٣ · شارك فى العمل فى مجـلات نقدية ادبيـة · روائى · وناقد · من رواياته « الاسبوع ١٠ ومدام سيمون فى سن المائة » عـام ١٩٧٩ ، ثم « مجنون القراءة » او « الأربعين رواية » عام ١٩٨١ ، ثـم « ستكون طاغية يابنى » عام ١٩٨٢ ·

شارايبى ، ادريس (١٩٢٦) :

(انظر الفصـــل السادس) ٠

لحبابى ، محمد عزيز (١٩٢٧ ـ ١٩٩٣) :

ولد فى فاس ٠ ودرس فى باريس ، ثم حصــل على الدكتوراه فى الفلسفة ٠ عمل مدرس فلسفة فى كلية الآداب بالرباط ٠ ثم عميدا للكلية عام ١٩٦١ ٠ أسس اتحاد الكتاب فى المغرب ٠ وسافر الى بلاد عديدة ٠ صار عضوا فى مجمع اللغة العربية ٠ يقيم فى مراكش ٠ كاتب مقال ٠ وشاعر ٠ من أعماله الشعرية « أغنيات الأمل » ١٩٥٢ ٠ «بؤس وضياء» ٠ « أغنيـــات الأمل الجـديد » ١٩٥٨ ، و « صــوتى يبحث عن طــريق » عام ١٩٦٨ ٠

لعبى ، عبد اللطيف (١٩٤٢) :

ولد فى فاس ٠ ودرس فى الرباط ، ثم قام بتـدريس الفرنسية ، الى أن تم القبض عليه عام ١٩٧٢ ٠ كتب أولى قصائده عام ١٩٦٢ ٠ تزوج من فرنسية عام ١٩٦٤ التقى مع ٣ شعراء مغاربة : خير الدين ، نيسابورى ، وقرروا انشاء مجلة « نفحات » عام ١٩٦٦ ٠ فى عام ١٩٧٢ تم القبض عليه مرتين بتهمة قيامة بأعمال ضد أمن الدولة ٠ وحكم عليه بالسجن عشر سنوات وتم الافراج عنه عام ١٩٧٥ ٠ فسافر الى باريس ٠ ثم عاد للاقامة فى المغـــرب ٠ وخرج منها مرة أخرى عـــام ١٩٨٢ ٠ شاعـــر ٠ من أهــم دواوينه « شجــرة الحـديد المزهــرة » عام ١٩٧٤ و « تحت الكتمان » وهى أشعار مكتوبة فى الســجن ٠ ومنشور عـــام ١٩٨١ ٠ أما دراساته فهنـــاك « الشعر الفلسطينى فى المعركة » عام ١٩٧٥٠

المالح ، ادمون (١٩١٧) :

(انظر الفصـــل الثامن) ٠

هاشمى ، بن سالم (١٩٤٧) :

عمــل مدرسا فى كلية الآداب بالرباط ، شــاعر وناثر من أشـــعاره « اذا لم نستعرض التغييرات الكبرى » عام ١٩٨٠ ، وكتاب عن الانسان تحت عنوان « من البكل الأيديولوجى للاسلام » عـــام ١٩٨٠ ٠ والـــذى كتب له المقدمة مكسيم رودنسون ٠

نيسابورى ، مصطفى (١٩٤٣) :

ولد فى الدار البيضاء ٠ التقى بمحمد خير الدين واشترك معـــه فى تأسيس مجلة « أنفاس » ، شـــاعر ٠ من دواوينه « ذكريات عالية جدا » ١٩٦٨ ٠ و « الليلة الثانية بعد الألف » عام ١٩٧٥ ٠

الفصـل السـابع :

الأدب التونسى المكتوب باللغة الفرنسية

حسب كتاب « الأدب الفرانكفونى منذ عـام ١٩٤٥ » فـان الأدب المكتوب باللغة العربية فى تونس سواء قبل سنوات الاستقلال (١٩٥٦) أو بعدها قد جعل من الأدب المكتوب بالفرنسية أدبا هامشـيا (١) · وذلك بالطبع قياسا الى الأدب المكتوب بالفرنسية فى كل من الجزائر والمغرب. وباعتبار أن دول المغرب العربى قد سـيطر عليهـا الاسـتعمار الفرنسى وثقافته سنوات متقاربة زمنيا · الا أنه لم تحدث فرنسة لتونس بنفس الدرجة التى حدثت فى الجزائر على سبيل المثال · لذا فبمتابعة قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية الذى أعده جان ديجو عام ١٩٨٢ سنرى ليس فقط أن عدد الأدباء التونسيين الذين يعبرون بالفـرنسية أقـل عددا · بل أيضا أقل شهرة وأهمية من الأدباء المغربيين والجزائريين ·

ومنذ بداية الاستعمار الفرنسى لتونس · فان المدارس العربية لـم تتوقف عن العمـل ، وعن تلقين أبنائها اللغـة العربية · وسوف نرى أن أبرز أدباء تونس يكتبـون باللغة العـربية مثلما يكتبـون بالفرنسية · ومن بين المدارس البارزة التى لم تتوقف عن تعليم اللغـة العـربية مدرسة «صديقى» · كما أن هناك العديد من المدارس كانت تقوم بتعليم اللغـة الفرنسية الى جوار اللغة العربية الأساسية · ولعبت جامعـة الزيتونة دورا بارزا فى تعليم العربية والاحتفاظ بها ·

وكما سبقت الاشارة ، فان الأدباء التونسيين كانوا يفضـلون دوما اللغة العربية · حتى الكاتب اليهودى البير ميمى · فان لغتـه العـربية كانت مميزة أكثر من الفرنسية · وقـد تغيرت الموازين الى حد ما فى نهاية الستينات ، حين لاحظ التونسيون ان فرص النشر فى فرنسا أفضل ·

---

(١) مرجع سابق · La litterature francophone depuss 1945.

فى هذه الفترة كان الصغار الذين عاصروا الاستقلال قد اصبحوا كبارا . ولم يعد هناك خوف من الثقافة الفرنسية بنفس الحساسية التى حدثت فى الجزائر . فعقب الاستقلال اهتمت الحكومة بانشاء المزيد من المدارس العربية . ولكن هذا لم يمنع الناس ، فى ظل سياسة انفتاح ، أن ينشروا كتبهم بالفرنسية فى تونس ، خاصة أن دور النشر التى تطبع باللغة الفرنسية لم تتوقف عن العمل . ولكن هذا لم يمنع الكتاب التونسيين من البحث عن فرصة للنشر - كما سبقت الاشارة - خارج الحدود .

لعل الشعر كان الفن الأول الذى استخدمه الكاتب التونسى لمواجهة الاستعمار ، ومن أجل بث الحماس فى قلوب المناضلين ضد الاستعمار . ومن أبرز هذه الأسماء الشاعر عبد المجيد طلاطلى الذى جمع فى شعره بين الحماس والحكمة . فكرس شعره من أجل كراهيته الدم والتسلط والعنف . وهو من مواليد عام ١٩٢٨ . درس فى مدارس نابول الثانوية . وحصل عام ١٩٥٢ على جائزة قرطاج عن مجمل أعماله ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر . وقد الهمته هذه الجائزة ديوانه الأول المنشور فى نفس العام تحت عنوان « فوق رماد قرطاج » . وفى العام التالى نشر ديوانه الثانى « اعراس فوق رماد قرطاج » . ثم نشر فى نفس العام « رجال وأرواح » ، وكل أعماله منشورة باللغة الفرنسية فى تونس . كما ظلت أعمال كثيرة له فى الأدراج ولم تنشر حتى الآن ومنها ديوانه « سوف أصلى فوق مقبرتك » .

أما الشاعر الثانى فهو كلود بناوى المولود فى عام ١٩٢٢ . والذى بدأ حياته صحفيا عام ١٩٤٧ واعتبر من أهم الأدباء الطليعيين بعد الحرب العالمية الثانية . كما اهتم مثل العديد من هؤلاء الطليعيين، كما حدث فى مصر مع مجموعة الفن والحرية ، بالفن التشكيلى . وكان صديقا للكثير من السرياليين الفرنسيين . وقد سافر كلود فى عام ١٩٥٧ الى باريس واستقر بها .

وكلود من الشعراء الذين ظهرت موهبتهم فى سن مبكرة . فقد بدأ حياته كروائى فى عام ١٩٤١ من خلال روايته « حمامات . زهرة الحب » ثم نشر ديوانه «لون الأرض» عام ١٩٥١ وتوالت دواوينه المنشورة فى تونس « لنعاود الحب » عام ١٩٥٣ ، و « الزمن كالفصول » عام ١٩٥٤، ثم « الصيف القادم من البحر » وهو من الشعر المنثور عام ١٩٧٢ . وقد اهتم كلود فى أعماله بالطبيعة . ويبدأ مدى شغفه بالالتصاق بالحياة المليئة بالضياء والاشراق . حيث يقول فى ديوانه « الصيف القادم » وهو كما اشرنا من الشعر المنثور :

« لا الصباح يولد الليل • ولا الثمرات وطعمها • لا الثمـــار • ولا الملح منذ زمن المنفى كانوا قادرين على أن يخففوا من احساسى بالبهجة »•

ومن بين هؤلاء الشعراء أيضا هناك صلاح جـــرمادى المولود فى حلفاويين عام ١٩٣٣ • ودرس فى مدارس صديقى الثانوية • ثم حصـل على شهادة لتدريس اللغة العربية واخرى فى اللغة الانجليزية • ثم عمـل مساعدا فى المدرسة العليا بتونس • وقد جاءت أهميته من خلال مجموعة المقـالات التى كتبها عن الأدب التونسى ومشـاكل اللغة والتعـريب فى العديد من المجلات • وقد ترجم الى اللغة العـــربية الكثيـــر من الكتب الفرنسية فى اللغويات • وروايات مالك حداد ورشيد بوجدرة • وقد نشر ديوانه الأول عام ١٩٧٠ تحت عنوان « الهامة العالية » • وفى عـــام ١٩٧٥ نشر ديوانه الثـانى باللغـة الفـرنسية تحت عنـوان « أجـدادنا البدويون » •

وفى عام ١٩٨٢ مات صلاح جرمادى فى حادث سيارة وقد اختـرنا من ديوانه « أجدادنا البدويون » قصيدته « أكون أكون » :

انا هادىء فهل انا هادىء ؟ •
هل ياتى الصخب من المدينة ؟ •
انا مبتهج بشوش • فهل انا مبتهج بشوش ؟
بكل هذه القنابل ذوات الفتيـل
وهؤلاء الرجال المدججين
انا سعـيد فهل انا سـعيد ؟
لى امراة تغنى ولها اماليها
ولى سـيارة تدور على عجـــلاتها
وكل الأطفـال الحـزانى من البكارة
وهؤلاء الغرقى الذين يسبحون فوق المرعى
لقـد وصلت • فهل وصلت ؟ •
وهذه القنابل التى تتساقط كانها الفتحات
وهذه الواحات الحمراء حيث تحلم اللغـات (١) •

وقد اقام العديد من الكتاب التونسيين لفترة فى فرنسا •ولكن الكثير منهم ما لبث أن عاد الى بلاده • مثل صونى الجولى وعبد العزيز قاسم ،

---

(١) Nos ancotres, les bédouins. Salah Garadi, Paris, p. Joswald., 1975.

ومنصف غانم الذى ظل فى باريس حتى وفاته · وهناك أيضا الكثير من الأسـماء التى ظلت متأثرة بلغتها الفرنسية مثل طاهر بكرى وشمس نادر، والعبرى بن على ، وأمينة سـعيد ، والذين اختاروا الاقامة فى فرنسا ·

ويعتبر منصف غانم المولود عـام ١٩٤٧ من أبرز من حاولوا أن يجدوا طريقا جديدا لابداعهم الشـعرى · وكما يقـول عنه جان ديجى فى قاموسه عن الأدباء المغاربة الذين يكتبون باللغة الفرنسية انه يعد من أهم الشعراء التونسيين الذين كتبوا بالفرنسية فى الجيـل الحـالى ·

ويهمنا هنا أن نترجم له قصيدته « من هجـرنا » من ديوانه « لأن الحيـاة وطن » المنشـور عام ١٩٧٨ ومن اعمـاله الأخرى ديوان « ١٠٠ الف عصفور » الذى نشره على نفقتـه الخاصـة عام ١٩٧٥ · يقـول الشـاعر :

انا جـائع ·
جائع للافق الملىء بطيور السوس والعقاب
والفـلائك
ذوات الاشرعة البيضـاء
احب الزرقة الرقيقـة
وقبضـات البحـارة
فوق جباههم العـالية
احب الفجـر
فى البـاب الشـاحب
والظـلال
فى سـلال الأطفـال
فوق اهداب الأرامل المتيقظـات
احب عطر السردين الفـواح
وميـلادى
الأكثـر تهيجـا
من البحـر
اعـارض المـلوك
واجمـع الأسـماك المتخمـة
للشرهين واللصـوص

بالأمس • عندما حلم سرطان البحر بالحبـــار

وحتى اغوص فى الصـــخر

التهمت المحـارات الطـــويلة

ويعتبر عبد المجيد الحص أيضا من بين الشعراء البارزين فى اللغـة الفرنسية • وهـو ينتمى الى البـربر ، مولود فى ٢٠ ينـاير ١٩٤١ فى بومروس • ويعمل حاليا مدرسا للأدب الفـرنسى والأدب الفرانكفونى فى جامعة بادى بايطاليا • وهو يكتب المقال والدراسة الأدبية • نشر ديوانه الأول « أريد أن أحكى لك سرا » عام ١٩٧٢ • ثم « صورة السكرة » عـام ١٩٧٣ • ثم « ايريس ـ افريقيا » عام ١٩٨١ وفى هـذا الديوان يقول فى احدى قصـــائده :

وفقدت ورق نعناعى

وزهور الياسمين التى احملها فوق اذنى اليمنى

فى المســـاء

اشقائى واصدقائى الذين لا اعـرف اسماءهم

فى منفاى البـــارد الغــائب

فى اندفاع الضـــباب الخفى

وفى مجال الرواية التونسية المكتوبة باللغة الفرنسية يبرز الـكاتب البير ميمى كابرز اسم فى عالم الابداع الروائى ـ راجع الفصل الثامن حول الأدب العربى اليهودى المكتوب بالفرنسية ـ تجىء من بعـده مجمـوعة من الأســماء من ابرزها : هاشمى بابكوش المولود فى اسرة ثرية بتونس عام ١٩١٧ • وقد تولى رئاسة الوزارة التونسية لفترة قبل أن يتم عزله عام ١٩٥٢ قبل الاستقلال • وعندما وجد أن الناس قـد نسيته عقب الاستقلال سافر الى فرنسا عام ١٩٥٣ وتزوج من ايطـالية • ونشر روايته الأولى « تبقى ذمتى » عام ١٩٥٨ • كما كتب المسرحية ولكن من اهم اعمـاله الأخرى « سيدة من قرطاج » •

وتعتبر رواية « تبقى ذمتى » واحدة من أبرز الروايات التونســية المعاصرة المكتوبة باللغة الفرنسية • وهى بمثابة سيرة ذاتية للكاتب مليئـة بالرقة والتنوع • فبطل الرواية محمد يخبرنا انه يود أن يؤلف كتابا يريد أن ينزع من خلاله بعض مشاعر الخـزى من المسلمين • وان يمنعهـم أن يقولوا انهم يحبون فرنسا وبعض الفرنسيين • ومحمد هنا لا يخفى حبه الشديد لفرنسا • ولكنه رجل بالغ الوفاء لوطنه •

وقد بدت نفس النغمة عند الكاتب فى روايته الثـــانية « امرأة من قرطاج » فهى تتحدث عن علاقة حب بين رجل مســلم وامرأة مسيحية ، فى وقت يوافق فيه شيخ عجوز على أن يزوج ابنته من رجل غير مسلم · ويقول جان ديجو : « ان المؤلف يعطى العــلاقات سمات انســانية · ففى الرواية الأولى أراد أن يفسر أسباب انحسار الاستعمار · وهو يتحدث أن الأطفال غالبا ما يكونون وليدى زواج مختلط · كما يقــول محمد : « انهم يتربون قبل كل شىء فى ثقافة انسانية محترمة قائمة على احترام العقيدة » (١) ·

ومن ابرز الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية هناك صلاح الدين يحيرى ، وعادل عروى ، ثم هناك مصطفى قليلى ، وعبد الوهاب مدب ، وسعاد جلوز وهيليه بيجى ·

فمصطفى تيليلى ، على سبيل المثال ، مولود عام ١٩٣٧ ولكنه عاش فى نيويورك ثلاثة عشر عاما عمل خلالها فى الأمم المتحدة ثم استقر للاقامة فى باريس عــــام ١٩٨٢ · نشر روايته الأولى عام ١٩٧٥ تحت عنــوان « غضب الأمعاء » ثم « الصخب النائم » عام ١٩٧٨ · و « مجد الرمال » · عام ١٩٨٢ · وتدور احداث روايته الأولى حول رجل جــزائرى يدعى جلال بن شريف يبحث لنفسه عن هوية بعــد نهــاية حرب الاستقلال · فيقـــرر أن ينضم الى الفلسطينيين من أجل محاربة اسرائيل · أما روايتــه الثــانية فهى عن رجل انضم الى الخمير الحمر · وفى الرواية الثالثة يتحـــدث عن الحادث الارهابى الذى تم فى مكة فى الثمانينات وقيام الشاب المناضل الجزائرى يوسف منتصر بالتصـــدى لهؤلاء الارهابيين مع قوات الأمن الســـعودية ·

وفى حياة أبطال روايات تيليلى هنــاك دائما امرأة ، ومواجهـــة ضد الهشاشة والخديعة الداخلية · ويرى الكاتب فى هذه الروايات أن نيويورك مدينة رائعة من أجل المنفى · انها نفس المدينة التى عاش فيهــا الكاتب ثلاثة عشر عاما · وأبطال رواياته دائما من المناضلين ويؤمنون بالقضايا التى يدافعون عنها · مثل مولاى منتصر الذى مات برصـاصة غادرة عند المســجد الحــرام ·

ويهمنا أن ننقل ذلك الحوار الراقى بين الأم وابنها جلال فى رواية « غضب الأمعـــاء » :

---

(١) المصدر السابق ·
Le dictionaire des auteurs maghrébiens.

ـ يا بنى · سيكون الله معك لو انشغلت بتحسين نفسك ·

ـ نعـــم يا أمى ·

ـ يا بنى · تذكر اجدادك · فانت ابن شريف · ولن تفعل الشـــر ابـــدا ·

ـ أجـل · أعـــدك يا امى ·

ـ صل ليل نهـــار كى يرحمك الله · وان يحفظك من الشر ·

ـ ليكن الله معنا يا أمى ·

ـ ليحفظك من شر هذه الأرض ·

ـ ليكن الله معنا يا أمى · ومع كل مخلوقات الأرض ليقتلع الشر من الأرض ·

ـ ليحفظك لأمك يا ابنى · لذا فصل ليل نهار · دائما استيقظ فى الليل بغتة بعـد احلام مزعجة · وتضرع فى الصلاة لله حتى ينبلج الصبح من اجلك ؛ لأننى ليس لى سواك يا بنى » (١) ·

واغلب الروائيين التونسيين الذين يبدعون باللغة الفـرنسية يكتبون رواياتهم عن تجاربهم الخاصة · ومثل هذه الروايات تعتبر بمثـابة سيرة حياة للكاتب · مثل رواية « الطلسم » · وهى الرواية الوحيـــدة للكاتب عبد الوهاب مدب ، ومنشورة عام ١٩٧٩ حيث يعتبـر بطلها رجـلا يبحث عن جذوره بين لغته والأماكن التى ينتمى اليهـا ·

---

(١) La rage aux tripes, Mustapha Tlili, Gallimard, Paris, 1975.

قائمة بأهم أدباء تونس الذين يكتبون بالفرنسية

اصــلان ، محمـود (١٩٠٢) :

ولد فى تونس من أسرة ذات أصل تركى · والأم مصرية · درس فى المدارس الفرنسية العربية · ثم استكمل دراسته الثانوية فى مدرســة سوق العطارين · وسافر الى باريس عام ١٩٢٣ · وعمل موظفا ثم عـاد الى تونس · وظل يتنقل بين البلدين وتزوج من امرأة فرنسية · عمل فى الصحافة المحلية فى تونس لسـنوات طويلة · كتب الرواية والمسرحيـة · من أهم أعماله « مشاهد من حياة الريف » عام ١٩٣٢ ، « بين عالمين » مسرحية عام ١٩٣٢ ، ورواية « عينا ليلى السـوداوان » عـام ١٩٤٠ · و « حكايات الجمعة » عام ١٩٥٤ ·

برعوى ، حدى (١٩٣٢) :

ولد فى صـفاقس · درس فى فرنســا ثم الولايات المتحدة · قـام بالتدريس فى جامعة تورنتو · شاعر · من أعماله الشعرية « مرتعد » عام ١٩٦٩ ، « بلا حدود » ١٩٧٩ · ثم « طريق حيتو » عام ١٩٨٠ ·

بنــاوى ، كلود (١٩٢٢) :

(انظـر الفصـل السابع) ·

بوهنية ، عبـد الوهاب (١٩٣٢) :

ولد فى القيروان · وحصـــل على بكالوريوس فى الفلسفة · ثم دكتوراه فى الأدب من السربون · يدرس فى جامعة تونس · كما قـام بالتدريس فى العديد من الجـامعات الأوروبية والأفريقية · شـاعر وكاتب مقـال · من أهم أعماله « لآلىء الوهـم » شــعر ١٩٥٠ ، «الجنس فى الاسلام» عام ١٩٧٥ ·

جارمادى ، صــلاح (١٩٣٣) :

(انظـر الفصـل السابع) ·

الحص ، عبد المجيـد (١٩٤١) :

(انظـر الفصـل السابع) ·

خليفـــة ، صـــلاح :

شاعر . يقوم حاليا بتدريس التـاريخ والجغرافيا . نشر ديوانه الأول « دائرة الجوعى » عام ١٩٧٣ . ثم « أمير الدم » عام ١٩٧٤ .

عــزيزة ، محمـد (١٩٤٠) :

درس فى باريس وعمـل فى الاذاعة الفرنسية كمخـرج . وقـام بالتدريس فى الجـزائر . كتب المقال والدراسات الأدبية والحكايات ، من اهم اعماله « المسرح والاسلام » عام ١٩٧٠ ، و « الاسلام والصورة » ١٩٧٨ ، و « اسطرلاب البحـر » ١٩٨٠ .

غانم ، منصف (١٩٤٧) :

(انظـر الفصـل السابع) .

نعمـان (١٩٣٨)

روائى ومراسـل صحفى ، نشر روايته الأولى تحت اسم مستعار هو كولمان تحت عنوان « السارى » ١٩٧٠ ، ثم نشر روايته الثانية «عبودية الانســان » عام ١٩٧١ .

هاشمى باكوس (١٩١٧ —)

(انظـر الفصـل السابع) .

(★) ملحوظة : اعتمدنا فى الرجوع الى هذه الأسماء على كتاب le dictionaire des auteurs maghribiens ومن الواضـح ان القسـم الخـاص بتونس قد ضـم اسـماء اقل بكثير مما جاء فى قسمى الجزائر والمغرب . وكانت اغلب الأسـماء التونسية تعمل فى مجال الكتابة غير الابداعية .

الفصل الثامن

أدباء عرب ·· يهود ·· يكتبون بالفرنسية

لم تبرز مسألة الدين لدى الأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية ، مثلما يحدث فى الكثير من الآداب العالمية ·· فقد كتب كل من المسلمين والمسيحيين واليهود باللغة الفرنسية · وذلك لأن ابناء الأديان الثلاثة قد وجدوا انفسهم فى ظروف اجتماعية · وفى اسرات تتكلم اللغة الفرنسية · وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالطبقات الاجتماعية التى ينتمى اليها هؤلاء الأدباء بصرف النظر عن اديان كل منهم · فقد كانت المدارس المسيحية فى مصر تضم فى تلاميذها الكثير من المسلمين · وأيضا من اليهود · ومن المعروف ان المسلمين قد ارتفع عددهم كثيرا فى هذه المدارس عن المسيحيين · ولم تكن مسألة الأديان حساسة بالتالى عند الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية ·

كما أن أغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد هاجروا طواعية الى فرنسا باعتبارها الأرض الخصبة للغتهم · وباعتبار ان دور النشر يمكن ان تفتح لهم ابوابها مثلما فتحت لأقرانهم الذين سبقوهم · فتدفقوا الواحد تلو الآخر · وقد هاجر هؤلاء الكتاب من مسلمين أيضا ومسيحيين ويهود ومعهم اديانهم التى لم يفتقدوها فمارسوا شعائرها فى أى مكان ذهبوا اليه · ولم يكن هناك افتقاد للشعور الدينى · ولكن كان الافتقاد الأكبر هو الحنين الى الوطن الذى عاشوا فيه · وتربوا هناك أثناء طفولتهم · ودائما ما تكون الطفولة أسعد الأيام ، وبها أجمل الذكريات لدى الكثيرين ·

وهناك سمة فى الأدباء اليهود الذين يكتبون باللغة الفرنسية ، والذين تركوا بلادهم العربية ، تحسب لهم · وهى أنهم جميعا لم يهاجروا الى اسرائيل مثلما فعل أغلب اليهود فى الشتات · بل اتجهوا لفورهم الى فرنسا · وفى القائمة التى لدينا عن هؤلاء الأدباء فانهم لم يعملوا فى مجال السياسة · ولم يصل الى مسامعنا انهم سافروا الى اسرائيل ·

وذلك مثلما فعل أغلب الأدباء اليهود من الاشكيناز الذين باركوا قيام اسرائيل ، وأيدوها فى سياستها ضد العرب · بل ان شاعرا مثل ادمون اليابس قد بكى مصر كثيرا عندما هاجر منها بعد أن طردت الثورة أبناء الجالية اليهودية فى مصر وامتلأت أشعاره بالحنين لبلاده حتى مات فى عام ١٩٩١ ·

وقد وصلت الدرجة بهؤلاء الكتاب أنهم اعتبروا أنفسهم فى شتات بعد طردهم من مصر · أو بعد أن خرج منها بعضهم طواعية مثلما فعلت جويس منصور عام ١٩٥٣ · ليس الشتات المقصود به هو البعد عن اسرائيل · ولكنه شتات عن مصر · بلد طفولتهم · وصباهم ·

وبمطالعة القائمة التى لدينا ، والتى سنقدم بعضا من نماذجها هنا ، سوف نرى أن هذا المهجر قد ميز الأدباء اليهود القادمين من مصر الى فرنسا · بينما أسماء اليهود القادمين من شمال المغرب قد ظلت شبه مجهولة الا من اسم أو أكثر · ففى الأدب العربى المكتوب بالفرنسية تبرز أسماء كتاب مصريين أمثال ادمون اليابس وجويس منصور والبير عدس وغيرهم · ولكن من المغرب العربى يلمع اسم الكاتب المغربى ارمان المالح · وذلك باعتبار أن المغرب لم تطرد أبناءها من اليهود · باعتبارهم مواطنين مغاربة ·

وقد تركزت الطائفة اليهودية فى كل من المغرب وتونس · ومن بين الأسماء التى وردت فى قاموس الأدباء المغاربة « الذين يكتبون بالفرنسية » نقدم أسماء الأدباء اليهود فى مراكش وهم اليزا شمنتى · وادمون ارمان المالح · وايلى ملقا · أما محمد هاجر فيقول القاموس انه كاتب مجهول الهوية · وقد نشر كتابا عام ١٩٧٣ يحمل عنوان « مجنون باسرائيل مجنون بالله » · وهى رواية عن لقاء اليهود بالمسلمين · « يجب الا يعتبر اليهود والعرب أنفسهم كأعداء · فنحن بشر · وفى بلادنا جميعا مغاربة » (١) ·

أما الكتاب التونسيون فهناك روبير عتال ، والبير ميمى ، وسيزار بن عطار ، وبول غيث ، وريفل — واسمه الحقيقى رفاييل ليفى ، وجاك نيل · وأوزيت فاسيل · وكما نرى فانها أسماء لم تصبها الشهرة العريضة مثلما حدث للأدباء القادمين من مصر · ولعل العبارة التى وردت فى كتاب محمد هاجر لخير دليل على الاعتبارات التى يضعها المغاربة فى دخائلهم · فهم فى المقام الأول مغاربة · ويدينون باليهودية وقد حدث هذا أيضا لدى

---

(١) Dictionnaire des auteurs maghribiens. Karthala 1983, p. 238.

الكتاب المصريين الذين احتفظوا بهويتهم حتى اللحظات الأخيرة من حيواتهم ·

ادمون اليـــابس (١٩١٢ ـ ١٩٩١) Edmond jabes

ولد ادمون اليابس فى القاهرة فى ١٦ أبريل ١٩١٢ ، من أسرة ذات أصل ايطالى · ودرس فى مدارس الفرير · ثم فى الليسيه الفرنسية فى العاصمة · وكتب الشعر فى سن مبكرة من حياته فنشر أعمـاله وهو فى سن السابعة عشرة · ثم اكتشف الشـاعر ماكس جاكوب ففتن بـه وبأعماله وتأثر به تأثرا واضحا · كما تأثر بالشـــاعر جابرييل بونور · وكان ادمون مشغوفا كثيرا بالصحراء فى مدينـة القـاهرة · ويحب كثيرا المساحات الشاسعة من الرمل الممتدة أمام عينيه · وقد سافر ادمون الى فرنسا من أجل استكمال دراسته · وهناك سرعان ما اختلط بالحركات والمدارس الفنيـة التى كانت منتشرة بشكل ملحوظ ، وخاصـة السرياليين التى جذبت الكثير من المصريين · وهنـاك التقى بماكس جاكوب وقامت صداقة بين الاثنين استمرت عندما عاد ادمون الى القاهرة وكان لا يتوقف عن مراسلة جاكوب ·

وفى مصر أصبح ادمون عضوا فى جماعة « الفن والحرية » التى اسسها جورج حنين ومارى كافاديا وأسس الثلاثة معا دار نشر تحمل اسم « حصة الصحراء » فى عام ١٩٤٧ · ثم مالبث أن انفصـل عن الدار · وفى عام ١٩٥٧ كان على ادمون اليابس أن يترك بلده بعد أن اصدر جمال عبد الناصر أمرا بترحيل اليهود من مصر · وتقول مجـلة « لونوفيل أوبسرفاتور » ان كل أعمال ادمون قد كرست من أجل الكتابة عن الشـــمس الأصيلة فى مصر (١) · أما كتـــاب « الأدب العـــربى الفرانكفونى » فيقول : « انه بالرغم من أن ادمون قد اختـار لنفسه أن يكتب باللغة الفرنسية · الا انه لم يندم على شىء قدر ندمه بأنه بعيـد عن اللغة العـربية ، وأنه قد أبدع أشـعارا رائعة ، وأجمـل الأغنيات المليئـــة بالأنوار والموسيقا التى لا نجـدها سوى عند الشاعر الفرنسى رينيه شار· وبول ايلوار · وأيضا جورج شـحاده · ففى هـذه النصوص يبدو الشرق وهو يتنفس من اتساع الصحراء · كما يبحث مبدعوها عن معـانى الأشياء · « عن بياض الكلمات · وسواد المعانى » ·

نشرادمون ديوانه الأول فى باريس تحت عنوان « أوهام عاطفية » عام ١٩٣٠ أما أعماله التالية فقد نشرت فى القاهرة مثل : « ماما » التى نشرت فى مجلة « الأسبوع المصرى » التى كان يعمل فيهـا جورج

(١) E. Jabes, le nouvel observateur, 11-7-1991, p. 86.

حتين وذلك عـــام ١٩٣١ · وفى « مجـلة القـــاهرة » نشـــر ديوان « الأقدام فى الهواء » مع رسالة موجهة الى ماكس جاكوب · وذلك فى عام ١٩٣٠ ، اما أعماله التالية فقد نشرت فى القاهرة مثـل : «مـامـا» « آنات مصرية » · وفى عام ١٩٤٥ نشر مجموعة من الرســائل التى أرسلها لماكس جاكـوب مع مقـدمة كتبها الأديب الفرنسى اتمبـل · وقـد نشر فى عام ١٩٤٧ ديوانه « أعمـاق الميـاه » · ثم نشر له فى باريس ديوانان هما « أغنيـة لوجبـة الفول » و « ٣ بنـات من حينا » · وفى عام ١٩٤٩ نشر فى القـاهرة ديوان « صوت الهلب » وبعد ذلك نشر كتبه كلها فى باريس ومنهـا « اشيد مسكنى » عام ١٩٥٩ ، و « كتـاب المسائل » عام ١٩٦٣ ، وكتاب « يوكـل » عام ١٩٦٤ ، ثم « عودة الكتاب » عام ١٩٦٥ ، و « بيل » ١٩٦٧ ، و « ايلى » عام ١٩٧٢ ·

والكتابة عند ادمون اليابس بمثابة غوص فى الأعماق · وهى خلق الزمن كى يستمر العـــالم · وتدخل فى مسالة الخلق شـعلة الحياة · وذلك مثل خلق العـــالم · والكتابة عملية مستمرة متجددة فى كل لحظة · والكتابة تعتبر بمثابة سؤال موجه الى الزمن ·ومهما انتهى الكاتب من مخطوطه فان الكتابة لا تنتهى ·

وربما لهذاالسبب فان أبيات قصائد الشاعر طويلة ، مثل قصيدته الغريبة « اليك اتكلم » المنشورة فى ديوانه « أشيد بيتى » ، وهى أشـعار كتبها بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٥٧ فى مصر · ولكنه نشرها فى باريس عقب سفره الى هناك · ويقول :

اليك اتكلم ايها الصدى ·· ايتها الأغانى المنقولة · ايهـا الخبـر اللامع · اعلن لك رغبتى · فالبحر بلا مسيرة فى الفم ·

اليك ، يا ربيبة ذروة راس التـــوعم · وحركة الجليـد · هنـاك · لا مثيـــل لك ·

اليك ، ايها الحب المغتاظ ، والحقائق الأولى · والأجـل المربوط بالحجـارة المثبتة ·

اليك ، اليك وحـدك ، يا صراع الشموع ، ولحن الصحراء · وبطاقة مليئة بالتوقعـات ·

أنا مجروح فى براءتى · وطهارتى · والروابط المتوحشة فى الهواء والماء · انقذت مرة · أكثر جدالا · وقد عرضت مشاعرى · وسباتى ، وصـــحبة العميـــق ·

وعقبة الحب فى الهروب الســـهل ·

وفى نفس الديوان نشر ادمون قصيدة تحمل عنوان « الزقاق » تختلف تماما فى معانيها وطول المقطع · فهو يقول :

مسقط المياه

والبهجـة

وخطوة المطر

فى الالم

تؤثر بلا امل

ونسـيان الزقاق

والخطى تطيع السـلالم

كل الصيحات راضـية

ويختطف المجداف الصوت

وتخطو النداءات من باب لباب

وتتبادل المجهول بين الجـيران

مسـقط الميـاه

انتقـام الميـاه

فوق المظلات

الألم وحده

بلا أوخـاز

لقد آمن ادمون اليابس أن معرفة كلمة ، والتوغل فيهـا أشـبه بمعرفة كتاب بأكمله والتوغل فيه · وهو يرى أن الشعر كان سلوته وهو فى المنفى : « يجب أن نتوه وأن نرتبط بالخير أو الدروب كما نلحـظ ، فى النهاية فاننا لا نترك ذوينا فى أية لحظـة » · وقد كتب ادمون فى ديوانه الأخير المعنون « كتـاب الضيافة » المنشور فى عام ١٩٩١ قبل وفاته بأشهر عديدة أن كل شىء قد تمت اعادة كتابته ·

وهو يقول فى هذا الديوان ان « الكتابة الآن مصنوعة من أجل أن نعرف أنه ذات يوم سوف أتوقف عن الوجود · وان كل شىء من أعلاى ومن حولى قد أصبح أزرق وكثيفا ، متمـددا فى فراغ كى أطير طيـران النسر ذى الجناحين القويين وهـو يضرب بهمـا · وهو يتجـه نحـو مجهول مشيرا اشارات وداع للعـالم » ·

« أجل · بالضبط كى نؤكد أننى توقفت عن الوجود فى اليوم الذى يبقى فيه طير الكواسر وحيدا فى فضاء حياتى وكتـابى الذى يحـكم

سادته · ويتخلص مما كان يبحث عنه فى داخلى · وقد تولد عنـدما كنت اعبر » ·

ومن الواضح أن الشـاعر فى هذه الأعمـال الأخيرة قد اختـار شكلا جديدا تماما للقصيدة · ليست بالطبع القصيدة النثرية التى كان يكتبها أحمد راسم باللغة الفرنسـية · ولكنه شعر ملىء بالموسيقا ، وقـد بدا الشاعر فى هذه القصائد كأنه قادم الى خلود قاتم اللون · « الأسود هو لون الخلود » · وقد اختار لديوانه الأخير عنوانا غريبا هـو « رغبـة بداية المعـاناة فى النهاية الوحيدة » ·

الجدير بالذكر أن ادمون اليابس قد عرف نشاطا مكثفا فى الابداع خـلال السـنوات الأخيـرة من حيـاته · ففى ١٩٨٥ نشر ديـوانا يحمل عنـوان : « مسافات » ، وفى عام ١٩٨٧ نشر ديوانا يحمل عنوان : « الصحراء فى كتاب » و « كتاب الاقتسام » · ومن عنوان الكتابين يبدو مدى صدق الجملة التى سبق أن سقناها أن ادمون قد ظـل محبـوسا بابداعه فى صحراء مصر حيث يقول : « أنت تعتقد أن العـالم مثل دودة فى الصحراء تفكر فى المحيط · لقد خلق الله الدنيا بعد أن خلق الصحراء · يسكن النسر فى الحجر الصوان وهو يطير فوق الرمال » والصـحراء هنا هى صحراء مصر كما يقول الكاتب فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور(١)·

وفى عام ١٩٩٠ نشر ادمون اليابس مجموعة من القصائد التى كتبها بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٨٨ تحت عنوان « عتبة الرمل » · والديوان ضخم الحجم يقع فى أكثر من ٤٠٠ صفحة وأغلب هذه القصـائد من ذوات المقاطع الطويلة · بل ان فقرة بأكملها ، كمـا سبق أن رأينـا ، يمكن أن تكـون قصـيدة أو بيتا من قصـيدة :

« فى الواقع فاننا لم نستسلم للقطيعـة · بأن نطرد من مصر · لقد جئت الى باريس وعشت فى المدينة التى يعيش فيها الشـعراء الذين ارغب فى أن أكون وريثا لهم · وبدلا من أن أرتبط بهم · فعلى العكس فاننى ابتعدت عنهم · وجدت نفسى على مسافة منهم · ليس على مسافة · ولكن فى ابتعـاد · لأننى انا مرتبط بمكانى » (٢) ·

ويقول اليابس فى نفس الكتاب عن الصـحراء : « عندما نتعرف على الصحراء · فاننا نبقى فيها الى الأبد · ومن الصعب نسيانها · فصمت الصحراء ينخر فيك · فانت هناك تكون نفسك · بمعنى لا شىء » ·

---

(١) المصدر السابق ·

(٢) le seuil du sable, Gallimard, Paris, 1990.

« لأنه قبل أن تكون كلمة » فإن الكتابة سماعية • أنا شخص مرئى • أنا أرى الكلمة • أراها تتكون وترسم • وفى نفس الوقت أسمعها • هناك أولا نوع من الحركة تخرج فجأة من الكلمة وتروح تأخذ معناها • وهكذا الشعر • كما أن بعض الشعر يبقى صامتا • ليس هناك سوى الصوت الذى يمكن اضافته ، والخيال الذى يدخل الجزيرة فجأة •

« الكتابة حياة اختفت • الشعر يوقظ أو ينبه فينا الذكرى • وطالما أنه يمكن أن يكون أيضا • فانه يثير ذكرياتنا • وفيه تبدو الدهشة أمام الجملة التى تتفكك تقريبا دون أن تعنينا كثيرا • كى نعبر عن الحب • لا نريد أن تقول « احبك » ثم سيصبح للشعر حركته وحبه الذاتى » (١) •

جويس منصور (١٩٢٨ ــ ١٩٨٦)

تنتمى الشاعرة والروائية جويس منصور الى عائلة يهودية كبرى عرفت فى مصر من خلال أنشطتها الاقتصادية والتجارية وهى عائلة عدس • فجويس هى ابنة تاجر كبير اقتضى عمل الأب أن ينتقل بين بريطانيا ومصر • وفى أثناء احدى هذه الجولات ولدت جويس فى عام ١٩٢٨ (٢) •

ورغم أن جويس الصغيرة قد أتقنت اللغة الانجليزية بحكم ترددها الدائم على بريطانيا • الا أنها التحقت فى القاهرة باحدى المدارس الفرنسية • باعتبار ، كما أشرنا ، أن هذه اللغة تمثل انعكاسا للرقى الاجتماعى أكثر من الانجليزية فى تلك الآونة • لذا فقد قرأت الأدب الفرنسى • وراحت تعبر عن مشاعرها بهذه اللغة • ثم انتهت من كتابة أول قصيدة وهى فى الخامسة عشرة • فى عام ١٩٤٨ كانت قد انتهت من جمع ديوانها الأول « صرخات » وفى تلك الآونة كانت قد تعرفت بالشاعر السريالى جورج حنين الذى راح يشجعها • وكان أكثر الشخصيات التى تأثرت بها •

وقد تمتعت جويس منصور بقدر من الجمال قل أن تتمتع به امرأة فى عصرها • هذا الجمال كان أيضا مفتاحا للدخول الى عالم رحب وواسع • وكم أحست الفتاة أن الله وهبها كل ما تتمناه أية امرأة فى

---

(١) المصدر السابق •

(٢) تم الرجوع الى الأعمال الكاملة التى صدرت للشاعرة جويس منصور من خلال ما ننشره هنا عن الشاعرة • والكتاب منشور عن الناشر acies sude عام ١٩٩٠ •

الوجود ·· الجمال الباهر والثراء الشديد والثقافة العميقة · والابداع المتميز · بل وأيضا الزوج الذى تحلم به كل النســاء · فقد تزوجت من شاب مصرى اكثر جاذبية ويؤمن بموهبتهــا · فراح يشـجعها ودفعهـا الى السفر الى باريس عندما وجد أن فرصــة نشر شـعرها المـكتوب بالفرنسية أفضل · ففى عام ١٩٥٣ نشر ديوانها الأول بعد خمس سنوات من الانتهاء من تأليفه لدى الناشر ·

وفى باريس كان اللقــاء عاصفا ومدويا · فقد علق أندريه بريتــون انه من أجمل ما قرأ من شعر فى حياته · وطلب لقــاء الشاعرة · وراح يعبر عن دهشته لجمالها « الفرعونى » حين التقاها مع زوجها · وهو يقول : « انت أول امرأة امكنها أن تكتب عملا غريبــا كشف عن كل ما يمكنون صدرها » ·

ولم تقطع جويس منصور علاقتها بالقاهرة · وقد كتب أنيس منصور عن الصالون الأدبى الذى كانت تعقده فى جريدة أخبار اليوم ـ ٦ سبتمبر ١٩٨٦ ـ قائلا : « كان الحاضرون من رجال ونساء يأكلون ويشربون حول حمام السباحة ويتحدثون فى الشعر والأدب والفن بالفرنسية والانجليزية والايطالية والعربية ·· وكانت معجزة هذا اللقــاء أو الغذاء طفلة تلقى شعرا باللاتينية · فعــكفنا جميعــا على الترجمــة والتفسـير والنقــد والمقارنة » ·

ويقول : « كأننا فى قمة جبال الأوليمب ·· أو حبل باراموس حيث يلتقى الآلهة وأنصاف الآلهة والشعراء والمطربون فى كورس سماوى ·· كأنهم ليسوا على هذه الأرض وكأنهم ليسوا منها ·· لم أكن أعرف ذلك · ولا تخيلت · ولكنه امكن » ·

فى العام التالى ١٩٥٤ نشرت جويس ديوانها الثــانى تحت عنوان « تمزقات » الذى أثار ضجة جديدة حول هذه الموهبــة وكتب عنــه أدباء بارزون مثل أندريه بيير وهنرى ميشــو · ومنذ ذلك الحين أصبحت جويس وزوجها صديقين حميمين لأندريه بريتون الذى كان لا يخفى أن المرأة هى ملهمته لكل اشــعاره ·· كما انتقل هذا الالهــام لأغلب الشــعراء والرسامين السرياليين الذين أعجبوا بجــويس كشــاعرة وكامرأة جميلة · فكم رســموا لهــا من لوحــات ! · كمــا راحت الشــاعرة تنشر قصائدها فى كتالوجات معــارض رسامين عديدين مثل الفنــان الكندى جان بنوا والاسبانى « باتا » الذى صورها كثيرا تحرق صدر الفنـ ان · ثم الفريدو لام · وبيير الشينسكى · وسافنبرج · وتوين · وليتور فينى ·

وقد عبر أندريه بريتون عن ابداع جويس منصــور قائلا انهـا « حديقة هذيان هذا القرن » · كما أكد أكثر من عرفها أنه لا يوجد اختلاف بين أناقة هذه المرأة كما عرفها الناس · وبين أناقة شعرها ، وكأنهما كيان واحد ·

فى أعمالها الكاملة نجد كافة نصوصها النثرية وقصائدها المنشورة والتى ظلت تكتبها حتى وفاتها فى ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٦ · وقد تم ترتيب هذه الأعمــال حسب النوع الأدبى · فهناك نصوص قصصية نثرية نشرتها عام ١٩٥٨ تحت عنوان « الراقدون الراضـون » · ومسرحيـة قصيرة منشورة عام ١٩٦٨ تحت عنوان « أزرق الأغوار » ومجموعـة قصص قصيرة منشورة عــام ١٩٧٠ باسم « هذا » أما دواوينها الشعرية فهى « صرخات » عام ١٩٥٣ · ثم « تمزقات » ١٩٥٤ · و « كوأسر » ١٩٦٠ » ثـم « المـــريع الأبيـض » ١٩٦٥ ، و « اللفـتات » عـــام ١٩٦٧ ، و « فالوس والمومياء » عام ١٩٦٩ ، ثم مجموعات من القصائد المتناثرة كتبتها فى كتالوجات معــارض الفنانين ــ كما أشرنا ــ « الابن الكبير » عام ١٩٨١ ، و « نيران مستعمرة » ١٩٨٥ ، و « ثقوب سوداء » عام ١٩٨٦ ·

وفى ابداع جويس منصور تجـد الفنــان المؤمن بحــرية التعبير · وبانطلاقة القدرة على العطاء ، فلا حواجز يمكن أن تقف أمامه من أجل أن يعبر عن مشاعره · فنحن فى الأحلام نرى كل شىء مباحا · والكوابيس مثلا تمثل حقلا خصبا لتحطيم الأزمنة ، والأماكن والألوان والتركيبات المألوفة ·

ومن المعروف أن السرياليين كانوا يؤمنون بثلاثة فنون ويتعاملون معها فى المقــام الأول عن بقية الفنون وهى على الترتيب الفن التشكيلى ، والقصيدة ، ثم السينما ، ففى هذه الفنون يمكن للفنان أن ينطلق دون أن تعرقله حدود · وهو لا يصبح أسيرا الا لما يعتمل فى نفســه · أما الرواية وفن القصة بشكل عام فان الفنــان غالبا ما يجد نفســه فيـه مخنوسا فى اطار الحدوتة · ومشاعر الآخرين · اما فى القصيدة فان الشاعر مجبر على أن يعبر عن نفسه فى المقــام الأول · وفى اللوحة فان الريشة والألوان هما نبض الفنــان وخفقات قلبه ·

ولذا ، فلا يمكن أن نعتبر تلك النصوص النثرية التى قدمتها جـويس منصور بمثابة ابداعات قصصية · كما لا يمكن ادراجها تحت تقسيم الشعر المنثور · فهى نصوص طويلة مختلفة الشــكل ، فيهـا الأشخاص يتحركون ، لكننا لسنا أمام موضوع قصصى محدد ، مثلما نحن فى اللوحة

السريالية ننتقل من عالم هلامى لآخر دون أن نتساءل عن السبب • ولا نعرف النتيجة •

وفى أقصوصة « مارى أو شرف الخدمة » تمزج الكاتبة بين أزمنة وأماكن عديدة • فهى تشير فى السطور الأولى الى أن الاحداث تدور فى بدء الخليقة • ثم نعرف انها تدور فى شمال أفريقيا داخل فندق صغير تحفه الشوارع الواسعة المكتظة بالناس • ومارى بطلة القصة تتمتع بحسية واضحة • وفى القصة هناك سفاح يجالس الناس ويضحك معهم • ومارى تشعر بالقلق لأن السفاح قد يغيب بضعة أيام • تجلس الى جوار النافذة تنتظر ظهوره • تتعمد الا تتحدث الى أختها جيرمى عن انتظارها • لكن قلقها لا يمكن اخفاؤه • ومارى امرأة تعشق الأحلام •• ففى كل ليلة تنام مرة واحدة • وتعيش الحلم بيكارته فى روحها • ترى نفسها تجرى بلا ملابس وسط رياح مستعرة أن تكشف سرها • وتحس بالمياه ثقيلة • وترى طائر الكوندور يحلق فى السماء • والطيور تصدح • وتتقلب مارى كى تتمتع أكثر • فتقدم نفسها وعفتها فوق آخر شعلات العفة • وترى الشارع وقد افقده الأسمنت عفته • فتهرول فى ضباب المدينة • وتحس بارتعاد اصابعها وتلمس جلدها الطرى والرخو تحت اشعة القمر • فتسبح فى الرمال ، والضباب والمستنقع والسماء • وترتطم المصابيح بين السحب العابرة كأنها الكعكة • وتتشكل الأزرار فى جوهر كل حقل ، وتمسك مارى بزهور المرجريت • وقد اغرورقت عيناها بالدموع • وأمسكت فى سعادة بالأوراق الوردية المثلية » •

ومن هذه الفقرة نرى أننا لا يمكن أن نعيش مثل هذه الأجواء الا فى أحلامنا - حيث تتعاقب الأشياء دون اقناع أو تتابع • وتتدفق دون ترتيب أو انتظار • فرغم أننا أمام علاقة غير موجودة بين مارى وسفاحها الذى لا نعرف عنه الكثير ، الا أن مارى فى حالة حلم وتفكير ومعايشة لخيالها طيلة أوقاتها • سواء عندما تنام أو وهى تجلس على مقربة من النافذة تنتظر وصول هذا السفاح أو طوال ساعات النهار •

حتى هذا السفاح ، فان مارى تراه بمنظورها الخاص • فهو « بشر » مثلها يمتلك خيالا واسعا • ويعيش داخل ذكرياته • يردد : أنا صاحب أسرة متزمتة ومحترمة • تتمتع بصحة طيبة • ولديها افكار تربوية • أنا رجل فريد ووحيد •

وهذا السفاح يأتى الى مارى ، ربما فى خيالها ، من أجل قضاء لحظات حب غير ملموسة • يقول لها : « قفى • سوف تعيشين تبعا

لرغبتى · تذكرى عقدنا معا » · وعندما يغيب السـفاح ترقد مارى فوق مضجعها · وتنظر الى الببغـاء تناديه بدلا من السفاح الحاضر الغائب · وقد تقرض بعض الأشعار · وتهتف أكثر من مرة باسـم السـفاح ·
« تتنهد مارى · وتترك نفسها تسبح لحظة طويلة بين حالتين من الوعى ودون أن تضيع فى قطيفة نومها · ليست لديها قوة التفكير ولا القدرة على التنفس · تبدو أفكارها باردة كأنها أشياء تتسلق بتكاسل فوق فروة رأسها · وصور رخوة غير محددة الأشكال » ·

وفى هذه الأقصوصة الغريبة لا تنسى جويس منصور أنهـا شاعرة · فمارى تقرض الشعر وهناك مقاطع من قصائد تنطق بها · والقصـة لا تضم سوى شخصيتين فقط هما مارى والسـفاح الذى ليس بقاتل ·
« غنى السفاح بصوته الجميل كرجل فخور بقوته · وتتبعـه النسـاء متكاتفات الأيدى ، وواثقات فى أنفسهن ، نظرت الى الباقيات من كوخها وقالت بحزن : لست سوى فأرة فى فندق · انسانة مسكينة ثم انسـالت الدموع على خدها · وهبت رياح شريرة · الزهور والعصافير والأشياء ذات الألوان اللامعـة والروائح العطرة ، هبت من الضوء المعتم فى الروح الممتدة وسط حالتى النوم واليقظـة » ·

ورغم أن « مارى أو شرف الخدمة » هى الأقصوصة الأولى فى كتابها « المتمددون الراضون » ، الا ان الناقد لا يمكن أن يضعها فى تقسيم أدبى معين · فهى ليست بالأقصوصة لأنها تقع فى أكثر من سبعين صفحة ضخمة الحجم ، وهى ليست رواية بالمعنى المتعـارف عليه الا اذا أدرجناها تحت تسمية « الرواية الجديدة » · أو الابداع السريالى · وكما أشرنا فان النصوص الروائية التى كتبها السرياليون نادرة للغـاية ·

والنساء فى بقية نصوصها القصصية غارقات فى أحلامهن مثلمـا كانت مارى ، وهن يعشن فى عالم غامض مثـل كلارا فى أقصـوصة « السرطان » ، فهى لم تخـرج أبدا من منزلها ولم يسـبق لهـا أن شاهدت أحدا ·

كما أن الموت موجود ككائن رئيسى فى أغلب ابداع جويس منصور النثرى · ففى أقصوصة « السرطان » تموت بين ذراعى حبيبها الراوية الذى يفاجأ بالشرطة تقبض عليه ثم تخلى سبيله عندما تعرف سر موت كلارا : « ماتت فى الرابعـة صباحا · والذكرى التى احتفظ بها عن هذه الليلة هى أننى لن أستطيع أبدا أن ألقاها · هناك مقعد من الضباب حولى · وبعض الحبر الردىء فى دمى · فغدوت كالمجنون » ·

أما فى مجموعة النصوص القصصية التى تحمل عنوان « يوليوس قيصر » فان الموت موجود فى الدماغ : « ماتت رأسى معه · لست سوى

كتلة من الرماد المكتوم والتى ترحل كل صـــباح من المصنع حتى أكسب حياتى • لأنه يجب أن نستمر على قيد الحياة • حتى ولو كنا بدون رؤوس • لقد تركت آخـر أسنانى اللبنية فى فم زوجى الذى مات من التضـــخم الاقتصادى ، ورحت أعد نفسى لاجراءات الدفن •

« ارتديت ثوبا أسود • به ألف ثنية من الذكريات ، بالغ الاتســـاع عند الفخذين • وبالغ الضيق اعلى الصدر • لقـد دفنت صـديقى يوم خطبتنا » •

ورغم شهرة جويس منصور كشاعرة • الا أنه بمراجعـة أعمالها الكاملة فان مساحة اعمالها النثرية تكاد تعادل كل ما ابدعته من شـــعر لكن يبدو أن مقولة الكاتب عباس العقاد ، أن خمسين قصة لا تعـادل فى قيمتها بيت شعر متميز ، صادقة • فلا تكاد تذكر جويس منصور بين كتاب القصة القصيرة ، ولا الابداع النثرى بالمرة • رغم أهمية هذه النصوص كما رأينا • ولا تجىء أهمية هذه النصوص فقط فى سـلاستها ولغتها الراقية • بل لأنها بذلك تكون من بين السرياليين الذين سعوا لافساح مجال الابداع أمام عطائهم • فكما اشرنا فان القليلين من السرياليين قـد اتجهـوا الى فن القص • وقد تعمدنا أن نعود الى هذه النصوص ونقتطف منهـا لنتأكد الى أى حد أفادت جويس منصور النثر بشاعريتها •

وجويس منصور ظلت وفية لسرياليتها حتى آخر كلمة كتبتها قبل وفاتها • ليس فقط لأنها أخذت كافة أعمالها الى أندريـه بريتون رائد الحركة السريالية • ولكن أيضا لأنها رسمت فى نثرها عشرات بل مئات من اللوحات السريالية • ولم تنس أبدا أنها شاعرة وهى تكتب النثر سواء النصوص القصصية أو المسرحية ذات الفصل الواحد التى تضمنها الأعمال الكاملة •

لكن ، من الواضح أن نثر جويس منصور قد اختلفت أبعـاده طوال السنوات الابداعية ، ففى مجموعتها «هذا» المنشورة عام ١٩٧٠ بدت كأنها تتكلم وتصف ظواهر الأشياء أكثر من أعماقها • لكن الموت ومراسيم الدفن لا تزال ماثلة فى ذهنها • ففى أقصوصة « النقطة » تصف جنازة بتفاصيل دقيقة من خلال المراسيم نفسها • ومن المعروف أنها فى النصوص التى سبقتها عن مثل هذه الشــعائر ، كانت تتعامل معها كأنها أشـــياء من الأحلام ، نابعة من الوعى والماضى والحاضر والمستقبل معـا فى مزيج من الصعب تحديد هويته ، أو معرفة أبعاده ••

الا أنها تتحدث عن هذه الأمور فى هذه القصة مثلا على النحو التـالى : « تم الدفن فى اليوم الرابع • بدت الأم كأنهـا تنتحب وسـط الخطبة • بدا النحيب طويلا ومثيرا للملل رغم هذا المشهد الدائر فى غابة

« مارى كيلو » • قالت مارى اننى لم أسمع شيئا عندما حضرت الحقل ، بل رأيت الأم تتمخط مرات عديدة بقوة » •

وكما نلاحظ فان أغلب هذه القصص لا تنتمى الى البيئـة العـربية مثلما فعل ادباء آخرون • لكننا بشكل عام أمام حالات انسانية مجردة • فرغم الأســماء غير العربية • الا أن النحيب ، مثـلا ، عند المقابر ظاهرة انســانية •

وبملاحظة القصة التى كتبتها فى الثمانينات تحت عنوان «أنقيلولة» نجد أن جويس منصور قد ابتعدت بشكل ملحوظ عن أعمـاق النفس البشرية وتصويرها ، واهتمت بالحديث عن البشر من الخارج أكثر • فالراوية هنا يراقب الآخرين كيف يمشون ويتحركون • وهو يسجل رؤيته لما تراه العين أكثر مما يحدث للمـرء من تأثر نتيجـة لهذه الرؤية • ورغم تغير اسلوب الكاتبة ، فاننا نجد نفس الهم الذى طاردها دوما • فالكاتبة التى أصيبت بداء السرطان سنوات لا تزال تتحدث عن الموت ، وعن هذا المرض اللعين بانكسار شديد : « راح ظل السرطان ينعكس فوق شاطىء مجهول • سريره خاو الآن •• وتبدو الهموم قابعة فوق وجوه مجموعة صغيرة من الزوار• بدءوا يفهمون أن عليهم أن يتمتعوا كى يتعلموا » •

وكتبت جـويس منصور مسرحيتين قصـيرتين • احـداهما لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنتين • وفى هذا النوع من المسرحيات نجد أنفســنا أمام شخصيات قليلة للغاية • فنحن فى غرفة شبه خاوية حتى الجـدران فى مسرحية « أزرق الأغوار » • ومن الشخصيات هناك رجل عجوز وامرأة جميلة تدعى مود ثم ابنتها الصغيرة • أما الجو العـام للمسرحية فهـو الموت • فالمرأة ترتدى زى الحداد • والرجل يتألم من المرض • وهو ينظـر الى ماضيه بحسرة • فقد كان يتمنى أن يصبح كاتبا ذات يوم ولكنـه الآن لا ينتظر سوى الذهاب الى الطبيب • أما الصـغيرة جيروم فهى تنطـق شعرا وترقب ما يحدث فى البيت دون أن تمتلك حلا لما يدور حولها • تسمع أمها تقول : « كم أحس بالبرودة • فى كل مرة أريد أن اتجمل • أحس أن على أن احطم المرآة • لا اجرؤ أن أرى أثداء الأخـريات أكبر من صدرى » ومود امرأة مليئة بالأحـزان • وعليها أن تتخيل نفسها بالغـة السعادة حتى تتخلص من آلامها الحقيقية •

والمسرحية بمثابة محاورة تنكشف فيها العلاقات الممزقة بين الأب وابنته وحفيدته • فهو يذكر ابنته أنه بمثابة أب • فهـو الرباط الوحيـد بينها وبين طفولتها • أما الصغيرة جيروم فانها تتخيـل وجود شخصيات خيالية قابعة خلف زجاج نافذة غرفتهم الضيقة •

أما المسرحية الثانية « سكرة المدن الكبرى » فهى محاورة بين رجل وامرأة أثناء لحظة هوى يبدوان وكأن كلا منهما يحطم الآخر ·

هذا هو عالم جويس منصور النثرى · فماذا عنها كشاعرة ؟

لا شك أن شكل القصيدة قد تغير كثيرا عند جويس منصور · ففى ديوانها الأول « صرخات » اتسمت أبياتها بالعبارات القصيرة · وبمقاطع لا تزيد عن خمسة الأبيات غالبا فى كل منها · ثم أصبحت هذه المقاطع طويلة · وبشكل عام فان جويس منصور مهمومة فى شعرها بالحب والرجل ، والحياة · وايضا الموت والمرض · وفى قصائدها الأولى كانت تستعذب الحب · الا أنها فى قصائدها الأخيرة استعذبت المرض والألم · وفى كل عشقها للأشياء ذهبت جويس منصور الى أقصى الحدود · أحبت حتى النخاع · ولدرجة اسالة الدماء · ولم يكن يهمها فى ديوانها « صرخات » أن تعنون أشعارها · فبدا الديوان كله وكأنه بمثابة قصيدة واحدة · ثم أصبحت لكل قصيدة فى دواوينها التالية عناوين وموضوعات·

وقد تخطت جويس منصور الكثير من قيود القصيدة · وان كانت قد التزمت بموسيقا الشعر · وفى أغلب قصائدها هناك دائما تساؤلات ممزوجة بالتعجب · لا اجابات عليها · ويهمنا هنا أن نقتطف بعضا من نماذجها الشعرية فى مراحل عطائها المختلفة · ففى « صرخات » تقول :

رأيتك عبر عينى المغلقة

تتسلق سور احلامك الخائف

وتفقد قدما من قدميك على العشب النائم

ترقد عيناك فوق المسامير الناتئة

بينما أصرخ دون أن أفتح فمى

كى افتح راسك لليل ·

تقبل صلواتى

التهم افكارى الملونة

ونقتى · حتى تتفتح عيناى

لترىا ابتسامة السفاح الداخلية

نقية ولو لمرة ·

اصلبنى يا يهوذا ·

وفى نفس الديوان « صرخات » أو فلنقل فى نفس القصــيدة التى لا تكاد تنتهى تقــول :

الذباب فـوق السرير
فوق السقف فى فمك وعينيك
نائما فوق ملاءة حتى رقبتـه
هنـاك رجل ماكر جـاهل
اترك لى جـــلدى
ولا تفـــرغ بطنى ٠
وليس لظلك فـم
وليس لغرفتك باب
وعينـــاك بلا نظـرات
وبلا رحمـة ٠٠ بلا لون
وخطـــاك تســير
بلا اثــر
نحــو الضوء المثير
انه جحيمى ٠

ويكاد يكون ديوانها الثانى « تمزقات » المنشور عام ١٩٥٤ مشابها للديوان الأول ، سواء فى شكل القصيدة ، أو فى موضوعها وايضا فى لغتها ٠ لكن كل هذا بدا يحدث شكلا جديدا فى ديوان «كواسر» المنشور عام ١٩٦٠ ٠ فنحن أمام قصائد متعددة ٠ ولكل منها هوية محددة ٠ ولأول مرة تكتب جويس منصور القصيدة ذات التفعيلات المتعددة ٠ مثل قصــائدها « لأنه ليست لك ساقان » ، و « الموتى فى رؤوس الكلاب » و « عيــون الأصدقاء » ، الا انها استعملت التفعيلة الواحدة فى ديوانها الرابع «المربع الأبيض » المنشور عام ١٩٦٥ ٠ ويكاد يكون هذا الديوان بمثابة نحـــوى لقصائد متعددة التفعيلات ٠ ويهمنا هنا أن نقتطف بعضا من أبيات قصيدتها « باب الليل مقفول بالقفل » :

ابحث عن الصــحراء
فوطنى جلف وسرى
والحيـــاة هى نفســها
والمطـــرب نائم فى السرايات العميقة

وســـجاد ٠
يمشى فى الحديقة المغلقة ٠
و ٠٠٠

ولم تستطع الشاعرة أن تخفى آلام المرض فى ديوانها الأخير «ثقوب سوداء» المنشور عام ١٩٨٦ ٠ فقد تحولت الأحـــــلام الوردية والمشاعر الحسية التى ملأت ديوانها الأول الى تأوهات ألم ٠ واختفت مشاعر الحب بشكل واضح ٠ فهى تقول فى آخر قصيدة نشرت لهـــا قبل رحيلها :

نحن لا نعيش مع الموتى
فهم ينزلقون فوق ملاءات النســـيان
نحو ثقوب سوداء
يسبحون ويرتعدون فى رياح المساء
وتضوى عيونهم كأنهم الحمـام
وتختلـــق أعضـــاؤهم
فى وحل الذكريات
نحن لا نعيش مع الموتى
فأفواههم مليئة بالزبد
ومهما بذلنـــا من جهـــد
فان تنهداتهم الجائعـة تمزق الهـواء
كم نتحــــاب
لكنهم لا يذكرون شيئا
مشغولون بمن يكونون
ويتمتعون بحدادهم
مشغولون بمن يكونون
ويتمتعون بحدادهم

ومن الواضح أن الشـــاعرة جويس منصور قد ابتعدت كثيـــرا عن عالم الباطن الذى يشغف به السرياليون كثيرا ٠ وصنعت عالما جـــديدا تماما فى قصائدها الأخيرة ٠ عالم سوف تذهب اليه راضية ٠ ومثلمـــا كرمت مشاعر الحب فى قصائدها ٠ ومثلما مجدت الحياة فى أشعارها ٠ فلم لا تفعـــل ذلك تجاه عالمها الجديد الذى تتجه اليـــه فبدت كأنهـــا تضع لنفسها رثاءها الخاص بها ٠

ادمون المليح (١٩١٧) :

عرف ادمون عمران المليح فى الثقافة المغربية الحديثة ، كواحد من كبار الفلاسفة ، وكبار المهتمين بالفكر الشيوعى وذلك حتى عام ١٩٨٠ ٠ حيث نشر روايته الأولى «مسيرات ساكنة» أى وهو فى الثامنة والستين من العمر ٠ والطريف ان هذا الفيلسوف الذى بدأ الكتابة الابداعية وهو فى هذه السن قد نشر ثلاث روايات فى خلال ست سنوات ، ففى عام ١٩٨٣ نشر روايته الثانية « عيلن عيلن او ليلة الحكى » Ailen Ailen ou la niut de recit وبعد ذلك بأربعة أعوام نشر روايته الثالثة « ألف عام ، يوم واحد » 1000 ans, un jour .

والمليح من مواليد مدينة صافى المغربية فى عام ١٩١٧ من عائلة يهودية ٠ وفى عام ١٩٤٥ انضم الى الحزب الشيوعى الذى كان فى طور التكوين ٠ ثم تولى وظيفته كسكرتير شباب الحزب ٠ وفى عام ١٩٤٨ انضم الى اللجنة المركزية بالحزب ٠ ثم الى المكتب السياسى ٠ وقد اشترك المليح فى النضال من اجل استقلال بلاده ٠ ثم استقال من الحزب عام ١٩٥٩ ٠ وقطع علاقته نهائيا بالسياسة ٠ وفى عام ١٩٦٥ سافر الى فرنسا واختارها مستقرا له ٠

والجدير بالذكر أن الكتب الثلاثة التى نشرها المليح ، ليست روايات بالمعنى المفهوم عن فن الرواية ٠ ولكنها اقرب الى نصوص روائية ٠ يسترجع فيها الكاتب سنوات الحنين التى عاشها ، خاصة فى المغرب ٠ وفى هذه الروايات تتكرر نفس الشخصيات مثل شخصية « عيلن » التى كانت بطلة روايته الثانية ٠ لذا ، فكما جاء فى جريدة « لوموند ــ ٢٣ مايو ١٩٨٦ ــ فان رواياته الثلاث بمثابة ثلاثية ٠

ورواياته ، كما أشرنا ، هى روايات ذكريات ٠ خاصة روايته الثالثة: «ألف عام ويوم واحد» ٠ فهو يصور حياته كما عاشها «على المرء أن يكتب عن حياته دون أية علامات تنقيط٠ احترم أن تطرح هذه العلاقات نفسها أمام عينى ٠ انها مرتبطة معا بنفس الطريقة التى يرتبط فيها الزمن بالحياة ٠ احب الزمن الممتد أمامى ٠ واحب تقطيع المشاهد ٠ لقد رفضت التقسيمات دوما ٠ فترى هل هذا الكتاب رواية ٠ لنقل انه نص أدبى ولكنه ليس الشكل التقليدى للرواية ٠ فقصة الحياة تثير فى الشجون ٠ ولكننى لن أرويها بأسلوب تقسيم النبات فى علم النبات » (١) ٠

---

(١) Edmond el maleh. le monde 23-5-1986.

وبطل الرواية يدعى نسيم ٠ وهو يبحث عن أودسيوس كى يرحل معه فى مركبه التى تسافر عبر البحار ٠ وان يسلم امره اليه ٠ وبينما هو فى رحلته ، يتأمل المصير الغامض لشعب يبحث عن آثاره ٠ فى ومضات التاريخ ٠ وفى العنف الذى ساد البشرية ٠ والصداع واللحظات البارزة من انتصارات واخفاق فى تاريخ البشر ٠

يتصرف المليح كأنه اذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، فليجعل آخرين يفعلون ذلك نيابة عنه ٠ ويروى الكاتب الحياة التى عاشها اليهود العرب مع أقرانهم من المسلمين فى المغرب طوال ألف عام ٠ هذه العلاقات بدأت الآن فى التغير « ليس هذا الكتاب مصنوعا من أجل الشباب اليهود الذين لم يعرفوا هذه الجماعات ٠ ويتساءلون مثل كل الشباب المغربى ٠ فالمغرب التى أتكلم عنها لم تعد موجودة الآن طالما أنها افتقدت واقعها الحالى » (١) ٠

ويتحدث المليح عن رحيل مجموعة من اليهود المغاربة ٠ انه فى أعماقه مغربى أولا ٠ ثم يهودى ثانية حتى لو عاش فى فرنسا أكثر من عشرين عاما ٠ وذلك مثلما فعل الشاعر المصرى ادمون اليابس ٠ ويختلف المليح فى أن ذكرياته عن بلاده التى جاء منها ليست مليئة بالمرارة ٠ مرارة الحنين بأنه يود أن يعود مرة أخرى ٠ فالمليح يمكنه أن يعود ٠ أما اليابس فليس ذلك فى مقدوره ٠ ان ادمون المليح ملىء بمشاعر الحنين ولكن يكفيه أنه عاش هناك كل هذه السنين ٠

فى روايته « ألف عام يوم واحد » عام ١٩٨٦ يتحدث الكاتب عن حرب لبنان ٠ فهو يحس ان لبنان هى أيضا وطنه ٠ لأن هناك عربا مثله٠ ويتكلم بصفة خاصة عن الغزو الاسرائيلى للبنان فى صيف يونيه عام ١٩٨٢ ٠ وكيف كان أثر ذلك على الذين عاشوا تحت سماء باريس ٠ لقد تمزق الكاتب من ذلك العنف المتوحش «هل حقيقة ما يحدث هناك ؟» (٢)٠

وقد عبر الكاتب فى الصفحات الأولى من كتابه أن ما حدث فى لبنان كان الدافع الأول لتأليف هذه الرواية ٠ « لا شك أن هذا الكتاب مرتبط بحرب لبنان ، لكننى لا أريد أن أغلق على نفسى باب السياسة ٠ فليس هذا الكتاب بمثابة رواية ملتزمة ، بل انه ضد كل ما كنت أتمناه أن أخرج من كل رسوم الكاريكاتير ٠ وأن أهرب من كل الشعارات » (٣)٠

---

(١) المصدر السابق ٠

(٢) mille ans, un jour. Edmond el maleh, la pensée sauvage, 1986..

(٣) المصدر السابق

لا شك أن عمران المليح يعـرف عما يتكلم بالضبط • فقد سـبق أن اشترك فى تحرير وطنه ، المغرب ، من الاستعمار • ولكنه عندما كتب هـذه الرواية لم تكن لديه أية قدرة كى يناضل من جديد • لذا ، فهـو يكتب كتابا لعله يكون رسالة بدلا من السلاح الذى حمله فيما قبل • فهو ، عـلى سبيل المثال ، يصف كيف بدأ اليوم جميلا فى مخيمى صبرا وشاتيلا قبل ان تجىء القوات الاسرائيلية • فى هذا اليوم كان العشب ينمـو فـوق الأرض الممددة • لكنه انتهى وقد تلون باللون الأحمر من كثرة الدم • فى هذا اليوم توجه نسيم بطل الرواية ، الى الشاطىء فى المغرب • الناس هناك تتصرف كأن شيئا لم يحدث • فالمحـلات مفتوحة ، والناس تثرثر ، والاصدقاء يلتقون • ويلتهمون الفول الساخن ويستمعون الى اغنيـات الحب المصرية فى شرائط الكاسيت » •

ويقول الكاتب ان اسم نسيم مكثف بالحروف الناطقة • اسم حقيقى يأتى منه الزمن والكلام • وكذلك اسم حامد • وهـو اسـم الطفـل فى الرواية • والجدير بالذكر ان شخصيات هذه الروايات لها موقف من العالم ومن السياسة بصفة خاصة • وهذه سمة قد لا نلاحظها ، البسياسة، كثيرا لدى الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية • فنسيم له رأيه الخاص فى الموت • وهو لا يريد أن يموت • لكنه لا يريد للآخرين ان يموتوا • وهو يتساءل هل يمكن للموت أن يصنع للآخرين هويتهم ؟ • هؤلاء الآخـرون الحبالى بالنسيان • كما أن موقفه مما يحدث فى لبنان على أيدى قـوات الغـزو الاسرائيلية واضح فهو يرفضه بعنفه ووحشيته ، كما أنه يرفض سلبية العرب من وجهة نظر أخرى • ولا شك أن الكاتب يسكب من أفكاره وفلسفته على سلوك بطله • والكاتب يسمى البطل بالرجـل ذى الألف قيمة • وصاحب الألف وجـه والألف تيمة •

البيـر ميمى (١٩٢٠) :

ولد فى ١٥ ديسمبر عام ١٩٢٠ فى أسرة يهودية بتـونس • كـان أبوه يعمل فى صناعة البرادع ولغته الأساسية هى العـربية • التحـق بالمدرسة الحاخامية • وانضم الى حركة الشباب اليهودى • ومدرسـة كارنو • درس الفلسفة فى الجـزائر • ثم سافر بعد الحرب الى باريس ليكمل دراسة الفلسفة فى جامعة السوربون ، وتزوج من فرنسية ثم عـاد الى تونس حيث عمل مدرسا واقام معملا للدراسات النفسية الاجتماعية • كما عمل مدرسا للفلسفة • واصبح مسئولا عن الصفحة الأدبية فى صحيفة « لاكسيون » • ثم رحل الى فرنسا فى عام ١٩٥٦ عقب اعلان استقـلال تونس • وعمل مدرسا فى جامعة نانتير • ثم مديرا لمجموعة الأبحـاث حول الاستقلال والأدب فى المغرب • وقد نشر ألبير ميمى روايته الأولى ،

« تمثال من ملح » عام ١٩٥٢ بمقدمة من ألبير كامى • ثم جاءت روايته « آجار » عام ١٩٥٥ • وتتابعت أعماله الروائية « صورة مستعمر تسبقها صورة استعمارى » عام ١٩٥٧ • و « صورة يهودى » عام ١٩٦٢ • و « الرجل السائد » عام ١٩٦٨ • ثم مجموعة مقالات تحمل عنوان « يهود وعرب » عام ١٩٧٤ • وقد توقف عن كتابة الرواية فى السنوات الأخيرة بعد روايته « الصحراء أو حياة مغامرات جبير على الميمى » عام ١٩٧٧ • وفى عام ١٩٨٢ نشر كتابا عن « العنصرية » •

ويقول جان ديجو فى كتابه « قاموس الأدباء المغـاربة » : « ان ميمى أراد أن يوسع مدارك الأفق ويزوج العـالم • ولكنه ادرك الاختلافات فى المزيج المتحـد • فتابع ابحـاثه حول الاختـلافات وسيكولوجية الانسان المغلوب على أمره كى يصل الى الايمان فى التفكير حـول الاستقلال • وفى نفس الوقت الذى يحقر فيه مفاهيم العنصرية والاختلافات المتعارضة فى داخـله » •

وفى كتاب « الأدب الفرانكفونى » أن ميمى رغم مغادرته تونس فى عام ١٩٧٦ ، الا أنه صرح بعد ذلك بعشرين عاما أنه رجـل وفى لانتمـائه التونسى وليس الى اسرائيل ، فتونس هى الهامه وهى اللوحة التى يرسـم عليها • فهو يقول : « أرضى هنا • وقد وجدت فيها عالمى وكتبى » (١) •

وفى نفس الكتاب اشـارة ان ميمى اعتبر نفسه يهوديا • وقـد عكس تجربته الخاصة فى جميع كتبه سواء أكانت روايات أم مقـالات : « فى حياتى • فان تجربتى المعاشة تعطى وحدتها لعملى » •

والكاتب فى روايته متمرد من خلال ابطاله على كل كافة أشـكال الضغط على الانسان • وهو يرى أن الرواية هى وسـيلة للمواجهـة • وفى رواياته الأولى يمكن أن نكتشف أن للكاتب جيتـو خاصا يسـمى « الحـارة » ، وما لبث هذا الجيتو ان اختفى فى أعماله التالية • وأصبح هناك اشراق خاص يعبر عنه • ففى روايته الأولى « تمثال من ملح » يحكى عن طفولته وسنوات المراهقة • انه شخص يحس بالمهانة والمرارة والتمرد • ويعانى كثيرا من اللغة الفرنسية التى يتكلمها فى المدرسة • ولغته العربية الأم التى يتكلمها خارج جدران المدرسة • انه طفـل من أسرة بسـيطة • وفقيرة • لكن هذا لا يمنعه أن يلحظ أن الثقافة الغربية التى يتلقاها فى المدرسة تسيطر على الثقافات الأخرى • لذا ، فهو يتركها خلفه ما أن يترك المدرسة • « أنا اسمى موردخاى • الكسندر بن لوشى » •

---

(١) la litterature francophone ; Paris 1980, p. 220.

« آه ! هذه الابتسامة الرقيقة من زملائى ؟ هل هى زقاق مسدود ، أم درب ؟ • كنت أجهل اننى أحمـل اسما سخيفا • فى المدرسة أعى اسمى فى المقـام الأول ، لا أعرف سوى اسمى الذى أخرجه من حافظتى • ومن خجلى » •

يجد الصغير نفسه يحمل العـديد من الأسـماء الثقيلة النطق • ولا يعـرف الى أى منها ينتمى • وهو لا يستطيع أن يعتاد على أى منها •• « سم نفسك بيير أو جان • وغير عاداتك وغير تمثالك الظـاهر فى هـذا البلد « أنا يهودى » وبشكل محدد أنا اسكن الجيتو » أو « أنا التمثال الكريه ، أو أنا رجل شرقى العادات » أو « انا مسـكين » • وعـلى أن ارفض كل هذه المقـولات الأربع • والا اخجل منها بعد كانت مبعث احتقار• أو أن يسـخر منها البعض ابان طفولتى » (١) •

وفى روايتـه الثـانية « أجار » يتحدث الكاتب عن تجـربة الزواج المختلط ، والبطل هو تقريبا صورة مكررة من المراهق فى الرواية الأولى، لكنه أصبح طبيبا وتزوج من فتاة فرنسـية جاءت الى تونس • ويرى الكاتب ان الزواج من أجنبية قد أعطى البطل تجربة جديدة عليه ان يتعلم منها • فعلى الزوجة أن تواجه عالما يختلف عن عالمهـا • ويقـول الكاتب ان هذه الرواية بمثابة محاولة لكشف النقاب عن بعض الأمور السلبية من أجل الوصول الى انجاح الزواج المختلط • والأخوة بين الشعوب » •

وقد عـاد الكاتب الى نفس الشـخصية فى روايتـه « العقـرب » المنشورة عام ١٩٦٩ • فنحن أمام الطبيب اليهودى مارسـيل • انه أحـد الذين ظلوا فى تونس عقب الاستقلال • وهـذا الطبيب عليه أن يقـوم بترتيب أوراق أخيه الأديب اميل الذى اختفى فى ظروف غامضة • ويعثر فى أحد أدراجه على بعض الأوراق • فيعكف على دراستها •

« سألته عن مهنته • كى نستريح • ولأن هـذا يسبب لـه المتعـة دائما • لم نبق طويلا فى هذا المستوى الأول • انه فقير • نصف أعمى •

---

(١) نفس المصدر •

رحل ابناؤه جميعا · تزوجوا · واستقروا · ولكنه لم يطلب منهم شيئا · بدا غير يائس · ويفضل هذه الآلة التى تملأ الغرفة · كان يغزل الخيوط الصفراء والحمراء · والخضراء · والبيضاء فى لفات طويلة » ·

« اذا لم تود ألا يعاملوك كفقير · فالتزم الصمت » ·

« ولكن هل كنت فقيرا · ضعيفا · مجهولا من الآخرين ياعم مخلوف ؟ » ·

« أجل ، يا بنى ، أجل · لكن عم تتكلم ؟ لست فقيرا ولست واهن القوى · هل تود أن تقول انك فاقد أهلية الاحترام ؟ هذا خطأ · من المهم أن تهين الآخرين · هل تعنى أنك غاضب على نفسك ؟ أسرع وعش فى سلام يا بنى · والا ستظل فقيرا ومنقسما » (١) ·

وكما سبقت الاشارة ، فان هذه النماذج من الأدباء العرب اليهود تؤكد أننا أمام أدباء وطنيين ، تجاه أوطانهم التى تربوا وعاشوا فيها · وعندما رحلوا عنها ، أو ظلوا فوق ارضها ، فان ابداعهم مستمد من أديم هذه الأرض العربية ·

---

(١) نفس المصدر ·

الفصــل التاســع :

أدب المهجر الناطق باللغة الفرنسية

أغلب الأدباء العرب الذين كتبوا باللغة الفرنسـية ، بدءوا حيواتهم الأدبية فى بلادهم العـربية ثم سـافر الكثير منهـم الى باريس الى حيث فرص النشر الأفضل · والى امكانية أحسن للتواجد · خاصة أن عمليـة نشر الكتب المطبوعة بالفرنسية فى الوطن العربى بدأت تتقلص بعد نهـاية الحرب العالمية الثانية ·

ومع سنوات الستينات والسبعينات لاحت فى أفق هذا الأدب ظاهرة جديدة ، وهى ظاهرة ابناء المهاجرين الى أوروبا · لقد وجد هؤلاء الأبناء انفسهم بين ثلاثة محاور · فهم ينتمون الى مجتمع عربى مسلم جاء منه الأهل · ثم هم يعيشون فى مجتمع غربى يختلف · وهنـاك محـور ثالث يمثل مزيجا بين الاثنين السابقين ·

وقد ذكرت آنى كريجيه كرينكى أن شـابا من الجيل الثـالث من المهاجرين الجزائريين قد تحدث اليها قائلا : « نحن نتلقى ثلاثة انماط من التعليم تعليم من آبائنا · وآخر من مدرسـتنا · وثالث من الحيـاة . وهذه الأنماط الثلاثة تتضارب » (١) ·

فأبناء هذا الجيل الثانى ، أو الثالث عليهم أن يعيشوا فى ازدواجية ملحوظة · فهم فى المدرسة قد يضطرون الى تغيير اسمائهم · فيتحول محمد الى ميمو أو موريس · وجميل الى جيمى · كم هم فى أمس الحاجة الى الجمـاعة · وان يذوبوا فى داخلهم · ويخشون أن يبدوا مختلفين عنها · انهم قد يخجلون من أصلهم الذين جاءوا منه · ويدفعهم هـذا ، كما قالت السيدة / كرينكى ، الى تغيير اسمائهم وارتداء الزى الأوروبى

---

(١) Les muslumans en France. A. K. Kriniki. maison neuve Paris, 1986.

كالجينز والحذاء الطويل والبلوز • ويصبح من الصعب عليهم السير فى ركاب آبائهم أثناء رحلات العطلات الاسبوعية وهم يرتدون زى البدو • ولا توجه هذه المشكلة الغلمان وحدهم ، بل الفتيات أيضا • فالفتاة لا ترغب أن تكون سندريلا ، ولكنها تحاول أن تبدو طبيعية فى مجتمع أكثر تحررا من مجتمعها الذى يرى أنه يجب أن تتزوج الفتاة مبكرا •

ولا شك أن مثل هذه التجربة يمكن أن تولد أعمالا فنية وأدبية متميزة • فهؤلاء الأدباء من الجيل الثانى والثالث لم يعيشوا فى بلادهم الا القليل من سنوات الطفولة الأولى • أو لعل بعضهم لم يطأ قط الأرض العربية لكنه يحمل هويتها وجنسيتها • وهو مسلم عليه ان يلتزم بتعاليم الدين فى المجتمع الغربى •

ولذا ، فان تجربة هذا الكاتب قد اختلفت كثيرا عن أدب الأديب الذى عاش ردحا من شبابه الأول فى الوطن العربى • فمن المعروف أن أندريه شديد وألبير قصيرى وأمين معلوف والطاهر بن جلون وكاتب ياسين وغيرهم قد تركوا بلادهم وهم فى سن النضج • لذا ، فان أغلب أعمالهم تدور فى الساحة العربية بغض النظر عن الزمن الذى تجرى فيه أحداث رواياتهم •

وبينما وجد الكثير من أبناء الجيل الثالث ان السينما والمسرح هما أفضل سبل الابداع • فان هناك نماذج أخرى قد اتجهت فقط الى الكتابة • وسوف نختار هنا نموذجين متقاربين متناقضين • الأول أديب نشر روايته الأولى عام ١٩٨٣ • ثم سرعان ما تحول الى السينما • فجاءت شهرته فى عالم الفن السابع أكبر من شهرته ككاتب • وهو مهدى شرف • أما النموذج الثانى فهو لكاتبة عاشت أغلب سنوات حياتها فى فرنسا وهى ليلى صبار •

مهدى شرف (١٩٥٢) :

يقول مهدى شرف فى حديثه الى مجلة « سينما توجراف » : « ولدت فى قرية صغيرة جدا على مسافة خمسين كيلو مترا من مدينة « تلمسان » فى الجزائر • وذلك فى عام ١٩٥٢ • وكنت اتصور اننى سأعيش وأموت فى هذه القرية الصغيرة • الى ان وقع ذات يوم حادث غير مجرى حياتى • فقد ماتت أختى وقررت أمى أن ترحل عن القرية الى المدينة • ودفع هذا بأبى الى أن يسافر الى فرنسا بحثا عن فرصه عمل • حدث هذا أيام حرب التحرير • وأصبح من الصعب على أبى ان يعود الى الجزائر • لذا رحلنا الى فرنسا للحاق به • وأصبح اندماجنا صعبا فى المجتمع الفرنسى • وعندما أتحدث عن العنصرية فانا أذكر المدرسة بشكل

خاص .. كنت صبيا عربيا . ولذا فقد تم ايداعى فى فصل للمتخلفين فى مركز لاصلاح الشباب المنحرف .. كان كل الصبية من أصحاب المشاكل أو من أبناء مدمنى الخمر وبنات الهوى » (١) .

ومهدى شرف لم يتلق تعليما منتظما . ولكنه عمل فى المصانع الباريسية لسنوات عديدة .حيث عمل فى البناء وفى أعمال أخرى وضيعة . ومنذ صغر سنه وهو فريسة لهذا التناقض الحضارى الذى يعيش فيه . وقد استفاد مهدى شرف من هذه التجربة . فكتب روايته الأولى « الشاى فى مخدع آرشى أحمد » والعنوان قد يبدو غريبا بعض الشىء . لكن من سياق الرواية سنعرف مدى المعاناة التى عاشها البطل الذى ليس سوى صورة من شرف نفسه .

فنحن هنا أمام قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين . الأول عربى مهاجر فى باريس والثانى فرنسى . هذا الشابان انخرطا فى زمرة الشباب ، ولا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما . أو لتحقيق أحلامهما . هناك حيث البطولة سائدة فى الأحياء الشعبية أو الأحياء التى يسكنها المهاجرون العرب . وفى هذه الأحياء تزداد حوادث السرقة والاغتصاب وتبرز العنصرية وعدم المساواة . بينما يحاول الكثيرون من الناس المحافظة على معانى الصداقة والحب .

وفى الرواية نرى امرأة فرنسية تدعى جوزيت تترك ابنها لامرأة جزائرية تدعى ماليكة . وابن ماليكة يعمل فى البناء : « ماذا هناك من فجوات فى أعمال الفرسان . ففى القلب تماما مثلما فى الحياة . يبدو كل شىء صغيرا . ولكنه يتسع مع مرور الزمن . ويزداد اتساعا ويبدو أشبه ببحيرة . تمزق . وندوب لا تعالج .. لقد عادت هذه الفجوات . ويجب أن نهتم بها والا اختنقت . لذا فالمرء تنتابه الرغبة فى الصراخ والرغبة فى الانفجار » (٢) .

كثيرا ما يدور حوار بين جوزيت وماليكة فى الهاتف . أما الابن الصغير مجيد فانه يصحب أباه كثيرا الى مدينة الغجر التى جاء اليها الكثير من المهاجرين . وبعد أن سقط الأب من السقف فان على مجيد أن يصحب اباه بنفسه .

والرواية تعبر عن الصعوبات التى يعانيها الشاب العربى ، وهو يتلقى تعليمه فى هذه البلاد . فهو لا يمكنه أن ينطق بكلمة « ارشميدس »

---

(١) Cinematograph, juillet, Paris, 1985

(٢) Le the au harem d'archi Ahmed, M. Sharef, mercure de France, Paris, 1983.

الا لو قسمها ونطقلنا بمفهومه الخاص « آرشى ٠ أحمد » ثم يدمج الكلمتين معـــا ٠

والمهاجرون فى الرواية لا يتحدثون عن الوطن ٠ ولكنهم يتحدثون عن البلاد التى يعيشون فيها الآن ٠ فهم يخرجون فى يوم العطلة مثـــل الآخرين من أجل النزهة ٠ ولكن هذه المرأة المسلمة تمارس شعائرها التى تعلمتها بنفس الطـريقة ٠ انها فى البيت امرأة عـربية ٠ فهى ترى أن التليفزيون قد يكون مفسدة للأبناء عندما يعودون من الخارج ٠ ويقول مهدى شرف فى جـريدة لوموند ــ ٢ مايو ١٩٨٥ : « لقـد كتبت الرواية كى أنشرها ٠ ولم تبع الرواية لفترة طـــويلة فبدأت أفـكر فى تحـويلها الى سينما » ٠ ويقول أيضا فى نفس الجريدة : « يتخيل البعض أن الناس الذين يسكنون المناطق الشعبية يعيشون فى جحيم ، أردت أن أظهر العكس وأنه يوجد فى هذا المحيط الهـائل حنان كبير » ٠

والجدير بالذكر أن هذه الرواية قد فازت بجائزة أدبية بارزة تحمل اسم الأديب جان فيجو عام ١٩٨٣ ، ثم حولها مهدى شرف الى فيلم فى أول محاولة له فى الاخراج السينمائى عام ١٩٨٥ وحصل من خلال هذه التجربة على جائزة أحسن مخرج فى جوائز سيزار عام ١٩٨٦ ٠ وقـد أجرى تعديلا فى عنوان الرواية الى «الشاى فى حريم ارشميدس» ٠

وبعد ذلك انشـغل مهـدى شرف بالسينما ٠ فأخرج فيلمـا عن المهاجرين عام ١٩٨٧ يحمل عنوان « الآنسة منى » ثم بدأ يقـدم افـلاما فرنسية الموضوعات لا توحى أن مخرجها من المهاجرين ٠ الا أن المفاجأة الحقيقية هى عودته فى عام ١٩٨٩ الى الابداع الروائى من خلال عمله الثانى « حركى مريم » le Harki de Meriem ، لدى نفس النـاشر ٠

وفى روايته الثانية عاد مهدى شرف للحديث عما يدور فى احيـاء العرب بباريس ٠ ففى هذا الحى تبرز العنصرية واضـحة ٠ ويموت شاب عـــربى على أيدى العنصريين ٠ تدور الأحـداث هنـا فى ســنوات الخمسينات ٠ وسليم بطل الرواية فى الثانية والعشرين من عمره ٠ وهو ابن لرجـل جزائرى من المناضـلين ٠ كان أبوه متطوعا فى الجيش الفرنسى فى شمال أفريقيا فى زمن الاستعمار ٠ ولد عــز الدين أبو سـليم وتربى فى فرنسا وكان يحمل الجنسية الفرنســية ٠ اذن ، نحن هنا أمام جيلين مختلفين من العرب الذين يعيشون فى فرنسا ٠ الأول انتمى تماما الى الفرنسيين وخدم فى صفوفهم ٠ والثانى دفعته ظروفه أن يعيش فى فرنسـا

ووالد سليم يدعى عز الدين · كان عليه ان يعمل سائق أوتوبيس · ويعيش مع ولديه وزوجته فى المدينة · وهـو رجـل جـاد ويتسم بالخـلق الكريم · ولديه اعتزاز واضح بكرامته · وقد قام عز الدين بالحـاق ابنه فى مدرسة تحفيظ القرآن ، بفرنسا وذلك بدافع ألا ينسى الصـغير سليم القـرآن الكريم ولا اللغة العـربية · ومع ذلك فان زملاءه فى الكتاب يسمونه « الفرنسى » ·

وعندما كبر سليم قرر أن يدرس القانون بناء على رغبة أبيه الذى تمنى أن يراه محاميا كى يمسح عن نفسه كل احساسه بالمنفى · ويدفع هذا بسليم الى التفوق · ويزداد احساس الأب بالفخر · فيقول لزوجتـه مريم : « أصبح ابننا أقوى من الفرنسيين » · ويصبح سـليم محط أنظـار المدينة · فعمدة المدينة يستقبله · ومدير المدرسة يقف الى جواره كى تلتقط له الصور ·

وسليم هذا ، المتفوق ، عليه أن يدفع حياته ثمنا لعنصرية بعض الفرنسيين ضد العرب · ففى الليل وبينما هـو عائد الى بيتـه يفـاجأ براكب دراجة بخارية يعترضه ثم يطعنه بالمطواة ·

ويقول محمد عبد القوى : « فى نهاية سنوات الخمسينات لم تكن كلمـات الحرب والاسـتقلال موجـودة فى الريف الذى كان يعيش فيـه عز الدين · بعيدا عن العاصمة الجزائر او عن الأوراس · لذا ، فقد كان يسخر حين يسمع أن هناك حربا أو اسـتقلالا · كان فى الرابعة والعشرين من العمر عندما انضم الى الجيش الفرنسى · ليس ضد أحـد · ولـكن ضد الجـوع · والبطن الخـاوية · وأرضه الجافة · والشمس التى جففت النهر الذى يخترق التربة · كانت الأرض شديدة القسوة وتشبه ثعبـانا يولى الفرار · ليس فيهـا شىء الا ونفق · مات أخواه الأكبر والاصغر · فهرب من الريف يدفعه الجـوع · وهو الذى لم يبق له شىء فى حيـاته كى يعطية لأقرانه » (١) ·

عز الدين هو بالطبع الأدب الذى سافر الى فرنسا كمـا تحدث مهدى شرف عن أبيه · فعندما هاجر الى فرنسا كان يتصور أن الحياة فتحت أبوابها له · ولكن بعـد أن أنجب لهـا ولدا متفـوقا ومتميزا فانه يحصد موته على أيدى نفس الأشخاص ·

الأرض العربية غير موجودة بالمرة فى هذه الروايات · ولكننـا أمام عرب يعانون فوق الأرض التى هاجروا اليها · ولا شك ان الحنين

---

(١) Discours de la litterature, notre libraire, 1992, Paris, p. 129.

هنا أضعف كثيرا من نوع الحياة التى يحاول أبطـــال مهدى شرف أن ينجحوا فيهـا مهما كان الثمن ٠

ليـلى صـــبار (١٩٤١) :

الكاتبة الثانية التى تنتمى الى هذا الجيل الثـانى من المهـاجرين هى ليلى صبار ٠ انها لا تعرف مثل مهدى شرف من اللغة العربية سوى كلمات مكسورة الأحرف ٠ ولكنها تحاول أن تخرج من هذه الازدواجية الثقافية التى تعيش فيها ٠ والتى عبرت عنهـا بنفسهـا فى الـكثير من المواقف ٠ فقالت فى كتاب « المسلمون فى فرنسا » : « لا يمكن أن نقول أن مشاكل الهجرة المغربية أكثر عنفا وألما ، وان هناك بلادا قد تحررت وتجاوزت الحروب وتعيش فى حرية ٠ فماذا عن هؤلاء القادمين من الجزائر أو المغرب أو تونس ٠ يشعرون انهم ليسوا على ما يرام ٠ سواء فى فرنسا أو فى الجزائر ٠ لكن لماذا جاءوا الى هنـا ؟ ربمـا لانهم لا يشعـرون بالراحة فى بلادهم الأصلية ٠ وأن هناك نظاما سياسيا للنساء ، بشكل خاص ، وعلى الرجال أن يعيشوا الحيـاة التى يرغبـون فيهـا سـياسيا واجتماعيا وثقافيا » (١) ٠

ولدت ليلى صـــبار فى ١٩ نوفمبـر عـام ١٩٤١ فى قرية أفلو لأب جـزائرى وأم فرنسية ٠ عاشت فى الجـزائر الى أن بلغت سـن السـابعة عشرة ٠ ثم سافرت الى فرنسا للاستقرار هنـاك ٠ حيث عملت مدرسة - وليلى صبار تكتب المقال والرواية والشعر ٠ نشرت مجموعة من المقالات عام ١٩٨٠ تحت عنوان « انهم يقتلون الفتيات » ثم جاءت روايتها الأولى فى نفس السنة تحت عنوان la pédophile et la maman ثم نشرت روايتها الثانية « شهر زاد » عام ١٩٨٢ ٠ و « تكلم يا ولدى » Parles fiston عام ١٩٨٤ و « شىء يبحث عن شقيقة روحه » عام ١٩٨٧ ٠

ويقول حسن محمد موسى ان تجربة المنفى عند ليلى صبار تنطوى على بعد شخصى أصيل ومميز ، وهى قد ولدت وعاشت طفولتها وصباها فى الجزائر لم تتعلم من العربية الا النزر اليسير ٠ فالفرنسية بالنسـبة لها هى لغة التخاطب والتعبير الأدبى ٠ والمنفى عندها يراوح بين لغتى أمها وأبيها : « كانت أمى فى منفاها تتكلم لغتها وكان أبى يكلمنى بلغـة أمى ٠ كان هو الآخر منفيا فى لغة أخرى ، لغة المستعمر ٠ لغة أبى كانت فى أذنى وعلى الدوام ٠ لكنها بقيت قريبة ومبعثرة فى آن ٠ ورغم ذلك كنت اعشق سماعها ملغمة بالمفاجآت وبالمصاعب فى كل لحظة ٠ حـين يشرع أبى يتحدث لغته ، لا أفهم سـوى بعض كلمـات معـزولة اترجمهـا

---

(١) المرجع السابق ٠

أو ارتق منها خرقة معنى ، لكننى لا أبحث عن المعنى • اننى أسمع فحسب وأندهش للأصوات والنبرات وأتمنى لو أن أبى لا يتقطع عن الكلام •

« حين حضرت الى فرنسا انقطعت زمنا عن سماع العربية ، لغة أبى ، وقد عزلتنى ذريعة الدراسات العليا عن الجـزائر الأم • وخن الأب• لم ألاحظ احساسى بالوحدة فى لغة أمى ، ولأمى وطنها فأنا لست منفيـــة هنا اذ أكتب بلغـــة أمى نصــوصا أكاديمية للجـامعة فى لغة دراســية اصطلاحية • وكنت احاول الكتابة الأدبيـــة خـارج اللغــة الدراســية فتستعصى على فكأننى فقدت الذاكرة » (١) •

ومن المعروف ان ليلى صبار قد تبنت الدفاع عن حقوق المرأة وكتبت فى هذا المضمار مقالات كثيرة نشرت فى العديد من المجلات الفرنسية منها مجلة « العصور الحديثة » كما نشرت لها مقالات تحمل توقيعها فى مجـلة « اليوم الســـابع » •

وقد اعتبر خميس خياطى أن ليلى صبار ــ فى مجلة اليوم السابع ، أكتوبر ١٩٨٧ ــ كاتبة فرنسية •• وهو يرى أن لرواياتها طعما خاصا • طعم البحث عن الهوية والأم والابتعـاد عن الأب والعــالم الخــارجى المأساوى والشقى • أما ثقافة الشمال الغربية فهى ممثلة فى كل صفحة مما تكتبه ليلى صبار عبر بيئة ثقيلة ، ثقل آلامى ، لكنها تحمل وراءه طعم الحرية • شهرزاد التى تجوب أنحاء فرنسا بحثا عما يكون شـخصيتها العربية • فقد سافر الابن كثيرا لكنه لم يجد ما يقوله لأمه التى لا تترك له أية فرصة كى يتحــدث اليهــا •

وفى روايات الكاتبة ، كما يقول الخياطى ، « تبحث ليلى صبار عن مخرج يمزج بين ثقافتين • وذلك حال جيل عربى بأكمله ولد فى فرنســا ولكنه لا يعتبر نفسه فرنسيا • ولد بعيدا عن موطنه الأصلى ولكنه لا يعرف عن هذا الوطن الا الخرافات والحواديت • جالس بين كرسيين ، ولا يعنى بهــذا أو ذاك » (٢) •

وفى روايات الكاتبة هناك دائما النساء اللائى يعشن بين عالمين متناقضين • وهناك مسافات فى حياة هؤلاء النســاء ســواء مســافات زمنية أو مكانية • ومثلما حدث فى رواية «الشاى فى حريم آرشى احمد» ، فان رواية « شىء يبحث عن شقيقة روحه » نجــد صداقة بين فتى من أصل عربى وآخر فرنسى • واذا كانت الصداقة قد نمت بين الشخصين

---

(١) كتابة فى منفى اللغــة ــ مجلة أوراق أبو ظبى ــ العدد ٣٠ •

(٢) جعفر رولان فى الزنزانة ، خميس خياطى ، اليوم السابع ، باريس ، • اكتوبر ١٩٨٧ •

عند مهدى شرف فى أزقة باريس المتهيدة ، فان صداقة جعفر بالفرنسى رولان قد نمت فى زنزانة ٠

وفى السجن تاق جعفر الى مخاطبة العرب من امثاله ٠٠ لذا فلم يكن يميل الى محادثة المساجين الفرنسيين الذين لا يخلو سلوكهم من العنصرية ، ومن خلال قصاصات الصحف تمكن من معرفة عنوان فتاة عربية راح يراسلها ويخبرها أنه فى سجنه يبحث عن شقيقة لروحه ٠٠ فتصله رسالة من فتاة عربية تسكن فرنسا تخبره انها أيضا تفتش عن هذا الشقيق ٠

ويبدأ جعفر فى الاحتكاك بالعالم الخارجى الداخلى ٠ فهو يريد أن يعبر عن شعوره للفتاة بأن يرسل لها قصيدة مسجلة على شريط ، الا أن صوته يزعج زميل الزنزانة الفرنسى ٠ ومن هنا تقوم الصداقة بين جعفر ورولان ٠

ويتعلم رولان هذه التجربة الجميلة من السجين العربى ٠ فيرسل خطابات الى فتاة فرنسية تدعى « آنى » مشغوفة بمسألة الغيبيات ، رتدور الرسائل دافئة تعبر عن افكار الانسان وتعكس ما فى روحه ٠

وعندما يخرج جعفر من السجن يفتش عن الفتاة العربية التى كانت تراسله فلا يجدها ٠٠ لعلها كانت خيالا لا وجود له ٠ وفى وسط زحمة بحثه عنها يلتقى بفتاة تدعى « ليز » ، انها المرأة التى كانت سببا فى دخول رولان ، السجن ٠ « لقد كان للعامل الثقافى تأثيره فى علاقة ليز بجعفر ٠ ترى ليز فى جعفر صورة الفارس العربى ويرى جعفر فيها الطبيعة الفرنسية والأرض الفرنسية التى يود امتلاكها ٠ وفى فصول شيقة القراءة تصور ليلى صبار التحام جعفر بالريف الفرنسى بوالدة ليز بالطبيعة الفرنسية وكأنه وجد فى كل هذه العناصر اوجها عديدة من شخصيته الدفينة ٠ فتستغل ليز هذا التماثل وتؤثر على جعفر للقيام بسرقة أحد بائعى المجوهرات ، وتفشل السرقة ويرمى بجعفر مرة أخرى فى السجن ، فيلتقى ثانية برولان ، ويتغلب عليه الصمت » (١) ٠

اذن ، فليلى صبار قد فعلت ما فعله مهدى شرف ٠ فليست أرض هذا النوع من الروايات فقط هى فرنسا ٠ بل ان الأبطال الآخرين ، غير

---

(١) المصدر السابق ٠

العرب ، هم أيضا من الفرنسيين · وقليلا ما نجـد أن هناك صـداقة بين عربى وآخر · بل على العربى ، فى هذه الروايات ، ان يختار اصدقاءه من الفرنسيين سواء من الذين يدفعونه فى الحياة · أو من الذين يقتلونه ، ويدفعون به الى الهاوية · وقد اختلفت هـذه السمات عمـا كتب بعض الفرنسيين أنفسهم حين صوروا حياة العرب فى الأحياء التى يعيشـون فيها ومنهم مثلا رواية « هى نقطة الذهب »Gout d'or التى كتبها ميشيل تورنييه عام ١٩٨٥ · فالعرب فى هذه الرواية يعيشون فى عالم عربى لا يخرجون منه الا عند الضرورة القصوى ·

الفصل العاشر :

السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية

شكلت اللغة التى يقدم بها الفنان العربى أعماله فى المهجر عقبة فى التواصل مع المجتمع الذى ينتمى اليه ، أو ذلك الوافد تجاهه ٠٠ فالفنان العربى الذى هاجر الى أوروبا فى ربع القرن الأخير يمكنه أن يتقن لغة واحدة للتعبير ٠ اما لغة البلد الذى هاجر اليه ٠ أو يظل يحتفظ بلغته العربية فى أسبقيته عند التعبير ٠٠

وقد ظلت مشكلة اللغة تطارد الفنان العربى ، خاصة القادم من شمال أفريقيا الى فرنسا فظل الفنان يقاوم رغبته فى أن يقدم ابداعه الفنى بلغة أجنبية لأن فنه موجه فى المقام الأول من نبع تجربته العربية سواء أكان جمهور هذا الفنان هو العربى أم أى شخص آخر فى العالم ٠ لكن هذه المقاومة بدأت تقل بصورة ملحوظة خاصة مع نظام المنح الذى تقدمه وزارة الثقافة الفرنسية للمخرجين السينمائيين الذين يعملون فى افلام تتفق مع الثقافة الفرنسية ٠

وهنا بدأت المقاومة تجاه استخدام اللغة الفرنسية فى التعبير الفنى تقل : فظهرت فى السنوات الأخيرة مجموعة افلام ناطقة بالفرنسية تتناول أحوال المهاجرين العرب الى فرنسا وأوروبا من ناحية أو التجرد من هذه التيمة التى أصبحت مستهلكة والتوغل فى الحديث عن مشكلات الانسان الأوروبى المعاصرة ٠

تطرح الباحثة آنى كريجيه كرينكى تساؤلا فى كتابها « المسلمون فى فرنسا » المنشور فى عام ١٩٨٥ ٠ « هل يمكن لثقافة مهاجرة حقيقية أن تتولد فعلا ؟ لقد بدأ المهاجرون فى صناعة سينما خاصة بهم تسمى بسينما المهاجرين ، وبدأ يظهر مسرح جديد به الكثير من أصالة البلاد التى جاءوا منها لكنه يختلف ٠ وحدث نفس الأمر للفن التشكيلى ٠٠ » ٠

اما المخرجة والروائية آسيا جبار فتقول حسبما نشرت مجلة جون أفريك : « الأهم هو تعريب العقل · وتعريب النفس ، وبعد ذلك يأتى تعريب الأعمال الأوروبية ··

وترى آسيا جبار أن السينما هى البديل الرائع الكتابة : لأن الشخصية تظهر بمختلف أبعادها ، تماما كما هو الفرق بين الرسم والنحت ··

ويمكن حصر الزوايا التى ارتبطت بها السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية فى ثلاثة محاور أساسية هى :

★ المحور الأول: سينما الأقدام السوداء· وهى تعنى مجموعة الأفلام التى أخرجتها مجموعة من المخرجين الفرنسيين الذين عاشوا فى الجزائر والمغرب العربى ابان الاستعمار الفرنسى ، وقد عاش هؤلاء الفرنسيون فى الجزائر على انها موطنهم الأول الذى تربوا فيه · ولم يعرفوا وطنا آخر بديلا له · وكانت صدمتهم شديدة حين اضطروا للرحيل عن المغرب العربى الى فرنسا فتمزقوا بين انتماءين : انتماء الى الجزائر التى تربوا فيها ، وانتماء آخر الى فرنسا التى يحملون جنسيتها · واغلب أعمال مخرجى الأقدام السوداء تدور ضمن هذا المحتوى · وكما قال احدهم : « لم تكن بلادنا هى وطننا · كنا نتكلم لغة جاءت من مكان بعيد ، من ناحية أخرى هناك الكثير منا لم يذهب الى فرنسا · هذا الوطن ، وهذه اللغة بمثابة أسطورة ، فكل منا ينطقها على طريقته · حتى اقتربنا من الأصل اللاتينى الذى وضعت فى البداية منه الجملة التى قد تكون أكثر أهمية » ·

ويقول نفس الكاتب : « لم يكن وطننا أبدا بلدا لنا · ولم تكن جغرافية فرنسا هى تاريخنا أو جغرافيتنا · وكان أقراننا يتمتعون بعيون زرقاء وشعر أشقر ، مما جعلنا أقل عبثية بالنسبة للأطفال هناك · كانت مدننا تنتمى الينا · وكان وجودنا هناك مؤقتا ، لذا فقد كتب أصحاب الأقدام السوداء تاريخهم وجغرافيتهم من أجل تصوير الواقع · وقد ضاع كل هذا الآن ، لم تكن الـ ١٣٢ عاما حية هنا ، الا انها تمثل تاريخ البشرية » ·

وقد أطلق تعبير الأقدام السوداء Pieds Noire على هؤلاء الذين عاشوا فى الجزائر وقد ظهر هذا التعبير كما يقول فردريك موسور عام ١٩٥٦ فى مجلة الاكسبريس فى الزمن الذى كانت فيه الجزائر جزءا من فرنسا · وذلك على غرار زنوج أمريكا · أو ما يسمى بفرنسيى الجزائر وأعتقد أن بعضهم قد تجاوز هذا الاحساس وقد جاء التعبير من الميثولوجيا اليونانية عندما وطأ هيراقليس بقدميه أرض آسيا فاستعمرها لأن سكانها رأوا قدميه كبيرتين ·

وأشهر مخرجى الأقدام السوداء هم الكسندر اركادى وروجيه حنان • وروبير حسين ودنيز عمار • ويعتبر اركادى أكثر هؤلاء تأثرا بحياته فى الجزائر، أخرج للسينما اربعة أفلام حول هذه الظاهرة هى، «ضربة حظ» ١٩٧٩ ، «العفو الكبير» ١٩٨١ ، « المهرجان العظيم » ١٩٨٣ . و «آخر ليلة فى طنجة» • واركادى ـ كما جاء فى مجلة «ستوريا» ـ أغسطس ١٩٨٧ ـ مثل العديد من ابناء هذه الثقافة يحمل تمزقه فى داخله منذ ربع قرن • فهو لا ينسى قط بلد طفولته • «فنحن لا نتخلص بسهولة من الجذور • لأنها اشد قوة من ان نجتثها » • ومع هذا فهو لا يحمل فى داخله أى شعور بالمرارة ، وهو قادر من خلال السينما ان يصور كل اشباح الماضى، ومن خلال الكاميرا يمكنه أن يكون شاهدا على هذه اللحظات التاريخية • ويتحدث عن فيلمه الأول انه أحس بالحاجة لاخراجه ، والرغبة فى ترجمة مشاعره الى صور ، وقد أصبحت الصور رمزا للجنون والفن والمعرفة • ولكل ما عرفه أصحاب الأقدام السوداء فلكل أسرة من الأقدام السوداء عشرات الحكايات التى ترغب فى أن تقوم بسردها » •

ويقول اركادى انه يعود دائما الى الجزائر من أجل أسباب مهنية • ويرى أنه « يوجد اختلاف كبير بين جزائر طفولته والجزائر المعاصرة • ففى كل مرة يجد نفس الديكور واللون الأبيض الذى تطلى به البيوت • والبحر الذى لا يزال يحتفظ بزرقته » ، بل انه يرى نفس مقابر الفرنسيين : « لم تتغير طوال عشرين عاما • لم تود أمى التى ولدت فى الجزائر أن تسمع شيئا حول العودة للماضى وقد الححت عليها منذ عامين• وقررت الحضور الى الجزائر • ولم تندم على هذا • فقد كانت زيارتها رائعة • حيث التقت ببعض صديقاتها وعادت الى سنوات طفولتها وشبابها » •

لقد ظل كل شىء فى ذاكرتها عن الجزائر محفورا دون اى ندم واذا داعبت حنين الماضى فسوف تتعلم أن تعود لتعيش فى الجزائر •

★ المحور الثانى : وهو محور العرب الذين هاجروا الى فرنسا فى أوائل الستينات • عقب تحرير الجزائر ـ مثلما تقول آنى كريجيه كرينكى ـ والذين ارتبطوا بثقافتين : ثقافة البلاد التى جاءوا منها وثقافة البلاد التى هاجروا اليها • ولغة التعبير الأولى عند هؤلاء هى الفرنسية • أما اللغة العربية فتجىء فى الدرجة الثانية خاصة عند التعبير فى الفنون كالرواية والشعر والسينما • وفى حالات الأدب كثيرا ما يصعب على هؤلاء الكتابة باللغة العربية بنفس الطلاقة التى تحدث باللغة الفرنسية مثل حالة المخرجة والكاتبة المغربية آسيا جبار •

وقد بدأت هذه الظاهرة فى جذب الانظار عندما قام شاب جزائرى يدعى عبد الكريم بهلول باخراج فيلمه الأول « شاى بالنعناع » عـام ١٩٨٢ • وفى نفس العام قام شاب من العمال العرب المهاجرين الى فرنسا بنشر روايته الأولى تحت عنوان : « الشاى فى مخدع آرشى احمد » فى دار نشر ميركور ، ولكن الرواية ذابت مثل العشرات من الروايات فى أروقة المكتبات الفرنسية الى أن عرضها مؤلفها مهدى شرف على المنتجة ميشيل راى زوجة المخرج كوستا جافراس التى تحمست لانتاجها ــ من الجـدير بالذكر أن عشرات الروايات العربية المكتوبة بالفرنسية لم تجد طريقهـا بعد الى الشاشة العربية سواء الناطقة بالفرنسية أم العربية ــ وهنا بدأت مرحلة انتقال السينما العربية الى اللغة الفرنسية والتمويل فى أغلب هذه الأحوال يتم من قبل الحكومة الفرنسية • فمثل هذا العمـل لم يكن لـه أن ينتج فى العالم العربى بدليل أن أحدا لم يتحمس لانتـاج الروايـات الأخرى المكتوبة بالفرنسية لأدباء آخرين •

ورغم أن أسماء عديدة انضمت أخيرا الى قائمة المخرجين العرب المهاجرين الى فرنسا والذين يعملون بتمويل فرنسى ، ولا يعبرون قـط باللغة العربية ، الا أن مهدى شرف هو أهم هـذه الأسـماء فهو منذ أن أخرج فيلمه « الشاى فى مخدع أرشميدس » ١٩٨٥ يقدم فيلما جـديدا كل عام • وهو يحظى فى السينما العربية الناطقة بالفرنسية بنفس المكانة التى يحظى بها الطاهر بن جلون فى الأدب العربى المكتـوب بالفرنسـية أما أهم الأسماء الأخرى فهنـاك رشيد بوشارب صـاحب فيلمى « باتـون روج » ١٩٨٧ و « شاب » ١٩٩٢ •

ولأن رواية مهدى شرف عربية مغتربة داخل اللغة الفرنسية ، فلا يمكن الا أن نعتبرها رواية عربية • وفى طاقم العـاملين لفيلمـه الأول المأخوذ عنهذه الرواية التى تغير اسمها قليلا، وهناك العشرات من الأسماء الفرنسية •• الا أن مهدى استعان أيضا بالكثير من العرب المقيمين فى فرنسا • وهكذا حمل الفيلم الهوية العربية رغم أنه تمويل فرنسى •

ومهدى شرف مولود فى مدينة ماغينيا الجزائرية فى ٢٤ أكتـوبر ١٩٥٢ • رحل الى فرنسـا عـام ١٩٧٠ وعمل فى العـديد من المصـانع الباريسية • وحتى عام ١٩٨٣ حيث نشر روايته التى استقاها من تجربته الخاصة • حول العرب المهاجرين الى فرنسا • وهذا الموضوع هو شاغل مهدى شرف فى العديد من الروايات والأفلام التى يكتبهـا مثلما حـدث فى السيناريو الذى كتبه للمخرج السويسرى آلان تانر تحت اسم «الأرض الحرام » ، عام ١٩٨٥، حول بعض الشباب الذين يهربون المخدرات عند الحدود السويسرية ، ومن بينهم فتاة عربية لا ترضى أبدا لحبيبها الأوروبى

أن يفض بكارتها الا بعد الزواج ٠ ثم أخرج مهدى أفلاما أخرى هى « الآنسة منى » عام ١٩٨٦ و « كاموميل » ١٩٨٨ ٠

تقول ميشيل راى : « لن ننسى ان كوستا جافراس مهاجر ٠ وقد قرر أن يجمع كل المعلومات التى تتعلق بالجيل الثانى من المهاجرين ، عن الأطفال الذين وصلوا الى فرنسا فى نهاية الستينات وما بعدها ٠ وكانت المصادفة أن وقعت عيناى على مقال حول كتاب مهدى شرف ، وقررت أن انتج هذه الرواية ٠ رغم أن الأمر بدأ أشبه بنزوة » ٠

والجيل الثانى الذى تقصده ميشيل راى هو الذى وصل عقب نجاح الجيل الأول فى البقاء ، وقد اقترب بناء هذا الجيل الآن من العشرين ويردد أحدهم كما جاء فى كتاب «المسلمون فى فرنسا » : «نحن نتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم آبائنا وآخر من مدرسينا وثالث من الحياة وتتضارب هذه الأنماط الثلاثة » ٠ ومن أبرز أبناء هذا الجيل الروائية ليلى صبار ٠

وتتناول رواية مهدى نفس الموضوع الذى يلح على الانسان العربى فى المهجر ، فالمخرج عامل بسيط استطاع أن يكافح فى حياته ٠ ويعيش بين تضارب الثقافتين اللتين انتمى اليهما ٠ عمل فى البناء وعن هذا العالم صاغ أحداث روايته فالعمل ينتقل حيث توجد مبان جديدة ٠ وفى الرواية يتحدث الراوية أن النطق باسم أرشميدس أمر بالغ الصعوبة فاختار أن ينطقه هكذا أرشى أحمد ٠٠ لكن ما أن اندمج داخل اللغة الفرنسية حتى ينجح فى النطق الصحيح فكثيرا ما أزعجته نظرية ارشميدس « لقد كتبت الرواية كى أنشرها ٠ ولم تبع الرواية لفترة طويلة فبدأت أفكر فى تحويلها الى سينما » (لوموند ٢ مايو ١٩٨٥) ٠

والفيلم حول قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين : أحدهما عربى والثانى فرنسى ٠ عن حياتهما وانخراطهما فى زمرة شباب حيث لا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما ٠ وأيضا بدافع الحشمة ٠ هناك حيث البطولة سائدة فى الأحياء الشعبية ٠ والتهريب والسرقات والعنصرية والتعصب والظلم يحافظ بعضهم على معانى الصداقة والحب والدعابة والضحك ٠ ويقول المخرج : « يخيل للأشخاص الذين لا يسكنون المناطق الشعبية أن العيش فيها جحيم ، اردت أن أظهر العكس وانه يوجد فى هذا المحيط المتسع حنان هائل » ٠

وعن نفس العالم أيضا تحدث شرف فى فيلمه الثانى « الآنسة منى » حيث تدور الأحداث من خلال شخصيتين احداهما عربية والأخرى فرنسية العربية هى سمير ، شاب ينتمى للعائلات المهاجرة التى تسكن الأحياء

الشعبية بباريس ، انه يعيش هناك بلا بطاقة هوية . لهذا فهو عاطل دائما . صديق المتيه والبرد والداعرات . فيقرر ان يصادق رجلا مخنثا يدعى الآنسة منى . وهذا الرجل يريد اخراج سمير من ظروفه . وأن يوفر له المسكن فيحاول ، سرا ، أن يساعده رغم أنه لا يختلف كثيرا عنه . فهو عاطل مثله ويسعى الى جمع مبلغ من المال لاجراء عملية يتحول بعدها الى امرأة ، ووسط البحث عن النقود تحدث جريمة قتل وتتحول الأشياء الى سوداوية .

أما ثالث أفلام مهدى شريف «كاموميل» فهو يختلف قليلا ، حيث رأى المخرج أن عليه ان يخرج من جعبة الهجرة والمهاجرين ولكن ليس عليه أن يبتعد كثيرا فهناك قصة حب رقيقة بين فتاة وشاب من الأحياء الشعبية. لقد انقذ الشاب الفتاة من موت محقق ويحاول أن يساعدهما بدوره فى الحياة بعيدا عن المعاناة .

★ المحور الثالث : وهو يدور حول السينمائيين الذين سعوا للاستفادة من التمويل الفرنسى للأفلام غير الفرنسية التى يتم انتاجها من قبل فنانين متأثرين بالثقافة الفرنسية ويطلق عليهم عادة اسم الفرانكوفونيين . أو الناطقين باللغة الفرنسية. وقد سعى أكثر رجال السينما العرب والأفارقة لايجاد تمويل فرنسى لأفلامهم قدر الامكان . البعض نجح والبعض لا يزال يحاول . بعض هذه الأفلام ناطق باللغة العربية . وحين يعرض فى اوروبا تتم دبلجته الى اللغة الفرنسية . اما البعض الآخر فهو يتكلم مباشرة باللغة الفرنسية . بل ان بعض المخرجين يستعين فى أفلامه بطاقم فرنسى مثلما فعل محمد الأخضر حامينا فى « الصورة الأخيرة » .. وقد نجح أربعة مخرجين مصريين فى تدبير التمويل الفرنسى منهم يوسف شاهين فى انتاج « الوداع يا بونابرت » و « اليوم السادس » و «المهاجر» ثم يسرى نصر الله فى «سرقات صيفية» و «مرسيدس» أما تجربة « اخناتون » لشادى عبد السلام فلم تر النور لرحيل صاحبها . كما تم تمويل فيلم « شحاذون ونبلاء » لأسماء البكرى عن رواية للكاتب البير قصيرى من قبل القناة السابعة الفرنسية . كما تم تمويل فيلمها الثانى « كونشرتو فى درب سعادة » من نفس القناة .

ومن فلسطين يبرز ميشيل خليفى ، كما أن هناك من الجزائر محمود زمورى والأخضر حامينا ومرزاق علواش ، ورضا الباهى من تونس . ولأنه من الصعب ان نتحدث عن كل هذه النماذج فسوف نختار بعضا منها . والغريب أن بعض المخرجين يداعب أفكار الغرب ربما اكثر من الأفلام الفرنسية . مثل قصص الحب المصنوعة على طريقة «روميو وجوليت» بين العرب واليهود فى « حب فى باريس » « لمرزاق علواش » و « الصورة

الأخيرة » لحامينا · و « رياح السد » لنـــورى بوزيد ·· وهنا يلعب المخرج العربى المتحدث بالفرنسية لعبة مغازلة الثقافة التى تقوم بتمويله بالاضافة الى النقد الذاتى للثقافة والعادات العربية المهاجرة · أو التى تسعى للهجرة، حتى وان ظلت فى مكانها· وهكذا فان المخرج يضمن لفيلمه مغازلة الثقافة التى مولت الفيلم · ونعيد القول بأن تجربة مهدى شريف وحصوله على التوزيع العالمى المضمون من خلال شركات التوزيع الفرنسية· دفع وراءه الكثير من المخرجين المقيمين فى العـالم العربى أن يسيروا فى نفس الدرب بعد أن حصل على جائزة « ســيزار » عام ١٩٨٥ عن فيلمه الأول ·

تقول موسوعة السينمائيين العرب التى أصدرها جان ميشيل كلونى باللغة الفرنسية ان محمد الأخضر حامينا هو صاحب الفضـل فى انشاء سينما جزائرية · وقد خصصت له أكبر عدد من الصفحات ، أكثر من أى فنان سينمائى عربى آخر · وحسب البيان الفيلمى للمخرج فان كل أفلامه قد أنتجت من خلال مؤسسة السينما الجزائرية · فقد بدأ حياته السينمائية عام ١٩٦٤ بفيلم « زمن العودة » وهو فيلم قصير ، ثم فاز فيلمه الروائى الأول « رياح الأوراس » ١٩٦٧ بجائزة العمل الأول فى مهرجان كان ، كما نال جائزة أحسن سيناريو من اتحاد الكتاب السوفييت · ثم تتابعت افلامه ومنها «وقائع السنوات الجمر» ١٩٧٥ ، ونال جائزة السعفة الذهبية فى مهرجـان كان فى نفس العـام · ثـم كانت آخـر افـلامه العـربية « ريح الرمل » ١٩٨٢ ·

لكن ، ما الذى دفع حامينا ان يقدم فيلما يختلف على الأقل بالنسبة للغة ·؟ لقد أسند بطولة فيلمه « الصورة الأخيرة » ١٩٨٦ الى مجموعة من الممثلين الفرنسيين منهم فيرونيك جانو وميشيل بوجناح – وهـو يهودى تونسى لمع فى المسرح والسينما الفرنسية · كما اسـتعان بولديه الصغيرين مالك ومروان حادينا ·

تدور أحداث الفيلم فى قرية أبو سنعادة ، التى تقـع على مسـافة ٣٠٠ كم من مدينة الجزائر ، ويسمونها بوابة الصحراء ، كما صور أجزاء من الفيلم فى قرية ميسر التى ولد بها المخرج فى عام ١٩٣٤ ·

اذن ، فالفيلم عربى رغم أن اللغة غير عربية ، ويقول المخرج ان القصة التى اختارها لفيلمه قد حدثت فى الواقع · فى نفس الأماكن التى قـام بالتصوير فيها ، ويقول انه شهد أحـــداث هذه القصة فى عـام ١٩٣٩ : « أحكى قصة كلير بوبيه من خلال منظور طفل صغير يدعى مولود يقوم

بدوره ابنى الأصغر مروان » • المدرسة هى فرونيك جانو • التى عاشت فى الجزائر ابان سنوات الاحتلال وهى تنتمى الى الاقدام السوداء » •

فى هذه القرية ، تعيش المدرسة حياة هادئة • لكن هناك بعض « الخصوم » الذين يريدون ايذاءها • أحدهم من الفرنسيين يحب العرب ولكن لا يميل الى اليهود منهم • ولذا يكره كلير • ويراها عاهرة • هناك نماذج أخرى يقدمها الفيلم مثل بعض سكان القرية وبعض المدرسات وناظر المدرسة • أما الصغير مروان فانه يحب المدرسة الفرنسية أما سيمون – ميشيل بوجناح – فهو يلعب دور اليهودى الجزائرى ، الذى يلقى معاملة سيئة من الآخرين ، فيطاردونه وينغصون عليه وقته ، خاصة فيما يخص علاقته بكلير •

يقول الأخضر حامينا فى مجلة بروميير – يناير ١٩٨٦ – ان فرنسا قامت بتمويل فيلمه بمبلغ ١٣ مليون فرنك • ومع ذلك فقد بقى الفيلم جزائريا » •

بدأ عطاء مرزاق علواش فى السينما الروائية عام ١٩٧٦ بفيلم « عصر قتلته الرجولة » • ولم يخرج حتى الآن سوى خمسة أفلام منها « مغامرات بطل » ١٩٧٨ ، « الرجل والنوافد » ١٩٨١ • ثم « حب فى باريس» ١٩٨٨ و « باب واد الحوم» ١٩٩٤ • والأفلام الثلاثة الأولى ناطقة باللغة العربية من انتاج مؤسسة السينما الجزائرية • أما الفيلم الرابع فهو انتاج فرنسى وناطق باللغة الفرنسية ويقول حول هذه التجربة فى مجلة اليوم السابع – ٨ فبراير ١٩٨٨ : « كل ما حدث لى مع هذا الفيلم ، يختلف اختلافا جذريا عما حدث لى مع أفلامى الأخرى لتأخذ عملية الترويج بالنسبة للأفلام الأخرى • فليست تلك مسألتى بل هى مسالة الدولة : أنها لا تمتلك ، الوقت الكافى لمحاسبة فيلم معين ، المسألة بالنسبة لى اليوم شائكة على مستويات حرية محاسبتى •• هناك من يقول : لنتركه يصور فيلما فى فرنسا ، فيفشل ، الخطورة موجودة على مستوى الانتاج • ولكنها غير موجودة على مستوى الابداع • أقول انه ابتداء من فيلم « حب فى باريس » فانى سأخرج أفلامى سواء بمساعدة رسمية أو بدونها » •

ومريم بطلة هذا الفيلم فتاة يهودية جزائرية • ترحل الى باريس لأول مرة وقد اعتزمت أن تتبوء مركزا محترما فى عالم الأزياء ، وفى أول الأمر يساعدها بعض الأصدقاء من باريس فتقرر العمل فى مهنة أخرى بسيطة • حيث تعمل كموظفة خزانة محل سوبر ماركت • وهناك تلتقى بشاب فرنسى ذى أصل جزائرى خارج من السجن لتوه • يتعرفان على بعضهما ثم تقوم بينهما علاقة قوية • وهذا الشاب – على – يرفض العودة

الى بلاده· ويريد أن يصبح من رواد الفضاء، انه حلم يراوده منذ سنوات الطفولة · حاول اقناع الطرف السوفيتى بتدريبه على تحقيق هذا الحلم فلم ينجح · وعليه أن يقنع الطرف الأمريكى ، لذا ، فقد قرر السفر الى قاعدة هيوستن لمقابلة المسئولين هناك · ويعتمل هذا الحلم فى داخل على لدرجة أنه يوافق على معاودة الاتصال بزملاء الشر من أجل تدبير الأموال · وفى المطار الذى سيرحل منه مع فتاته تقف مريم تنتظر لكنه لن يأتى··فهى لا تعلم أنه قد تم القبض عليه أثناء احدى العمليات الاجرامية ·

ويقول خميس خياطى فى تعليق حول هذا الفيلم : « مريم ، هذه الفتاة اليهودية الجزائرية تمتلك شيئا ما يجعلها جزائرية ويهودية · ولو الغينا أحد هذين العنصرين لأصبحت مريم فرنسية ، تحلم بأن تكون عارضة أزياء وينتهى الأمر · كان على مرزاق علواش الذى الفنا منه العمل المتقن والقوى فى الشخصيات ، كان عليه أن يعطينا من خلال هاتين الشخصيتين نظرته لعالم هؤلاء العاملين فى الأرض ، بيد أنه استسلم الى السهولة ·· وبعض الاستفزاز والكثير من « الغازات » الخاصة بالحى اللاتينى » (اليوم السابع ٨ فبراير ١٩٨٨) ·

وفى السنوات الأخيرة تغيرت معالم الكثير من السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية · فقد أصبح الكثير من المخرجين العرب المهاجرين الى فرنسا أداة اخراجية بين يدى التمويل الفرنسى ·· واستطاع هذا المال ان يوجه المخرج حسبما يشاء · فاذا كان مهدى شرف على سبيل المثال قد بدأ حياته بتقديم افلام وروايات عن العرب المهاجرين · فان افلامه الأخيرة مثل كاموميل » و « فى بلاد جولييت » عن الفرنسيين انفسهم · حدث هذا أيضا مع مارون بغدادى الذى كان عليه أن يقدم فيلما عن «مارلصاد» وفيلما آخر يتبنى فيه وجهة نظر صحفى فرنسى اتخذته بعض الأطراف اللبنانية رهينة أثناء الحرب الأهلية يحمل عنوان «خارج الحياة» ·· وبدت الأعمال الأخيرة لهؤلاء المخرجين وكأنهم قد تفرنسوا · أو كأنهم قد ذابوا داخل المجتمع الفرنسى ·· وذلك أشبه بالأوربيين الذين تمت أمركتهم فى السينما الأمريكية · وقد حدث هذا أيضا مع أسماء عديدة منها عبد الكريم بهلول وآخرون ·

حاولنا فى هذا الفصل تناول منظور السينما العربية الناطقة بالفرنسية من خلال علاقة التمويل باللغة وواضح من اهتمام الممول ، وأيضا الساعى الى تمويل فيلمه (المخرج) أن اللغة هى العامل الأساسى فى أحداث التمويل · واللغة عند الممول الفرنسى كافية تماما لصبغ الفيلم بالفرنسية مهما كان مضمون هذا الفيلم · وذلك كنوع من الفرنسة التى

صبغها الاستعمار فى بعض الدول التى أقام فيها فترة طويلة وخاصة الجزائر · ومنذ أعوام قليلة أقامت فرنسا مؤتمرا للدول الناطقة بالفرنسية · أكدت فيه أن لهذه البلاد هوية خاصة · لأنها تتكلم اللغة ·· ومن يتكلم اللغة فهو ذو ثقافة خاصة ·· رغم تأكيدنا أن هذه السينما عربية فى المقام الأول لحما ودما وتفكيرا ؛ لأن مبدعيها من العرب وموضوعاتهم عن أبناء عشيرتهم · فان لغة المال تحكم وتسيطر ·· وعلى كل فلهذا النوع الجديد من السينما أكثر من زاوية يمكن من خلالها تحليل ظواهر لم تكن موجودة من قبل ·

المراجـــع

— Achour C. : Dictionneire des oeuvres algerienne Française, Paris, L'Harmattan. 1990.

— Arnaud, Jaqueline : (Colloque) : litteratures maghrebins L'Harmattan, Paris, 1990.

— Bonn. CH., Le Roman algerien de langue françeise, l'Harmattan, Paris, 1985.

— Dejeux Jean : Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, Karthala, Paris, 1984.

— ———————— : La littereture maghrébin d'expression français, que-saisje Paris, 1992.

— Dugas, G. La litterature judes-maghrebins d'expression français, Paris, L'Harmattan, Paris, 1990.

— Fakkar. R. : L'influence française sur le formation de la pesse litteraire en egypte au XIX siécle, Geuthner, Paris, 1973.

— Fontain, J. : La litterature Tunisienne Contemporaine CNRS, Paris, 1990.

— Joubert d-c : Les litteratures francophones depuis 1945, Paris, 1985.

— Khatibi A. : Le roman maghrebin, SAER Rabal, 1979.

— Kriniki A. : Les musulmen en france, maison-neuve, Paris, 1985.

— Luthi, Jean Jaques : Le français en egypte, Beyrouth, 1982.

— ———————— : introduction a la litterature d'expression français en egypte, edition de l'école, Paris, 1974.

— Memi, Albert, Ecrivains francophons du Maghreb 'Anthologie, Seghers, Paris, 1985.

— Selim Abou : Le bilinguisme arabe — français au Liben. Du. F. 1962.

— Yequotte, Ragaa : Albert Cossery, Alazhar, 1990.

مراجـــع عربيـــة

تتمثل المراجع العربية فى كافة المجلات ، والصحف ، المشار اليها داخل متن الكتاب ، خاصة مجلة « اليوم السابع » ، ومجلة « أوراق » ، والعدد ٢٩٢ من مجلة رسالة اليونسكو حول « المهاجرون بين ثقافتين » . ومطبوعات أخرى عديدة .

للمؤلـــف

فى الروايــة :

١ ـ لمــــاذا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨١)

٢ ـ أوديســـانا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨٢)

٣ ـ الشـــــروة
(المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣)

٤ ـ البديـــــل
(هيئـــة الكتـــــاب ١٩٨٧)

٥ ـ وقائع سنوات الصبا
(مركز الانماء الحضارى ـ حلب ١٩٩٤)

٦ ـ زمن عبد الحليم حافظ
(المركز الفضى ١٩٩٦)

فى الترجمـــة :

١ ـ ألهة الذباب ط٢ (عن ويليام جولدنج)
(دار الهلال ١٩٨٤ ـ ١٩٩١)

٢ ـ شـــحاذون ومعترون (عن ألبير قصيرى)
(هيئة الكتاب ١٩٨٧)

٣ ـ العاشق (عن مرجريت دوراس)
(هيئة الكتاب ١٩٩٠)

٤ ـ منزل الموت الأكيد (عن ألبير قصيرى)
(سعاد الصباح ١٩٩٢)

٥ ـ العنف والسخرية (عن ألبير قصيرى)
(دار الهلال ١٩٩٣)

٦ ـ اللاأخـــلاقى (عن أندريه جيـد)
(الدار المصرية اللبنانية ـ ١٩٩٤)

فى الدراســات :

١ ـ الرواية اليهودية فى الولايات المتحدة وفرنسا ط١
(آفاق عــربية ١٩٨٦) ٠

٢ ـ الاقتباس فى السينما المصرية ط٣
(نهضة مصر ١٩٩١)

٣ ـ رواية التجسس والصراع العربي الاسرائيلى
(نهضة مصر ١٩٩١)

٤ ـ الخيال العلمى ٠ أدب القرن العشرين
(الدار العــربية للكتاب ١٩٩٣)

٥ ـ جائزة نوبل ٠ أضواء وأسرار
(دار المعارف ١٩٩٣)

٦ ـ موسوعة الأفلام العربية (مع آخرين)
(بيت المعرفة ١٩٩٤)

٧ ـ موسوعة جائزة نوبل
(مكتبة مدبولى ١٩٩٦)

٨ ـ سينما عــادل امام
(المركز الفضى ـ ١٩٦٦)

فى أدب الأطفال :

ـــ أجمـل حكايات الدنيا (٥٠ كتــابا)
(نهضة مصر ١٩٩١)

- المغـاز الشروق (٢٠ كتـابا)
(دار الشروق ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦)

- مغامرات رأفت الهجان
(دار الهـــلال ١٩٩١)

- اجمل حكايات البحر/حكايات سينمائية مثيرة/بستان الحكايات/ حكايات غيرت الدنيا (جـ ٢) شارلى المتشرد ـ العملاق ـ آلة الزمن العجيبـــة ٠
(دار الهلال) ٠

- خيـــال × خيـــال (٦ كتب)
(دار الشروق ـ ١٩٩٦)

- طه حسين ـ حسين القبانى (عظماء عاشوا بالأمل) ٠
(دار المعارف ١٩٩٥)

- حكايات علمية مثيرة
(دار عثمان ـ ١٩٩٥)

- اعـرف عصرك (٥ كتب)
(دار الهـــلال ـ ١٩٩٦)

- مغامرات آلة الزمن العجيبة
(هيئة الكتاب ـ ١٩٦٦)

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيًا (٢ جـ)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتريدل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وادنبيت
فن الترجمـة	د٠ صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج· داديلى أنــدرو
مختارات من الأدب القصصى	جــوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جــوهان دورشــنر
حـــرب الفضـــاء	طائفــة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د· الســيد عليـــوة
الميـــكروكمبيـــوتر	د· مصــطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صــبرى الفضــل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطــونى دى كرســبنى
كتـــابة الســيناريو للســينما	دوايت ســـوين
الزمن وقياســـه	زافيلســكى ف · س
أجهــزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـــوزيف داهموس
التجـــربة اليـونانية	س · م بـــورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمــد رزق
العـــلم والطــلاب والمــدارس	رونالد د· سمبســون ونورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفــكر	د· أنور عبــد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روســتو
تبســـط الكيمياء	فــريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جــون يوركهـــارت
التخطيط الســياحى	آلان كاســبيار
التـذوق الســينمائى	ســامى عبــد المعطى
البـذور الكونيـة	فــريد هــويل شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـــروبين والايدز	روى روبرتســـون
نجيب محفــوظ على الشـــاشة	هاشــم النحـــاس
صـــور أفريقيــة	دوركاس ماكلينتــوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليـــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيـة اسـماك الزينـة	ديفيـــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جـون ر ٠ بورر وميلتون جـولد ينجـــر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	ارنولد توينبى
قضـــايا وملامح الفن التشـكيلى	د٠ صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخـــرون
بـداية بلا نهـــاية	جـــوزيف داهموس
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سـديرة
حـــوار حـــول النظـامين الرئيسـيين للـــكون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــــاب	اريك موريس وآلان هـــو
اخنــــاتون	ســـيريل الــدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا ٠ هـــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمــوعة من البــاحثين
لغـــة الصــــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجاى متشـيو
العـــالم الثـالث غـــدا	بـول هاريســـون
الانقـــراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اسـماعيل
الشـــاهنامة (٢ جـ)	الفـــردوسى الطـــوسى
الحيـــاة الكريمة (٢ جـ)	بيـــرتون بورتر
كتـابة التـاريخ فى مصر	جـــاك كرابس جرنيـــور

من النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميــــرى
ترانيم زرادشـت	اختيار / د٠ فيليب عطيـة
الســـينما العــربية	اعداد / مونى براخ وآخـرون
دليـــل تنظيـم المتـاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص أخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيتفن أوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بـول كولنـــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمـا
الهم يصـــنعون البشر (٢ ج)	فانس بكـارد
فى النقد الســينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راصـــل
الأزهـــر فى ألف عـــام	بينـارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شـــاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـــويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـاك كرايس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	أحمـــد محمـــد الشـــنوانى
الشموس المتغيـــرة	اســـحق عظيمـــوف
مدخـــل الى عـــلم اللغـــة	لويتـــو تـــود

حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د٠ أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ ٠ ج ٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف ٠ بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداری
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج ٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج ٠ كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ ٠ ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب ٠ ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستانلى جين سولومون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٩٤٨

ISBN — 977 — 01 — 4745 — 1